مكتبة ٦٠٧

سيمون دو بوفوار

رواية

دِماءُ الآخرين

ترجمة: محمد فطومي

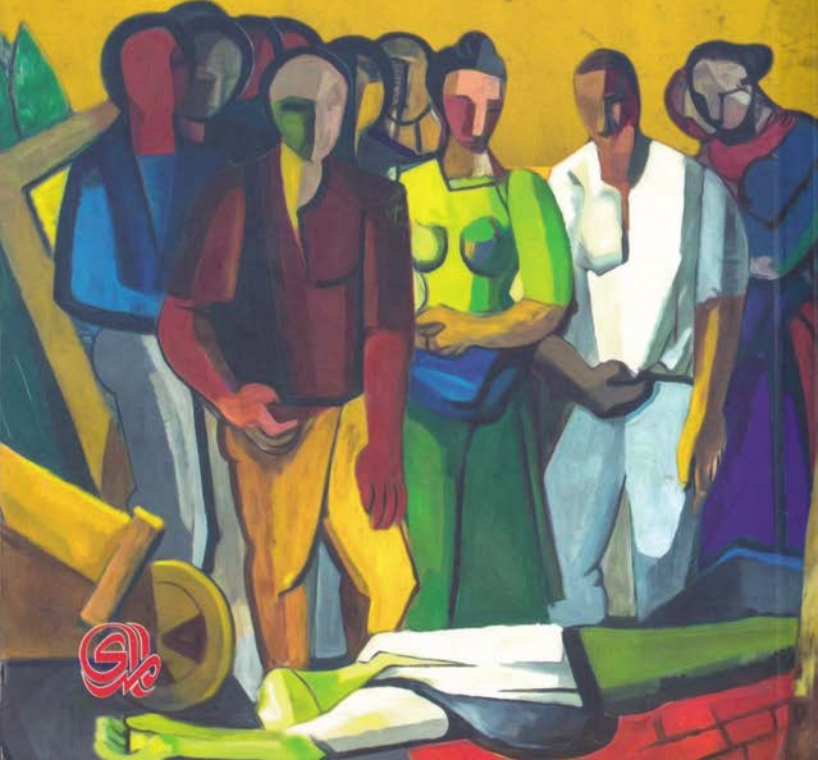

مكتبة | ٦٠٧

دِماءُ الآخرين

رواية

Author: **Simone de Beauvoir** | اسم المؤلف: سيمون دو بوفوار

Title: **Le Sang des autres** | عنوان الكتاب: دِماءُ الآخرين

Translated by: **Muhammad Fatumi** | ترجمة: محمد فطومي

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** | الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Edition Gallimard, Paris, 1945

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com - email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

٢٠٢٠ ٩ ٢٧

مكتبة
t.me/t_pdf

سيمون دو بوفوار

مكتبة | ٦٠٧

دِماءُ الآخرين

ترجمة : محمد فطومي

مقدّمة المترجم

لا أبالغ إن قلتُ إنّي عثرتُ على كنز أدبي وأنا ألج عالم سيمون دو بوفوار الرّوائيّ. قد يسأل سائل، كيف يُكتشف المنتشر والمشهور؟ ربّما لهذا السّبب بالذّات توارت عنّي كاتبة جديرة بخوض تجربتها ودخول عالمها والتّعامل معها كأولويّة. فقد ارتبط اسمُها بدفاعها عن قضايا المرأة لمجرّد كتاب ألّفته أبدت فيه رأيها من الجانب الفلسفيّ والاجتماعيّ فيما عُرف بالأنوثة، وهو كتاب «الجنس الثّاني»، تلته مقالات مهمّة في هذا المبحث جعلت منها أيقونة «نسويّة». التهمت الأيقونة -أو هذا ما حدث معي على الأقلّ- الرّوائيّة الكبيرة. وصدقاً ليس الدّفاع عن حقوق المرأة ما ينقص في النّصوص الأدبيّة، بالنّسبة إلى قارئ روايات مثلي، ولا هو من بين ما يصعب إيجادُه. كنتُ إذًا، بسبب ما يجدر أن يكون الجانب الأكثر توهّجاً في تجربتها سأفوّت على نفسي فرصة الاطّلاع على أعمال أدبيّة عظيمة، وأُحرَم من ولوج عالم روائيّ حافل بالمفاجآت والمتعة والعمق؛ يأسر بقدرته على صنع الدّهشة والتّشويق ومناورة التوقّعات، ويُورّط في لعبته الفلسفيّة والدّراميّة المُنفَردة.

وعن هذه الرّواية أودُّ القول معوّلاً فقط على انطباع القارئ وما يعلق في الذّاكرة من أسئلة مزعجة: إنّ الكاتبة قد نجحت في تحويل الأفكار إلى أحداث؛ فجاءت متشابكة وملغزة تشابك القِيَم وتقاطعها. تخيَّلْ لحظةً أنّك في متاهة جدرانها مرايا: من الصّعب الاهتداءُ إلى المخرج، لكنّك، من دون شكّ، ستلوحُ لك نفسُك كما لم ترها من قبل، ستُفاجئك

نفسُك، ستكتَشِفُها، ستبرُز لك، ستستقِلُّ عنك وربّما ارتسمْتَ في نظرها. جون بلومار بطلُ هذه الرّواية حدث معه ما يشبه ذلك. عندما اختار إعادة بناء حياته حسب مشيئته لا كما صمّمها له قدرٌ لا يطلب رأيك في ما يجب أن تكون عليه عائلتك أو بلدُك أو حقبتك. فكأنّه بذلك أراد أن يريد؛ أراد أن يساهم في خلق نفسه؛ أن يخوض تجربة السُمُوّ والصّدق والتّجرّد من الحظّ. ولو جاز اختزالُ مغامرته الإنسانيّة في جملة واحدة لقلتُ: «لقد بذل جون بلومار من نفسِه دماءَ الآخرين!». قد تبدو المفارقة عجيبة وهي تحديداً من بين أجمل ما قد يظلّ يشغل المخيّلة ويمنح هذه الرّواية جمالاً استثنائيّاً. ومن خلال جون بلومار ومفارقته العجيبة، لم تُبدِ سيمون دو بوفوار وجهة نظرها في مسائل عديدة متعلّقة بالإنسان، كالحبّ والعمل والنّضال والهزيمة والآخر، بل اختارت أن تحتار أمام أعيننا في شأنها. نجاعةٌ وبراعةٌ، تحوّلت بموجبهما الحياة إلى تهمة والآخر إلى جريمة.

إنّها رواية الحرب، حرب الإنسان مع الآخر ومع نفسه وماضيه وضميره، اختارت لها كاتبتها أن تجري أحداثها إبّان الحرب العالميّة الثانية، ليكتمل مشهد الحرب الإنسانيّة الشّاملة، هي حربٌ مريرة متوحّشة خاضتها سيمون دو بوفوار ضدّ البديهيّ بجميع أوجهه، حربٌ لا يخرج منها منتصراً سوى القارئ.

إلى ناتالي سوركين

كلُّ فردٍ مسؤول أمام الجميع
عن كلِّ شيء.
• دوستويفسكي

-I-

حينَ فتح الباب استدار ت نحوه كلّ العيون:

- ماذا تريدون منّي؟ قال.

كان «لورون» جالساً على كرسيّه بالخلاف أمام المدفأة.

- أودّ أن أعرف إن كان الأمر محسوماً للغد، قال «لورون».

غداً. أجال نظره في ما حولَه. كانت تفوح في الغرفة رائحة الغسيل والكرنب. كانت «مادلين» تدخّن ومرفقاها على الطّاولة. أمّا «دينيس» فقد كان أمامها كتاب. كانوا مُفعمين بالحياة. بالنّسبة إليهم، سيكون لتلكَ اللّيلة نهاية؛ سيكون لها فجر.

رمقهُ «لورون».

- لا يمكننا الانتظار، قال بهدوء. سأذهب إلى هناك عند الثّامنة، إن كان لابدّ من الذّهاب.

كان يتحدّث بحذر كمريض.

- طبعاً.

كان على علم بأنّ عليه الإجابة، إلّا أنّه لم يقوَ على الإجابة.

- اسمَعْ، تعالَ لرؤيتي حالما تستيقظ: لن يكون عليك سوى الطّرق؛ أحتاج إلى بعض الوقت للتّفكير.

- حسناً. سأطرق عند السّادسة، قال «لورون».

- كيف حالها؟ قالت دينيس.

- نائمة في الوقت الحاضر، قال.

سار نحو الباب.

- نادِ إذا احتَجْتَ شيئاً، قالت «مادلين»؛ سيرتاح «لورون» قليلاً. سنظل هناك طوال اللّيل.

- شكراً.

دفع الباب. أن يقرر. كان مُغمَض العينين وانطلقت حشرجة من بين شفتيه، ارتفع الغطاء وسقط، كانت الحياة مفضوحة جدّاً، صاخبة جدّاً، كانت تتألّم، ستذوي، سترحلُ عند الفجر. بسببي. في البداية «جاك» والآن «إيلين». لأنّي لم أحبّها ولأنّي لم أعرف أنّي أحببتها؛ لأنّها اقتربت كثيراً، لأنّها ظلّت بعيدة. لأنّي أوجد. أوجد، وهي، حرّة، وحيدة، خالدة، ها هي ذي في خدمة وجودي، مُستمرّة في التّسلسُل الآلي لأوقاتها؛ وعند آخر حلقة قاتلة، مُصابة في قلبها بالفولاذ الأعمى، الحضور، حضوري، موتها. لأنّي كنتُ هناك، شاحباً، محتوماً وبلا صواب. كان من الأجدر ألاّ نوجد. في البداية «جاك»، والآن «إيلين».

إنّه اللّيل في الخارج، اللّيل من دون مصابيح في الشّوارع، بلا نجوم، بلا أصوات. منذ قليل مرّت دوريّة. في الوقت الحاضر لا أحد يمرّ. الشّوارع مُقفرة. خُفَراءُ الحراسة متمركزون أمام النّزل والسّفارات. لا شيء يحدث. لكن هنا ثمّة خطب: إنّها تموت. «في البداية جاك». أنهى تلك الكلمات الفجّة من جديد. لكن، خلال اللّيل، عبر كلمات أخرى وصُوَرٍ ماضية، فرضتِ الفضيحة الأولى حكايَتَها. لقد اتّخذت شكلاً مخصوصاً لقصّة، كما لو أنّ أمراً آخر كان ممكناً، كما لو أنّه لم يُوزَّع كلُّ شيءٍ قبل ميلادي: القذارة المخفيَّة في مصير كلّ إنسان. ممنوحة بالكامل لميلادي وحاضرة بالكامل من خلال الرّائحة والعتمة التي تسود غرفة الاحتضار، حاضرَة في كلّ دقيقة وإلى الأبد. اليوم وفي كلّ زمان، أنا هناك.

كنتُ دائماً هناك. لم يكن ثمّة وقت من قبل. منذ بدأ الوقتُ العَدَّ

وأنا هناك، إلى الأبد، عبر موتي الخاصّ. كان هناك، لكنّه، في البداية كان يجهل ذلك. أراه الآن مائلاً على نافذة المعرض، لكنّه لا يدري. كان يعتقد أنّ العالم وحده كان حاضراً. كان يتأمّل السّقوف الزّجاجيّة المُتّسخة من حيثُ تفوح، في دفقات، رائحة الحبر والغبار، رائحة عمل الآخرين؛ كانت الشّمسُ تغرق أثاث السّنديان القديم، فيما كان النّاسُ في الأسفل يختنقون تحت الضّوء الخافت للّمبات الخضراء؛ كانت الآلات تدمدم طوال فترة ما بعد الظّهيرة بوتيرة رتيبة. أحياناً كان يهرب. كان، أحياناً، يلبث ساكناً وقتاً طويلاً، تاركاً النّدم يتسلّل إليه عبر عينيْهِ وأُذُنَيْه ومنخارَيْه. في القاعدة، تحت الزّجاج المُلَوّث كان السّأمُ جاثماً؛ وفي الحجرة الطّويلة، كان النّدمُ يتمطّى بلذّة ممتعة. لم يكن على علم أنّه في إمكان العمّال، كلّما رفعوا رؤوسَهم، أن يلمحوا وجهه من خلال فتحات ضيّقة، وجهه المنتعش والمُتعَقّل لطفل بورجوازيّ.

كانت «الموكيت» الزّرقاء ناعمة تحت خدّه. كانت تضوعُ في المطبخ، بانعكاساته النّحاسيّة، رائحة دهن الخنزير المُذاب والكاراميل؛ في الصّالون، صخبت أصواتٌ ناعمة كالحرير. لكن النّدم كان يحوّمُ في عطور أزهار الصّيف وفي لهيب الشّتاء الرّقيق، بلا هوادة. حين نذهب في عطلة، فقد كنّا نهملها خلفنا؛ من دون ندم، تومِضُ النّجوم في السّماء، ويُقضَمُ التفّاح تحت الأسنان، وتبلّل المياه العذبة السّيقان العارية. لكن حالَما نعود إلى الشقّة المُحَنّطة تحت الأغلفة البيضاء، حالَما نحرِّكِ السّتائر المحشُوّة بالنفتالين، فإنّنا نجده صابراً، سليماً. مرّت الفصول، وتبدّلت المناظر، مغامرات جديدة تدور في الكُتب المُذهّبة. لكن لا شيء ينفع مع الهمس الرّتيب للآلات.

كان في البيت ما يوحي برائحة آتية من الطّابق الأرضيّ. على الواجهة كَتَبَ حروفاً منقوشة على الصّخر: «بلومار وأبناؤه للطّباعة». صعد والده من الورشة الكبيرة إلى الشقّة بخطوات رصينة، تنفّس الهواء السّميك الجاثم في السُلَّم. لم ترتّب «إليزابيت» و«سوزون» شيئاً هما أيضاً.

علّقتا نقوشاً على جدران غُرفهما. كانتا تحظيان بوسائد على أسرّتهما. لكنّ أمّهما تعرف جيّداً ذاك القلق الذي يُنكّد الأيّام الجميلة؛ كان وخز الضّمير، أيضاً، بالنّسبة إليها، يتسلّل عبر شفرات الأرضيّة اللّامعة وعبر السّتائر الحريريّة والسجّاد الصوفيّ الفاخر.

ربمّا صار مرسوماً على وجوه مجهولة؛ كانت تحمله معها حيثما راحت، تحت معاطف الفرو، تحت الفساتين المُطَرّزة، المُلتصقة قليلاً بجسمها الممتلئ. لهذا السّبب، من دون شكّ، كانت سحنتها دائماً توحي بأنّها تطلب الصّفح؛ كانت تتحدّث مع الخادمة بنبرة اعتذار؛ وكانت تسير بخطوات صغيرة وحثيثة، منكفئة على نفسها كما لتُقلّص، ما أمكنها، من المجال الذي تحتلّه. كان راغباً في سؤالها، لكنّه كان يجهل تحديداً أيّ كلمات عليه استخدامها؛ ذات يوم، أراد الحديث معها عن النّاس، عن الوِرَش وقالت بسرعة، بصوت مرتاح: «طبعاً لا، ليسوا منكوبين إلى هذا الحدّ؛ لقد اعتادوا. ثمّ إنّ الجميع في هذا العالم مدعوّون بشكل أو بآخر للقيام بأعمال مُقرفة». لم يسأل عن المزيد؛ ما تقوله لم يكن يعني الكثير، كان هناك دائماً انطباع بأنّها تتحدّث أمام شاهد قويّ ويصعب إرضاؤه، من أولئك الذين ينبغي اجتناب صدمهم. لكن وهي تحيك لابن الطبّاخة جهاز رضيع كان في إمكانها اقتناؤه من دون عناء وبسعر زهيد، وهي تُمضي اللّيل بأكمله في إصلاح أخطاء متعهّدة الغُرَف، بدا له أنّه يفهمها. «كم هذا غبيّ، ليس ثمّة موجب»، قالت اليزابيت وسوزون بصوت مُوَبّخ. لم تحاول الدّفاع عن نفسها؛ لكنّها كانت تركض يميناً وشمالاً من الصّباح حتّى المساء، في هروب لا ينتهي، وهي تدفع الكُرسيّ المتحرّك للخادمة الكسيحة، وهي تحدّث بالإشارات ابنة عمّها البكماء. لم تكن تحبّ الخادمة المشلولة ولا ابنة عمّها. لم تكن تتقاضى راتباً على العناية بهما. كان ذلك بسبب الرّائحة البائسة التي تتجوّل في أرجاء البيت، أحياناً، كانت تجعل «جون» يرى فُقراءها؛ كان ذلك أثناء الاحتفال بشجرة «نُوال» وخلال لُمَجِ الأطفال المُحَمَّمِينَ جيّدا؛ كانوا يشكرون

بأدب وهم يستلمون دبيتهم المُخمَليّة الجميلة أو المآزر النّظيفة؛ لم يكن يبدو أنّهم تعساء. لم يكن المُتسوّلون ذَوُو الأسمالِ البالية مُزعجين هم أيضاً، بعيونهم البيضاء، وشهامتهم ونایاتهم المعدنيّة التي كانوا ينفخون فيها بأنوفهم. كانوا يحتلّون في الشّارع مكاناً طبيعيّاً كجمل في الصّحراء. كصينيّ في الصّين. والحكايات التي كانت شائعة عن الشّعراء البُؤساء، والأيتام المُثيرين للشّفقة، كانت دائماً تنتهي بدموع فرح، بأيدٍ تتصافح، بغسيل جديد وخبز مُحمّر. يبدو أنّ البؤس لم يوجد إلّا ليقع تخفيفه ولإتاحة الفرصة لأبناء الأثرياء كي يتلذّذوا بالعطاء: لم يكن البؤس يزعج «جون». لكن كان هناك أمر، يعلمُ ذلك جيّداً، أمر آخر لم تذكره الكتب الذهبيّة الحواشي التي لا تتحدثّ عنها السيّدة بلومار: ربّما كان الحديث فيه مُحَجّراً.

كان عُمري ثمانية أعوام عندما عرف قلبي الفضيحة للمرّة الأولى؟ كنتُ أقرأ في المعرض؛ عادت أمّي بوجه ألفنا رؤيته بين الحين والآخر. وجه مشحون بالعتاب والاعتذار وقالت: «صغير «لويز» مات».

نظرتُ إلى السُلّم الملتوي والرّواق المُبَلّط الذي كان يفتح على عديد الأبواب؛ كانوا جميعاً متشابهين؛ دخلنا. أخذتني «لويز» بين ذراعيها، كان خدّاها ليّنين ومُبتَلّين؛ جلست أمّي على السّرير بجانبها، وراحت تحدّثها بصوت خافت. كان في المهد طفل شاحبٌ بعينين مُغمضتين. نظرتُ إلى المربّع الأحمر، الجدران العارية وموقد الغاز وانخرطتُ في البكاء. كنتُ أبكي فيما كانت أمّي تتحدّث وظلّ الطّفل ميّتاً. كان مُتاحاً أن أفرغ حصّالتي؛ وفي إمكان أمّي أن تسهر ليالي بأسرها؛ سيكون دائماً ميّتاً.

– ما بال هذا الطّفل؟ قال أبي.

– رافقني إلى لويز، قالت أمّي.

كانت قد روت له الحكاية، لكنّها حاولت مُجدّداً أن تُحسّس بها من خلال الكلمات: التهاب السّحايا، ليلة ضيق ثمّ جسم صغير متصلّب. كان أبي يُصغي وهو يتناول حساءه. لم تكن لَدَيّ الرّغبة في الأكل. هناك،

كانت لويز تبكي، لم تكن تأكل؛ لا شيء يعيد إليها ابنها، أبداً، لا شيء على الإطلاق يمكنه أن يمحو حزنها الذي لطّخ العالم.

- إذاً! تناول حساءك، قال أبي. الجميع أكمل.

- لا أشعر بالجوع.

- حاول قليلاً، عزيزي، قالت أمّي.

قرّبتُ الملعقة من شفَتَيّ ووضعتها على الصّحن بنوع من التقزّز:

- لا أقدر!

- اسمَع، قال أبي. إنّه أمر حزينٌ حقّاً أن يموت صغيرُ لويز، أنا آسف لأجلها، لكن لن نبكيه طوال حياتنا، هيّا أسرع قليلاً.

أكلتُ. فوراً، حرّر الصّوتُ القاسي حنجرتي من القبضة التي تضغط عليها. أحسستُ بالسّائل الدّافئ ينزل مع المخاط، ومع كلّ ملعقة تسيل في داخلي كان هناك شيء باعث على الغثيان مثل رائحة المطبعة. لكنّ القبضة انفرجت. ليس طيلة حياتنا. *هذه اللّيلة حتّى الفجر، وربّما أيّاماً أخرى. لكن ليس طيلة حياتنا. ثمّ إنّها مأساتها لا مأساتنا. إنّه موتها. لقد جعلوه يرقد على المقعد بياقة منزوعة ودم متخثّر كالحراشف على وجهه؛ دمُه لا دمي. «لن أنسى. مارسيل أيضاً صرخ بها في قلبه. أبداً، ذلك الرّأس الصّغير، أبداً ذاك الحصان والطّفلُ العاقل الطّيّب. أبدًا ضحكتك وعيناك المُشعّتان بالحياة»*. كان موتُه متغلغلاً في أعماق حياتنا، هادئاً وغريباً، ونحن، الأحياء، سنذكره طويلاً؛ سنظلّ نُذكّرُ أنفسنا به رغم أنّه لم يعد موجوداً. رغم أنّه لم يوجد أبداً بالنّسبة إليه، هو الميّتُ الآن. أنتَ وحيد في هذا السّرير وأنا لا أملك سوى الاستماع إلى هذه الحشرجة التي تخرج من بين شفتيك والتي لا تسمَعُها.*

تناول حساءه وعشاءه بالكامل. والآن ها هو منكفئ على نفسه تحت البيانو، فيما الثريّا الكريستال كانت تشعّ بكلّ أضوائها وتحت قوقعة السكّر كانت الفواكه المثلّجة تتلألأ؛ طريّة وملوّنة كالكعك، كانت النّساء

الجميلات يبتسمن. رمق أمّه: لم تكن تشبه تلك الجنّيات المتعطّرات، ووشاحٌ أسودُ كان يُغطّي كتفيها، وشعرها الفاحم مثل وشاحها كان ملفوفاً في شكل طوق مُمَوّج حول رأسِها؛ لكن أمامها لم نكن نفكّر لا في المُرطّبات الفاخرة، ولا في الزّهور، ولا في الأصداف أو الفطائر الأرجوانيّة. حضور إنسانيٌّ، حضورٌ إنسانيٌّ بحت. كانت تجوب الصّالون من الطّرف إلى الطّرف، في حذائها «الساتان» الخفيف ذي الكعبين العاليَيْن جدّاً؛ وكانت هي أيضاً تبتسم. حتّى هي. قبل قليل، ذلك الوجه المقلوب والصّوتُ الخافتُ والقويّ الذي يهمِسُ لـ «لويز» والآن هذا الضّحك. ليس طيلة حياتنا. خدش السجّاد. لقد مات صغيرُ لويز. أرغم نفسه على تأمّل المشهد: لويز جالسة على حافّة السّرير، تبكي. أمّا هو فلم يعد يبكي. وحتّى من خلال الصّورة الثّابتة والشفّافة، تابع بعينيه الفساتين البنفسجيّة، الخضراء، الورديّة؛ واشتعلت الرّغبة من جديد: شهوة عضّ تلك الأذرع اللّدنة، أن يدفن وجهه في الشّعور، أن يُعضّن ذلك الحرير الخفيف. صغيرُ لويز مات. عبثاً. هذه ليست مأساتي. ليس موتي. أغمض عينَيَّ وأظلُّ مُتسمّراً. غير أنّي سأذكّر به نفسي، وسيدخل موته حياتي. أمّا أنا فلن أدخل موته. انحشرتُ تحت البيانو وفي سريري بكيتُ حتّى نمتُ بسبب الشّيء الذي سال في حنجرتي مع الحساء الدّافئ. أكثر مرارة من النّدم: خطئي. خطأ أن أبتسم فيما لويز تبكي، خطأ أن أبكي بدموعي لا بدموعها. خطأ أن أكون آخر.

لكنّه كان صغيراً كي يفهم. لقد اعتقد أنّ الخطأ قد أُلقِيَ في داخله فجأة، لأنّ أصابعه المشدودة انفرجت، لأنّ حنجرته تفتّقت. لم يحدس ما كان ذاك الهواء الذي يملأ رئتيَّ، الدّم الذي يسيل في عروقي، حرارة حياتي. ظنّ أنّه لو تعامل بخشونة أكبر لطمس هذا الطّعم المتعفّن. حاول أمام مكتبه التّلمذي وراحت نظراته السّطحيّة تلامسُ الصّفحة النّاعمة، بلا ماضٍ، عذراء كالمُستَقبَل. ورقة عارية؛ قماشٌ فارغ؛ أرضٌ صافية ومتجمّدة بعيداً عن الثّورات القادمة.

ألقى مارسيل فرشاته؛ كان على وجه جاك، ذاك النّدم، ذاك النّدم الذي يحترق لأجل كلّ قطرة دم ادّخرناها وكلّ قطرة أرقناها. دمُكَ الأحمر على الغطاء الأبيض، وعلى الضّمادات؛ في عروقك المنتفخة الكسولة والثّقيلة. «لن تمضيَ اللّيلة!» لا زهور ولا نعش: سنواريك التّراب. هذا الوحل العالق في يدي، وهذا الوجل الذي يلطّخ أرواحنا، كان هذا هو مستقبل الفتى الصّغير الذي كان يسطّر السّمين والغثّ بإخلاص. لم يكن قادراً على التنبُّؤ. كان يجهل وزن حضوره: شفّافاً وأبيضَ أمام الصّفحة البيضاء، كان يبتسم للمستقبل الباهر المتعقّل.

كانت تتحدّث برصانة؛ كما لو لم تبدر عنها تلك الحركات المُرتَعِشة والمتردّدة. كما لو أنّها لم تمشِ بخطوات صغيرة مكتومة. كانت تقول إنّ البؤس والعبوديّة، الجيوش والحروب كالشّغف المُمَزّق وسوء الفهم الكئيب، جميعها لم تكن سوى الحمق، الحمق الإنسانيّ الذي لا يُحتَمَل. لو شاء لتغيّر كلُّ شيء. أنا بريء من جنونهم؛ فكّرت أنّه كان في إمكانها التجوال في المدينة، اليد باليد. كانت تقفز بحذائها الصّغير ذي الكعبين، وكنتُ أسحبها بهَيَجان الطّفل؛ كان من الممكن أن نوقف المارّة في السّاحات، كنّا سنجلسُ في المقاهي، وكنّا سنخطب في الحشود. لا يبدو ذلك مستحيلاً. في شارع مكشوف مثل «سيفيّ» Seville، ذات صباح محموم جرى خلاله انقلاب. راح فيه النّاسُ، فجأة، يركضون في كلّ اتّجاه مُضطربين؛ مُطيعاً دائماً لمسار الأزقّة، كان أبي يركض ماسكاً بـ «إليزابيت» و«سوزون»؛ توقّفَتْ، ولتقاومَ التّدافُعَ الغبيَّ فردتْ ذراعيْها؛ كنتُ متأكّداً من أنّه لو لم يحكم أبي قبضته عليها، لو أنّه فردَ ذراعَيْ الرّجل الكبيرتين خاصّته لاستعادت الجماهيرُ المقهورة خطواتها المُطمَئنّة. لكنّ أبي لم تكن له نيّة إيقاف الزّحف الأعمى للنّاس؛ كان يركض بوقار وسط الازدحام ولم يكن التّحريض ليؤثّر في رأسِه العنيد.

عندما بدأتُ أطرحُ عليه أسئلةً سخيفة بادَر بالابتسام. لاحقا لم يكن قادراً على الابتسام. كان يتحدّث بغروره الحامضِ عن العمل

والإضراب. كان يشعرُ بأنّه في قمّة البذخ الذي تحفّ به الحقوق من كلّ جانب، واثقاً تمام الثّقة من أنّه ليس عليه الاهتمام بالنّشوة التي يمنحها التّرف. كان يعملُ طوال النّهار وفي المساء كان يقرأ كتباً ضخمة وكان يُدوّن بعض الملاحظات. لم يكن يحبّ أن يتلَقّى، كما لم يكن يخرج البتّة تقريباً. كان يأكُل ويشرب بلا مبالاة.

كانت يوميّاتُه توحي بأنّه يرى سيجارَهُ والبورغونيْ Bourgogne والأرمانياك Armaniac 1893 على أنّها محاباة شرفِيّة ضروريّة فقط للسّلام الذي يغمُرُ ضميرَه.

«الرّدمُ يكون دائماً من الأسفل»، فَسَّر لي. «لن يكون بمقدورك تأديب الحشد، لن تقدر إلا على إلغاء النّخبة». كان صوتُه حاسماً، من دون نبرة، لكن في عُمقِ عينيه كان هناك خوف غاضب. صمتُّ ولاحت لي الحقيقة تدريجيّاً. استنشق بتلذّذ رائحة تمزّق العالم كأنّها رائحة بخور. لم يكن البيتُ فحسب: كانت المدينة بأسرها موبوءة: الأرض بأكملها. عند المساء، في المترو، كانت الكآبة ذاتها تخنقني. وضع الرّجال أيديهم على ركبهم، عيون النّساء كانت مُطفأة، والهزّات كانت تخلطُ في الهواء الثّقيل عرقهم وآلامهم؛ عَبَرَ القطارُ باحة خزفيّة حيثُ اللّوحات المُلوّنة تعكسُ الوجه اليوميّ للأرض بالسّلمندر وعُلبِ الكبد الدُّهنيّ، ثمّ غاص في النّفق الأسود. بدا لي أنّه مصيرُ الحشد المُجهَد وانقبض قلبي. فكّرتُ في فِيلْمٍ كنتُ شاهدتُه مع صديقي مارسيل: عن مدينة مطمورة في جوف الأرض حيثُ يفنى الإنسان في العذاب واللّيل فيما تنعم سلالة كريمة برونق الشّمس على الشّرفات البيضاء؛ تنتهي القصّة بطوفان، بثورة، وفوضى عارمة يسبّبها أشقياء مُحَطّمون وبمواساة مُشرقة. وأتساءل: «لِمَ لا يثور هؤلاء؟» أحياناً، أيّام الأحد، كنتُ أقتاد مارسيل إلى أوبرفيل[1] Auberville، في پانتان[2] Pantin. كنّا نمشي خلال ساعات بمحاذاة

1- أوبرڤيل Auberville: مقاطعة ريفيّة فرنسيّة تقع جهة النورمندي.
2- پانتان Pantin: مدينة فرنسيّة تقع في الضّاحية الشماليّة الشرقيّة لباريس.

الجدران المُقفرة، وسط عدّادات الغاز ومداخن المصانع، ومنازل الآجُر المُسوَدّ. حيوات كاملة تُراق هناك. نفسُ الحركات الشاقّة من الصّباح حتّى المساء. هناك أحد واحد في الأسبوع. «لقد اعتادوا». إن كانوا قد اعتادوا فهذا أفظع بكثير.

حين نطقتُ أمامها كلمة «ثورة»، احمَرّ وجهها: «لستَ سوى طفل! أنت تتحدّث عن أشياء لا تعرف معناها!» حاولتُ أن أناقِش لكنّها أخرستني، مأخوذة بحماس مُخيف. لم يكن نبيلاً أن نحاول تغيير شيء في هذا العالم، في الحياة؛ تصبح الأمور مؤسفة حالما نحاول الاقتراب منها. كلّ ما كان يدين قلبَها وعقلها كانت تسارع إلى دفعه: أبي، الزّواج، الرّأسماليّة. لأنّ الشرّ لم يكن في المؤسّسات بل في أعماقنا. كان حريّاً بنا التقوقع في ركن، التّضاؤل أقصى ما يمكن على أن نقوم بعمل فاسدٍ من أوّله، كان لابدّ من القبول. قبول كلّ شيء. ذاك الحذر! ذاك الحذر الأخرق! كما لو كانت هناك إمكانيّة للهرب! *غلق الأبواب والشّفاه: لكن صمتي يستدرج الأوامر. «أنتَ لم تقل شيئاً، أنا ذاهب» أو «أنت لم تقل شيئاً، لن أذهب». كلّ حضوري كان كلاماً. تقدّم إذًا، تقدّم في أوحالِ اللّيل. قرّرْ. لقد قرّرتُ موتَك ولم أكن حرّاً. مُجدّداً. أريدُ أن أصرخ بالعفو: ليس ثمّة عفو. أوه! أيّها المُحتَقَرون! آه! لو كان في استطاعتي أن أبطل شرك الحذر. لكنتُ فتحتُ بابي، وذراعَيَّ وقلبي. أخرسوا، قاسوا. «لن أرفع إصبعاً قد يقتل إنساناً». جاثماً على الأرض بكلّ ثقلي. أنت تموت. آخرون يحتضرون على نار هادئة، أجسامهم مُخطّطة بضربات السّياط، جلودهم مُلتصقة بعظامهم. مليونا سجين يتعفّنون خلف الأسلاك الشّائكة. الصّغيرة «روزا» قفزت من النّافذة. لقد وُجدت في زنزانتها مشنوقة ببنطلونها الدّاخلي.* هذا وحشِيّ! كان يكره الحذر. رفع يده وذراعَه كاملاً: حدج أمّه بنظرة غاضبة: «سنغيِّر العالم» ذاك التهوّر الأخرق! كان يُريد أن يتكلّم، أن يفعل. *وها هو ذا جاك مُمَدّد على المقعد بقميصه المفتوح ودمه المتخثّر كالحراشف على وجهه، وعيناه مُغمَضتان.*

لكنّ كلّ شيء بدا بسيطاً، إذًا، أيّها الشابّ الطيّب السّاذج. رَفَعَ قبضته؛ غنّى في الكورال: «غداً تُصبح أنشودة العُمّال هي النّوع الإنسانيّ». لن يعود هناك حروب، لا بطالة، لا عبوديّة في العمل، لا بؤس. الموت لطُغاة الأرض. أمطَر العالَمَ القديمَ بالأفكار وأعاد تركيب قطع الكون الجديد، كما يركّبُ طفلٌ قطع ألعاب الذّكاء.

- أخيراً! لقد انضممتُ إلى الحزب! قلتُ بغبطة وأنا أدخل مشغَل مارسيل.

وضع مارسيل الفرشاة وأدار المسند للجدران: جميعُ رسومه كانت تستقبل الجدران، لم يكن يرى منها سوى قفاها الخشن.

- أمرٌ طبيعي، قال، على الأشياء أن تنتهي بهذا الشّكل.

- إذا لم نحرّك ساكناً، هل تظنّ أنّ العالم سيتغيّر بمفرده؟ قلتُ.

نفى مارسيل برأسِه.

- لا شيء يُرجى من هذا العالم. عجينته سيّئة. أحبّذ صنع عالم آخر بعناصر أخرى.

- لكنّ عالمك لا يوجَد سوى على القُماش.

ضحك بغرابة:

- سنرى.

رأى. لكن في ذلك الوقت، كان لا يزال شابّاً، هو أيضاً، رغم احترازه، كان يأمل. كنتُ أطرُقُ بابه كلّ يوم تقريباً. كان يستقبلني، كان في إمكانه أن يُغلق بابه دوني بعنف. لم يكن يُدرك ذلك. أو لعلّه يعرف أنّه لا يمكن للأبواب أن تظلّ مُغلقة. كنتُ أدخل. أجلسُ أمام طاولة صغيرة، جاك يعمَل؛ كان يشبه أخاه، مع فرق بينهما هو أنّ قسماتِه كانت حَسَنة وليست منحوتة بالمنجل. كان مارسيل يضع قارورة «مارك» رديئة على الطّاولة المليئة بنباتات الصبّار، والأصداف، وجذور باذنجانيّة وفسيفساء مُشوّهة بالحصى والمسامير وأعواد الثّقاب والخيوط. كان هناك حصان بحر في

قنّينة زجاجيّة: عصا شائكة سوداء تنتهي برأسِ حصان نبيل. أشعَلنا سجائرَ وتحدّثنا. أحبّ الحديث، كنتُ دائماً أحرصُ على اختيار كلماتي بعناية: ينبغي أن يُحمَل مارسيل إلى تلك الأرض الطّاهرة التي يحدوني الفضول للذّهاب إليها، كان جاك من يسمعُ كلماتي.

رفع رأسه.

– النّضالُ إلى جانب البروليتاريا، قال، كيف السّبيل إلى ذلك؟ لسنا مؤهّلين.

– ما دُمنا نطمح إلى ما تطمح إليه.

– سبب إضافيٌّ. إنّ العامل لا يُريدُ سوى حرّيته؛ لستَ أنتَ من عليه أن يرغب في حرّية الآخرين.

– لا يهمّ، المُهمّ هو الوصول إلى نفسِ النّتيجة.

– لكنّ النّتيجة لا تنفصل عن المُقاومة التي تؤدّي إلى الحرّية، «هيغل» فسّر ذلك جيّداً. ينبغي أن تقرأه.

– ليس لَدَيّ الوقت.

أزعجني قليلاً بدقّته الفلسفيّة. ظننتُ أنّه يتحدّث فقط: كان، أيضاً، يعيش بشغف.

– طبعاً، نحنُ نُطالب كي نحصل، قال. لكن لنحصلِ على ما طالبنا به؛ مكسَب لم أطالب به هو ليسَ مكسبي، هو ليس مكسَباً. هذا ما لم يفهمه الفاشيّون. أحترم ماركس لأنّه يدعو النّاس إلى الأخذ لا إلى التلقّي. بقي أنّي أنا وأنت ليس لدينا ما نأخُذه؛ لسنا من تلك الضفّة. لا. لا يمكن أن نجعل من أنفسنا اشتراكيّين.

– إذًا، ماذا علينا أن نفعل؟

هزّ كتفيه بضجر.

– لا أدري.

ابتسمت. كان مجرّد تلميذ. لم يكن حريّا بي أن أبتسم: كان يعرف،

على الأقلّ، إنّه يحتلّ مكاناً في الأرض وأنّه لن ينجح أبداً في التغلّب على الغموض الذي يكتنف حضوره. أمّا أنا فما زلتُ لا أعرف. لم تكن مهجتي مُعلّقة سوى بالآفاق المُستقبليّة، حيثُ لا ندم. ثمَّ، في يوم، رأيتُ نفسي. رأيتُ نفسي صلباً ومُظلماً، جالساً إلى الطّاولة العائليّة حيث كانت أبخرة الطّعام تتصاعد، مُسلّطاً كلّ الأضواء على بذلتي الأنيقة، على يديّ الرّقيقتين؛ رأيتُ نفسي كما يراني جاك، كما يراني العُمّال حين كنتُ أقوم بجولة في المصنع، كما أنا: ابن «بلومار»، تحت أنظارهم المذهولة. أربعُة أزواج من العيون مشحونة بالفضيحة ومرشوقة في خدّي المتورّم. لقد جعلتُ نفسي حاضراً، فجأة وبقوّة.

انتفخ الخدّ أكثر خلال النّهار. «ماذا عَلَيّ أن أبتكر». قبل دخول قاعة الأكل، ضرب وجهه بمنديل مبتلٍّ. كانت عيناه مُغمَضتين تقريباً.

- طاب صباحُك، أبي؛ طاب صباحكِ، أمّي، قال بنبرة سرور.

مال ليُقبّل أمّه.

- إلهي! ماذا جرى لك؟ قالت السيّدة بلومار جزِعَة.

- أوه! ما هذا الوجه، قالت سوزون.

جلس من دون أن يجيب وفتح منديله.

- أمّك سألتك، ما الذي جرى لك، قال السيّد بلومار بلهجة جافّة.

- أوه! لا شيء، قال جون. تناول قطعة خبز: بالأمس كنتُ مع بعض الرّفاق في حانة بـ «مونمارتر» واندلعت خصومة.

- أيّ رفاق؟ قالت أمّه.

احمَرّ وجهها تماماً كما حينَ تُعارَض.

- مارسيل وجاك ليرْدو، قال جون.

خشِيَ أن يحمرّ وجهه هو أيضاً. كان يكره أن يكذب على أمّه.

- جَنَيتَ لكمة هناك؟ هذا ما جنيْتَه أليس كذلك؟ قال السيّد بلومار ببطء.

خلف نظّارتَيْه، كانت عيناه تشعّان فطنة.

- نعم، قال.

مرّر يده على وجهه المتورّم.

- ينبغي أن تكون له قبضة صلبة كهراوة، قال السيّد بلومار. فحص ابنه بنوع من القسوة: ماذا كنتَ تفعل عند منتصف اللّيل أمام «بيليي» Bullier وسط حشد من الخَرِفين الذين يصرخون بنشيد العُمّال؟

صعد الدّم إلى خدَّيْ جون؛ ابتلع ريقه بصعوبة.

- كنتُ خارجاً من اجتماع.

- ما هذه الحكاية؟ قالت السيّدة بلومار.

- الحكاية هي التّالية، قال السيّد بلومار بصوت حازم: هاتفَني محافظ الشّرطة هذا الصّباح ليخبرني بأنّ ابني كاد يتورّط في الشّتم والضّرب ضدّ أحد عناصر الأمن العمومي. لحسن الحظّ فإنّ پيرّان Perrun رجلٌ شهم؛ أخلى سبيله منذ عرف أنّه ابني.

حياة كاملة من العمل والشّرف... حدّق جون في الأخاديد البنفسجيّة التي تطبَعُ خدَّيْ والده؛ خدّان مصدومان. كان هدوء السيّد بلومار ينبئ بسيطرة على الذّات يندرُ وجودها. سرح جون بتفكيره: رغم احمرار وجه أبيه ولحيته الرّماديّة فإنّ هذا الوجه يُخجِلُه.

- طوّقونا من دون موجب، قال، بحجّة أنّنا تجمّعنا في مكان عمومي: ضربونا بالهراوات وأخذونا إلى المخافر.

- أعتقد أنّ البوليس قام بما يجدر القيام به، قال السيّد بلومار. لكن ما أودّ معرفته هو ما الذي تصنعه أنتَ في تجمّع اشتراكي؟

ساد صمتٌ جنائزي. راح جون يدير قطعة خبز بين أصابعه.

- تعرفُ جيّداً أنّي لم أتّفق معك قطُّ في هذه المسائل، قال.

- إذًا، أنت اشتراكي؟ قال السيّد بلومار.

- نعم، قال جون.

- جون، قالت الأمّ بنبرة رجاء.

بدا كأنّها تتوسّل إليه كي يسحب كلمة بذيئة.

استعاد السيّد بلومار نَفَسَه؛ وبحركة دائريّة من يديه أشار إلى سفرة الطّعام:

- إذاً، ماذا تفعل هنا، على طاولة رأسمالي فظيع؟

ورمق جون بتهكّم.

فجأة رأى نفسه. رأى نفسه وبقليل من الشّرود رأى قاعة الأكل الفسيحة، الخزانة الملآنة بخمور قديمة، الـ«أومليت» بالجبن؛ كان هناك مع الآخرين. نهض وغادر القاعة. شقّتي، بيتي: جسمٌ بشريّ، يأخذ حيّزاً ضيّقاً، ويُحدِثُ ضجّة في الهواء؛ مهول هذا الدّرع القاسي الذي يحبس حيواناً ضئيلاً. وفي خزانته كلّ تلك الملابس القماشيّة المنتقاة بعناية، والمُفَصّلة خصّيصاً له: ابن بلومار.

صفق الباب خلفَه ومشى طويلاً. كان يوماً خريفيّاً جميلاً. وسط أوراق الكستناء المُحمَرّة، حديثة السّقوط، كانت تتمايل أزهارٌ ضلّلت الفصل. كان يمشي بحذائه الجيّد، ببذلته الجيّدة: ابن بلومار؛ كان، إذًا، يحتلُّ مكاناً فوق الأرض، مكاناً ليس هو من اختاره. كان مزدرياً نفسه، لكنّه غير قلق تماماً؛ لابدّ أنّ كلّ شيء سيُسَوّى في الأخير؛ مؤكّد أنّ هناك طريقة ما للعيش. كيف كان سيتكهّن بأنّه هو الخطر ذاتُه؟ *خطير كشجرة غير واعية، تلقي بظلالها بلا وزن على الطّريق؛ خطير كتلك اللّعبة السّوداء الصّغيرة التي كان يتأمّلها جاك مُبتَسِماً.* إنّه يبدو مسالماً جدّا، أن يتنزّه المرء بيدين في الجيوب مستنشقاً رائحة الأوراق الميّتة النديّة؛ دفع بساقِه بوّابة تُفضي إلى فضاء فسيح، واستنشق الهواء الذي لم يسرقه لأحد. فكّر: «لن يكون هناك ابن بلومار». سيكون من السّهل تحصيل مهنة، سنتان من التعلّم على أقصى تقدير، بعد ذلك سيكون الخبز الذي

سيأكلُه خبزَه. خالَجَه فجأة شعور بالسّعادة؛ سرعان ما فهم سرّ الطّعم الثّابت الذي ميّز طفولته وشبابه: كان النّسغَ المتعفّن للعالم، ذاك الذي يجري في عروقه، لكن ها هو يتهيّأ لقطع جذوره وخلق نفسه من جديد.

استقرّت في سطح السُلّم رائحةُ بصلٍ مُحمّر وأمكن، عبر الباب، سماع طقطقة مُغرية. طَرَقَ. «ادخُل»، قال مارسيل. كان جاك مائلاً على المقلاة وسط دخان سميك لاذع.

مرّر جون يده على شعرِه.

- كيف تسير الأمور أيّها الخبّاز الصّغير؟ اقترَبَ من مارسيل الذي كان يرتاحُ بكسل على الكنبة: أهلاً، صديقي.

- أهلاً، قال مارسيل وهو يُصافحه بلامبالاة.

وقف بوثبة واحدة:

- قُلْ، ما هذا الوجه المُشَوَّه! جاك، أرأيت؟

استرَق جاك النّظر كي لا يغفَلَ عن المقلاة المُدَخّنة بين يديه حيث كانت قطعتا لحم تذيبان شحمهما فوقها مُصدرتين خشخشة متقطّعة.

- إلهي، قال، من فعل بك هذا؟

- لمس جون خدّه:

- تلقّيتُ ضربة بهراوة، قال.

- ضربوا بشدّة، قال جاك بإعجاب. كان ذلك مساء أمس؟

- نعم، حالَما خرجنا من بيليي Bullier، هجم علينا البوليس.

كان هناك نوع من الاعتزاز في صوتِه. الغبيّ، الأعمى. كان غير مُدرِك الخطَرَ الكامن في حضوره، الشّرك المنصوب له في كلّ كلمة، في كلّ لهجة من لهجات صوتِه المُجامِل. ومارسيل، لقد جعلني أتكلّم مُبتَسِما بسبب ابتسامته العريضة لآكلي لحوم البشر. الغبيّ، الأعمى، بَدَل أن يدعني أسفَلَ السُلّم.

- كان في استطاعتهم تقطيعكَ إرباً، قال جاك.

- لا تضرب نفسك، يا حصاني الصّغير، قال مارسيل. أنتَ ترى بعينيْك كيف أنّه لم يُكسَر. أمسكَ بصدغ جون: هل نشربُ نخب هذا؟

- أعطِني شيئاً آكُلُه قبل ذلك، قال جون.

وصوّب نظراته باشتهاء نحو اللّحم المتفَتّح بين البصل المقليّ الهشّ، لحمٌ مكتمل ومُشَرّح.

- ألم تتناول غداءك؟ قال مارسيل. أو أنّك لا تجرؤ على الظّهور في عائلتك؟

- بل صعدت، قال جون.

- هل تسبّب ذلك في مأساة؟

- لكن (خطا جون نحو مِحمَلٍ فارغ)، أنتَ لا تعلم الفكرة التي راودتني منذ قليل؟ أريد البدء بأخذ دروس في الطّباعة من العجوز «مارتان» من دون علم أبي. ويوم أطمئنّ على أنه أصبح في حوزتي حرفة سأغادر البيت.

- كان عليَّ أن أتوقّع ذلك. لمعت عينا جاك برضا لا يُصَدّق؛ كانتا تلمعان بشدّة.

- لماذا، قال مارسيل. فيمَ كان سينفع ذلك؟

- لا أريد أن أقضيَ حياتي في وضع خاطئ.

- أتظنّ أنّ هناك أوضاعاً صحيحة؟ قال مارسيل.

قصّ قطعة لحم والتهمها: لنأكُل، قال.

- والآن، قال عندما انتهى الطّعام، ارحَل: أنا أعمل.

- أرحلُ، قلت. نظرتُ إلى جاك، كان الطّقسُ رائعاً، لم تكن لديّ رغبة في البقاء وحدي: تعملُ أنتَ أيضاً؟ ألا تأتي معي في جولة؟

احمَرّ وجهُه من الذّهول والسّرور.

- ألا يُزعِجُك؟

- ما دمتُ أنا من يطلب منك ذلك.

جلسنا في متنزّه «مونتسوري» Montsouri، قرب الحوض؛ كان هناك بَجَعَة في الحوض وأطفال يحومون حولنا.

- كيف حالفك الحظّ؟ قال جاك، يبدو أنّك تعرف دائماً ماذا يتوجّب عليك القيام به.

- إن كان لا يُزعِجُك جبل من تردّد المُفكّرين...

- لكنّي مُفكّر، قال جاك.

هززتُ كتِفَيّ.

- استسلِم إذًا. تابِع الفلسفة.

- العمل لأجل العمل، سيكون هذا خِداعاً، قال. لكن لِمَ لا يكون تردّدي خِداعاً؟

رمقني بتشكّك. كان شابّاً متوهّجاً: كان من الممكن أن تجري حياتُه سهلة، لم يكن عليه سوى أن يترك نفسَه للتيّار.

- أنتَ خجول جدّاً، قلت. ما دمتَ تسأل إن كانت قضيّة البروليتاريا هي قضيّتك فلن تكون قضيّتَك. قُل فقط: إنّها قضيّتي.

- نعم، قال جاك. لكن لا يُمكنني قول ذلك الآن بلا سبب. الأحرى أن أكون قد قلتُ ذلك من قبل.

لحظة صمتٍ، تأمّل البَجَعَة البيضاء ثمّ ابتسم:

- سأُريك شيئاً.

- أرني.

تردّد ثمّ أدخل يده في جيبه:

- إنّها قصيدة، قصيدتي الأخيرة.

- لا أسمع الكثير من الشّعر، لكنّ القصيدة تُعجِبُني.

– يبدو أنّها قصيدة جميلة، قلت. على أيّ حال لقد أحببتُها. كتبتَ قصائدَ أخرى؟

– البعض منها. سأُريك إيّاها، لو أردت.

كان يبدو سعيداً.

– ماذا كان سيقول مارسيل؟

– أوه! أنتَ تعرف، مارسيل، إنّه أخي، قال جاك بصورة غامضة. أشكّ في أنّ مارسيل يرى أخاه كعبقريّ صغير، ثمّ من كان هذا الذي شرعتُ، بتأنّ في قتلِه قرب الحوض حيث تروح وتجيء البَجَعَة تحت الأنظار الهادئة للأمّهات؟ *ماذا لم يكنّ؟*

من الآن فصاعِداً سأُمضي اليوم بأكمله في الورشات. «أريد تعلّم التقنية»، قلتُ لأبي. سأنغمس بدوري في رائحة العمل، في النّور الميّت للمصابيح السهّارة الخضراء. «التهوية غيرُ كافية»، قلتُ للعجوز مارتان. «يجب تجهيز الورشات بمراوِح إضافيّة. عليكَ أن تقول ذلك لأبي». مطّط شاربيه. «كان الوضعُ دائماً كذلك»، قال. كانوا دائماً هناك، نزر من العمّال المُسنّين الذين كانوا أدنى إلى أفراد في البيت منهم إلى بروليتاريين حقيقيّين؛ كنتُ أكره أصواتهم المحترمة واستقالتهم غير المُتوقّفة. كان الوضعُ دائماً كذلك: سبب إضافيّ! وجب تقويض كلّ الأشياء الموجودة، تلك الأشياء الصمّاء التي لم يخترها أحد. أنا نفسي، جالس أمام لوحة آلة تنضيد حروف الكتابة، لقد اخترتُ لنفسي من البداية. «سأفعلُها». سألمسُ ثوبي الرّمادي: سأغلق الباب خلفي، سأمشي في الشّارع مرفوع الرّأس عالياً، يدايَ فارغتان. لن أعود ابن بلومار: رجلٌ فحسب، رجل حقيقيّ بلا وصمة، لا يعود بالنّظر إلّا إلى نفسِه. سأرفع رأسي وسألتقي عينَيْ عامل شابّ يشيح بهما بسرعة. تحت الثّوب المُغبَرّ سيخمّن البذلة الـ «توبد» الفاتحة. لو حاولتُ التحدّث إليه، لذهب في ظنّه أنّني أستفزّه. ما زلتُ ابن الرّئيس.

– متى ستقرّر، قال جاك؟

– حين تكون الحرفة في حوزتي بشكل جيّد.

مضى عامان على هذا النّحو. أصبحتُ طابعاً جيّداً. أعرف جميع أسرار المُكوّنات والطّباعة. ولم أغادر بعد.

– عندما أجد مكاناً.

لكنّي لم أبحث. كان بسببها. كانت هناك، جامدة، صامتة، لا تطرح أسئلة قطّ، لكنّها على استعداد لمنح شفتيها لأوّل حادث، كما في ذلك الغداء الذي عقب تجمّع «بيلبي»، كاليوم الذي اكتشفت فيه الموعد السرّي لسوزون. كنّا أحراراً، أحراراً في أن نلوّث أرواحنا، في أن نفسِد حياتنا؛ لم تجنِ سوى حريّة أن تتألّم لأجل ذلك. كان الأمر أسوأ ممّا لو طلبت شيئاً. كان من الممكن أن أكره لومها ومطالبها. لكنّها كانت فقط هناك: أؤاخذها لأنّها كانت هناك. كان حضورها ذاته ما يجب أن أمقت. هل يُعقَل أن أحبّها وأكره حضورها؟ لم أفهم. كنتُ في صراع مع الحقيقة. *حقيقة حبّي وموتِك*. لم يكن خطأها، لم يكن خطئي. كانت الحقيقة بيننا ولم يكن هناك ما يمكن فعله سوى الهرب من بعضنا. أن أهرب منها وأهرب من الأذى الذي ألحقتُه بها، هو أن أهرب من نفسي كي لا أكتشف سرّي الذي كانت تنوء بحمله.

– لم يعد أمامك سوى أن تحدّثها بالأمر. ستفهم.

اقترب منها، ذات مساء. كانت جالسة في الصّالون الصّغير، قريباً من المصباح؛ كانت تقرأ. منذ سنة، قصّة شعرها الأسود الجميل. كان منتشراً، قصيراً، وافراً، حول رأسِها؛ حتّى شعرُها كان ثروة إنسانيّة؛ لا حيوانيّة ولا نباتيّة: شعر امرأة، مُسرّح جيّداً، كثريّا، بأيدٍ ذكيّة. تأمّله طويلاً ثمّ جاء ليجلس قبالتها. فجأة بدأ حديثه: «تعلمين، أمّي، لن أعود إلى المطبعة». سمعته قليلاً ثمّ تكلّمت بدورها، بجذع مستقيم، متّكئة بكلتا يديها على مسندَيْ الكنبة. «هذا مهمّ!». السّخط الذي كان في صوتها أكسبَها لهجة راقية.

رَجَتْه.

– اسمَعي، حاولي أن تفهميني؛ أنا أعارض هذا النّظام؛ كيف تريدين منّي أن أقبل الانتفاع من ورائه.

– لكنّك انتفعت منه؛ إنّك ترفض القيام بواجباتك. تعليمك وصحّتك، أنت تدين بهما لوالدك؛ والآن وقد احتاج إليك، تتركه وحدَه.

– كلّ الأشياء التي انتفعتُ بها حتّى الآن كانت ضدّ إرادتي. لا أعتبرُ نفسي مُشارِكاً.

نهضت؛ مشت نحو البيانو، رتّبت بعض الزّهور في آنية ثمّ استدارت.

– إذاً، ماذا تنتظر كي تخبر والِدَك؟

– أريد أن أتحدّث إليكِ أوّلاً.

– هذا ليس نزيهاً: تركتَه يكمل الإنفاق على تعليمك؛ والآن أنتَ تأكل خبزه برفاهية في انتظار إيجاد مكان بعيد: كم هذا سهل.

تفحّصها باحتقان. تردُّدُه، الجُبن الذي تؤاخذه عليه، كانا بسببها. تفحّصتهُ بدورِها، بشفتين مطبَقَتين، ووجنتين حمراوين. حدّقا بعضهما في بعض برهة، تحدّى كل منهما في الآخر ضعفَه الخاصّ.

– حسناً، سأحدّثه الآن.

– هذا كلّ ما بقي لك لتفعَلَه.

كان الصّوت قاطعاً، خشناً. سمع صوتاً آخر يتوسّل إليه، قادماً من أعماقها: ألاّ يُحدّثه، أن يترك لها المزيد من الوقت. إلّا أنّ هذا التّلعثم الأخرس، لا هي، ولا هو يجب أن يهتمّا به. خرج من الصّالون؛ في طريقه ركل مقعداً من الحرير. أيّ داعٍ لموقف عدالة شرس تجاه رجل لا تُحبُّه! جاهزة دائما للتّضحية أوّلاً والتّضحية بمن يعزّون عليها أكثر. ودّت ذلك. ثمّ إنّ معها حقّاً، ليس أمامي غير المواجهة. نزل طابقاً، وطرق باب المكاتب.

– أريد التحدّث إليك.

– اجلِس.

كان قد جلس.

تحدّث من دون خجل، من دون ترتيب لأفكاره، بكلّ ما تمنحه الفضفضة من سعادة. ما داموا يجبرونه، فقد كان مسروراً جدّاً بهدم الجسور خلفه؛ على هذا النّحو سيكون قد أُلقِي به فعلاً في الشّجار، لم يكن يختلف كثيراً عن بطّالٍ يبحث عن خبزه اليوميّ. أفرغ حافظة أوراقه فوق المكتب. «أقسم لك بأنّك لن تسمع عن ذكري أبداً».

«فعلتُها». فتح الدّولاب وتفحّص، بارتياحٍ، كلّ الملابس المعلّقة. لقد انتهى كلُّ شيء. طرح على السّرير عدداً قديماً من «الإنسانيّة»[3] L'Humanité، فرشاة الأسنان، الصّابون، شفرة الحلاقة. تردّد لحظة، ثمّ أخذ قميصه، مناديل أنف، سراويل داخليّة، وثلاثة أزواج من الجوارب. العلبة ليست ثقيلة. «سأرى عند «تيري» Thierry، «كوتان» Coutant وأبنائه، فابِر Faber».

أخذ العلبة تحت ذراعِه: «سأفعلُها». وها هو قد فعلها. ردّد: «فعلتُها». ألقى نظرة على المصابيح الخضراء، الورشة المُغبَرّة، رأى نفسَه مرتدياً ميدعته الرّماديّة واعداً: «سأفعلُها». كان ذلك سهلاً، إذًا؛ لم يكن عليه سوى أن يقرّر عدم النّظر إليها مجدّداً، هذا كلّ شيء؛ بل أقلّ من ذلك: ألاّ يقرّر عدم النّظر إليها. لكن وهو ينضّد ملابسه، كانت هناك. في الصّالون أو في غرفته. في مكان ما من البيت. قال بغضب: «هذا ليس خطئي. ليس أمامي غير هذا». لا يمكنني أن... كما لو أنّ القدر المحتوم كان مُستقلّا عنه، لا يهمّه، أعمى: كما لو أنّه كان من الممكن أن نستدعيه لنجدة نفسه. لكنّ الشظيّة كانت في قلبِه. «لم يكن لها غيري». وحده وسط كومة السّاتان والحرير، مع قدر من النّدم الذي يحوم وألف شظيّة حيّة تثقب قلبه. لن تذرف دمعة واحدة، لكنّها ستسهر أكثر خلال اللّيل، مُنكبّة بتفانٍ على فساتين اليزابيت وسوزون. رغم أنّه ليس خطأها. ليس

3- «الإنسانيّة» L'Humanité: صحيفة فرنسيّة اشتراكيّة حتّى سنة 1920 ثمّ تحوّلت إلى شيوعيّة بعد ذلك.

خطأها، ولا هو خطئي. خطأ من؟ اهتاج. اعتقد أنّها في مكان ما، أنّه من اليسير عليها أن تُقتَلَعَ كعشبة طفيليّة. «كان عَلَيّ أن أهيئها ببطء. لما كانت صُدِمت». لكنّنا، على أيّ حالٍ، كنّا سنصل إلى هذه النّتيجة: رحيلي، وحدتي وعذابها غير العادل. ألقى نظرة على غرفته، الغرفة التي لن تؤويه. الأثاث، النّقوش التي اختارتها له، لن تحيط سوى بغيابِه؛ حثّت الخُطى وهي تمرّ أمام الباب المُقفَل. فتح الباب. كان الرّواق صامتاً، طقطقت شفرات الأرضيّة المطليّة تحت أقدامها. مشى حتّى آخر الممرّ وطرق.

– ادخُل.

كانت جاثية على ركبتيها أمام كومة كبيرة من الحرير «البيج» والرّمادي. متعمِّدَة، مُتعمّدة تلهّت عن وجوده. لكن كيف كان السّبيل ليدافع عنها ضدّ نفسها؟ كان أحياناً ينجح؛ الوحيد. وغادر.

– حدّثتُ أبي للتوّ. رفعت رأسَها: طلب منّي أن أغادر البيت حالاً.

– حالاً؟

لبثت على ركبتيها، لكنّ يديها أخذتا علبة الجوارب النّسائيّة التي كانت تمسك بها.

– هذا طبيعي. هزّ كتفيه: كنتِ مُحقّة؛ لم يعد لوجودي معنى هنا.

– حالاً، أعادت. بشفتين مفتوحتين، غير متصلّبتين، لكن مُهمَلَتين لحرارة الاحتقان: ماذا ستُصبح؟

– سرعان ما سأجد عملاً! في انتظار ذلك، سأقيم مع مارسيل. اقترب منها، لمس كتفها: لم أشأ أن أسبب لك الألم.

مرّرت يدها في شعرها، اكتشفت تعب جبينها.

– ما دُمتَ واثقاً من أنّك ستحسن التصرّف.

نزل السُّلّم ببطء. «هذا ما أردتُه. ليس ثمّة ما أندمُ عليه». وظلّت هناك في العِلّية، جاثية على ركبتيها أمام كومة الجوارب، وحيدة. فعلتُها. لكنّي قمتُ بإنجاز آخر أيضاً: لا أحبّ أن تتألّم. *آه! لا أريدُ موتكِ. ها هي ذي*

ممدّدة على الفراش بحدقتين منطفئتين؛ كان شعرها الأصفر يغطّي أذنيها وقد بدا كنبتة ذابلة. «هل سأرى هاتين العينين حيّتين؟» قال: «ليس ثمّة ما أندم عليه». هذا خالٍ من الإنسانيّة! على المرء أن يندم على كلّ شيء؛ الجريمة في كلّ مكان، لا علاج لها، لا تفسير لها: جريمة الوجود. «ليس ثمّة ما أندم عليه». راح، بجنون، يتعلّل بهذه المواساة اليائسة، محاولاً تبرير فعلته، رغم ذلك كان يُحسّ ثقلاً يسحبه إلى الخلف، أمراً ليس غريباً عنه؛ وفكّر بقفزة سخط حادّة: «يجب ألاّ أخلّف شيئاً ورائي».

– ثمّة دائماً أشياء خلفنا، قال مارسيل. لهذا أرى أنّ محاولتك عشوائيّة.

– لكنّي لا أحاول القيام بأمر خارقٍ، قال جون. كان جالساً على الكنبة المليئة بالقطع المقرمشة، تناول كأساً بيده: كلّ ما أرغب فيه هو أن أخرج إلى الحياة من دون حظّ أكبر من الآخرين، وأن أملك ما يمكن لإنسان أن يمتلكه بوسائله الخاصّة.

– وسائله الخاصّة، قال مارسيل، ما أسهل قول هذا.

تفحّص جون من رأسه حتّى قدميه.

– نعم، قال جون. لقد دفع أبي ثمن أحذيتي وبدلاتي؛ ودفع أيضاً ثمن تعليمي. لكن لا أحد يبدأ من الصفر.

– هذا ما أقوله، قال مارسيل.

ابتسم بشكل أظهر أسنانه الرّماديّة ورسم خطوطاً من التّجاعيد العميقة على جلد التّمساح الذي كان لديه: هذا إذا لم يكن لديك سوى هذه البدلة، لكنّ ثقافتك وصداقاتِك وصحّة البورجوازيّ الشّبعان التي لديك. لا يمكنك أن تحذف بسببها ماضيك.

– بمجرّد أن أعيش كعامل حقيقيّ مدّة أشهر، فلن يكون لما تتحدّث عنه وزن يُذكَر.

– سيكون هناك دائماً شرخ بينك وبين العامل: أنت تختار وضعاً يخضع هو له.

– هذا صحيح، قال جون، لكن على الأقلّ أكون قد قمتُ بما أتيح لي القيام به.

هزّ مارسيل كتفيه.

لا أعتقد أنّ جهودي واهمة؛ لقد تغيّرت حياتي نحو الأفضل. حقّاً لقد محوتُ اسمي، وجهي، وفي مصانع «كوتان» وأبنائه، لم أكن سوى مجرّد عامل مُساوٍ للآخرين. أقطع السّاحة الرّماديّة عند الثّامنة، حيثُ تتكدّسُ رزمة الورق تحت المُشَمَّع: كلّ يوم، لدى مروري، لم يكن العمّال يشيحون بوجوههم، لم يكن رؤساؤنا يبتسمون لي؛ أتمركز أمام آلتي، أتفقّدها بعناية: كنتُ المسؤول عنها؛ وأشرع في الضّرب على أزرار اللّوح: «هذا حقيقي. إنّه مدى الحياة!».

حين أنزع زيّ الشّغل، لم أكن أسعى كي أرتمي في صالون من الحرير، المزخرف بأزهار التوليب. كنتُ أعبر، في الأوتوبيس، أحياء «كليشي» الحزينة، لأجد نفسي في غرفة تفوح منها رائحة الطّهي والغسيل، كانت ضيّقة، بموقد غاز في وسطها وحوض غسيل صغير. «هذا ليس مبهجاً»، تقول أمّي. لم يسبق لإقامتي أن كانت بهذا الضّيق: ستُّ مساحات كافية لصنع مكعّب، ثقب يسمح بدخول الضّوء، آخر لي كي أدخل منه.

– يجب أن تكون سعيداً، قال لي جاك.

– أنا سعيد جدّاً.

كان يأتي أحياناً لينتظرني أمام الورشة؛ كنّا نتناول عشاءنا في مطعم متواضع بسعر موحّد؛ كان يجد الشّعر في الأغلفة الورقيّة، في المملحة المسدودة، في الكؤوس المُعَفّرة بالبصمات وحتّى في طعم الشّحم المريب، ذلك الذي كان يمثّل بالنّسبة إليّ الطّعم المُمَيّز لجميع المأكولات؛ كنّا نخرج للسّينما في الحيّ ونجلس في مقاعد خشبيّة، كنّا نشرب النّبيذ الأحمر في الحانات؛ سألني:

– ألا تجدُ مشقّة في التّأقلم؟ أنت في سلّة واحدة مع الآخرين؟

– بل أعتقد أنّه أصبح لديّ تأثير عليهم، قلت.

لابدّ من الصّبر. أعرف أنّ في مثل تلك المؤسّسات الصّغرى، يتعذّر على الاشتراكيّة أن تنفذ بسهولة؛ إلّا أنّي كنتُ خطيباً؛ في اجتماعات النّقابة، كنتُ مسموعاً. كان أملي أن أنجح في الانضمام إلى لجنة الاتّحاد: هناك، سيكون من الممكن إنجاز عمل جيّد.

- لديّ ما أخبرك به، قال جاك.

كنّا جالِسَيْنِ في ركن بمقهى صغير من مقاهي باب «كليشي»، بجانب الزّجاج حيث يمكن قراءة حروف مكتوبة بالطّباشير: «هنا يُسمَحُ الإتيان بالطّعام». كان بنّاءان مرشوشان بالجبس، يشربان ليتراً من النّبيذ الأحمر بمحاذاتنا.

- النّبأ جيّد؟

- احكُم بنفسِك: سأنخرط في الحزب.

- صحيح؟ قرّرت؟

رمقتُ جاك بتردّد. «هذا ما أريدُه». مع أنني كنتُ متردّداً. بدأتُ أشك في أنّ الأمور لن تسير حسب رغبتي.

- نعم، لقد قرّرت. أنت مستغرب؟

ابتسم باعتزاز.

- في ذلك المساء، أبديت الكثير من الاعتراض على الماركسيّة؟

هزّ جاك كتفيْه.

- ليس للنّظام أهمّية. المسألة بالنّسبة إليّ هي معرفة إن كنتُ قادراً على التحرّك أم لا. وشيء ما انكشف: نعم أقدر. ابتَسَم. حضرني هذا وأنا أراك تعيش.

- أنا سعيد، قلتُ. لم أكن كذلك. كنتُ أفضّل لو أنّ جاك أقنع نفسه بنفسه ببراهين موضوعيّة؛ لديّ انطباع بأنّي نصبتُ له كميناً. أضفت: أريد أن أعرف ما الذي جعلك تتّخذ القرار.

- في ذلك المساء، بعد نقاشِنا، عدتُ إلى بيتي على الأقدام. لم أكن

أفكّر في حديثنا؛ لكنّي كنتُ أفكّر فيك، فيَّ؛ وفجأة، خالجني إحساس بأنّي لن أتمكّن من أن أكون حيّاً وحياتي لا تصلح لشيء.

- أفهم، قلت.

لم يتبدّد قلقي. هل أصلُح لشيء ما؟ بالنّسبة إليَّ لم يكن هذا هو التّساؤل. لن أنجح في نحت مصير عادل في عالم غير عادل: كنتُ أروم العدالة. لمن أردتُها؟ للآخرين أم لنفسي؟ قلت لي ذلك ذات يوم بغضب: نحن دائماً نناضلُ لأجل أنفُسنا. كنتُ أقاوم النّدم والخطأ، خطأ أن نكون هناك، خطئي. كيف أجرؤ على الزجّ بشخص آخر في معركتي؟

قلتُ: ليس همّي أن أخدم، ليس إلى هذا الحدّ. لكنّ جاك لم يسمعني. كان هو أيضاً يخوض معركة لم تكن تعني غيرَه.

- أتعتقد أنّي صغير، أنّي لن أقدر على فعل شيء؟

- عاودتُ الجلوس:

- الشّبابُ هم سرُّ قوّتنا، قلت.

رمقتُ جاك بالنّظرة التي ينتظرها منّي، نظرة عَمَليّة لمواطن واثق من أهدافِه:

نحن في حاجة إلى قبضات وحناجر قويّة في الوقت الحاليّ. بعد غد، سأقدّمك إلى «بورغاد» Bourgade.

في ذلك الموسم، كان العملُ متوفّراً للذين يتوقون لتغيير العالم؛ جدران باريس كانت مكسُوّة بالمُعَلّقات الانتخابيّة وكان أصدقاؤنا وأعداؤنا يتواجهون، كلّ مساء تقريباً، في كامل أرجاء المدينة. كلّ مساءٍ، تقريباً، كان جاك يأتي وكنّا نذهب معاً إلى مرأب، في قاعة مدرسة تَعُجّ بالحشود المُضطَربة. كنتُ أحبّ رؤيته ينتظر، إلى جانبي، مُحمَرّاً وسعيداً. كنّا نخنق، تحت التّصفيق والصّراخ، الجُمل الرّائعة للخطيب الذي يحسن التّفكير؛ عندما كان الآخرون يأخذون الكلمة، كنّا نفرض الصّمت بضربات من قبضة اليد.

– أتظنّ أنّ خصومات ستنشب هذا المساء؟ خصومات حقيقيّة؟ سألني جاك.

– أتمنّى. أوّل من أمس، لم نسمح لـ «تيتنغر» بأن يفتح فمه؛ حاولوا جعلنا نرقُص.

كنّا مسرورين جدّاً في تلك الظّهيرة. كان «دينيز» يفيض فرحاً. وحده مارسيل حافظ على وجه متجهّم. لقد قصّ شعره للمناسبة، لكنّه لم يفلح بالظّهور في مظهر المُحترَم؛ كان يتلقّى، بأدب متعَب، مجاملات نخبة راقية لها قلب الفنّان.

– «بون» تلقّى بعدُ ثمانية اقتراحات، قال «دينيز». قال إنّه نجاح ساحق. نقد «الكرّاس الفنّي» أكّد أنّك أكبر فنّان في عصرِك.

لمَعَت عيناه؛ وعلى جبهته طفت حمرة حيّة وللمفاجأة، ولاح إلى الذّاكرة أنّ لديها ثمانية عشر عاماً؛ عادة لا يفكّر المرء في أشياء كهذه. صوتُها، ابتساماتها، مكياجُها، كلّ ما فيها بدا مصطنعاً حتّى أنّ انتعاشها نفسَه بدا أيضاً مُصطَنَعاً؛ وحده الشّعرُ الأحمرُ الوافرُ تحت الفساتين الباذخة يترك الانطباع بأنّ نسغاً حيوانيّاً يجري في جسمها. تناولت قطعة الحلوى الوحيدة في الصّحن: «تناول سندويتش، قالت. لم يبق فيه شيء».

أكل جون خبزاً بالكبد الدُّهنيّ؛ ذكّره الطّعم بالثريّا الكريستال وبالنّساء الجميلات المُغريات في طفولته؛ كان السجّاد سميكاً تحت قدميه، وكان ممزوجاً برائحة الزّيت، وكانت تضوع في الهواء رائحة أنثويّة طاغية.

ثلاثة أشهرٍ كانت كافية: في الوقت الحاليّ، أصبح مندهشاً من أن يجد نفسه في هذا الجوّ الحُلو؛ كانت رائحة الورق، صخب الآلات، طعم شرائح اللّحم المفروم المشويّ بشكل سيّئ، هي التي باتت تميّز أيّامه. «لستُ منهم». كانت النّساء تشبه الأغراض البلّوريّة المُخطّطة؛ كانت تسلّيه الفضيحة التي في أصواتهنّ المُجلجلة، أصواتهن الغنائيّة ذات اللّهجات المُخمَليّة.

اقترب من الجدار. منذ قليل، عندما دخل تلك الحظيرة البشريّة، ظلّت الرّسوم المحصورة، قليلاً، بين أربع عِصِيّ من الخشب، مُسطّحة وصامتة؛ كي ينتزع منها سرّها، كان يجب أن يصدّقها. ودّ لو أمكنه تصديقها. وقف أمام إحدى اللّوحات. بين جدارين مسحوقين بالشّمس، حلقة مفردة تدور لانهائيّاً نحو نقطة التقاء متوازِيَيْنِ. أشرقت الصّورة بينما كان يتأمّلها. لم يكن من الممكن أن يُتَرجَم ما تقوله اللّوحة إلى كلمات؛ لقد قيلت بالألوان، ولا وجود للغة قادرة على تفسير دلالتها؛ إلّا أنّها كانت تتكلّم. خطا بعض الخطوات. تحت عينيه الفطنتين بُعثت الحياة في جميع اللّوحات. كانت توقظ ذكريات أقدم من نشأة العالم؛ كانت تتحدّث عن الثّورات القادمة والوجه غير المتوقّع للأرض؛ كانت تفشي أسرار ساحلٍ مُخرَّب، وصحراء مليئة بالمحار، كالذي كانت تمتدّ في قلوبهم من دونَ وعيٍ منهم. تلك التّماثيل الخالية من الوجوه، هؤلاء الرّجال الذين تحوّلوا إلى ملح، تلك السّاحات المُحترِقَةُ بنار الموت، تلك المحيطات المُتوقّفة في أبديّة اللّحظة، كانت الأوجُه الألف للغياب. وبينما كان يتأمل هذا العالم بلا رقيب، بدا كأنّه غائب حتّى عن نفسِه، كان في سلام، خارج حكايته الخاصّة، في خلود مُفرَغ وأبيض. مع أنّ حلم الصّفاء والغياب ذاك، لم يكن موجوداً إلّا لأنّي كنتُ حاضراً لأهبه قوّة حياتي: كان مارسيل يعلم ذلك.

– دَعكَ، قال. تعال واشرب كأساً. اصطحب جون إلى طاولة طويلة بغطاء أبيض، حيث جزعت دينيس: أليس لديك ما تُقدّمُه لنا سوى هذه الشمبانيا الفاسدة؟

– هناك «پورتو» Porto، قالت دينيس.

– «پورتو» مَتاجرَ، قال مارسيل. ما دُمنا، اليوم، نقيم حفلاً.

– لا تتذمّر، قالت دينيس. كان عبئاً قذراً، وانتهى الآن.

– انتهى! قال مارسيل. سيظلّ مُعلّقاً في الجدران مدّة ثلاثين يوماً! كيف سمحتُ بذلك؟

– هذا ما يجب، قال جون، إنّه جمهور آخر: جمهورٌ حقيقيّ.

ينبغي ألاّ أكون في حاجة إلى جمهور، قال مارسيل. ضرب كرسيّاً بكلتا قبضتيه: يجب أن توجد لوحاتي مثل هذا الكرسيّ: صلباً، يمكن الجلوس عليه، وحين نغادر يظلّ هو هنا، مُتسمّراً على سيقانه الأربع.

هزّت دينيس كتفيها.

– حسناً إذًا، يمكنك أن تجعل من نفسِك نجّاراً، قالت مشمئزّة.

ترك مارسيل الكُرسيَّ فتدحرج على السجّاد.

– لكن لا قيمة لكُرسيّ، قال.

– تشكُّ إذًا، قالت دينيس. ستُصبحُ مشهوراً خلال شهر! وندّت عنها ابتسامة خبيثة: ثمّ إنّه ليس سيّئاً أن يكون المرء رسّاماً عظيماً؛ كثيرون كان سيفرحهم الأمر!

لا أحد أجاب. كانت دينيس تستخدم أحياناً كلمات لا تعني لنا شيئاً. لم نكن نفهم، أنا وجاك لِمَ قرّر مارسيل الزّواج بها. من المؤكّد أنّه كان يحبّ ذاك الوجه الصّغير الحادّ والذكيّ الذي يختفي تحت كتلة كثيفة من الشّعر، ثمّ إنّه لا يعير اهتماماً لما يجدرُ به أن يصنَعَ بحياته. أرادت دينيس الوصول إليه ففعلت؛ راهنت على عرض الأعمال وعمِلت على أن يبذل جهداً في ذلك، آملة أن تمشي جنباً إلى جنب معه في طريق المجد والسّعادة، من دون عثرات. تلوح لي ابتسامتها القرمزيّة حيثُ نظرتها الحارّة كانت تعكس الذّهب الدّاكن لشعرِها. لا شيء كان يعصو عليها من قبل: كانت تمضي في الحياة بيُسرٍ ورقيّ وجرأة. بالنّسبة إليها، ما انتهى، كان يومَ مجد.

– نذهب إلى هناك مباشرة أم نمرّ ببيتِك أوّلاً؟ قال جاك.

– نمرّ ببيتي، لأجل المُسدّسات.

– أتعتقد أنّه علينا حملها؟

– لا يُسبّب ذلك الأذى. في ذلك الإثنين، عندما سحبوا الأصدقاء، لم يجدوا شيئاً ليُدافعوا به عن أنفُسِهم.

كان اللّيل قد حلّ؛ عبرنا الأحياء الجميلة؛ أحسستُ بالغثيان. بين المارّة الذين كانوا يتمشّون على الجادة، كنتُ وحيداً أكثر من ذرّة ضالّة في الأثير؛ لم أكن في نظرهم أكثر من جسم يحتلّ حيّزاً، ولم أكن أميّز حولي سوى مجتمع من النّمل الأعمى. كانت ساعة غلق المحال؛ مع اقتراب انتهاء حصّة المساء، كانت البائعات يحلُمن بالمُغادرة وأنوفهنّ ملتصقة بالواجهات الزّجاجيّة. بالنّسبة إليكِ أيضاً، بدأت مصابيح الشّوارع تضيء. أدخلتِ إلى المحال قناني الحلوى؛ ورُحتِ تأكُلين قطعة شوكولاتة وأنت تنظرين عبر النّافذة إلى هؤلاء النّاسِ الذين يحقّ لهم التّجوال في اللّيل من دون وصِيّ. تظنّين أنّه أمر محزن أن تكوني صغيرة. أمّا أنا، فلم أكن أرى سوى فتيات صغيرات بلا اسم، لا شيء قد يجمَع بين أقدارنا.

غادرنا الأحياء البورجوازيّة، وسرنا مع الشّارع المُحتَشِد بالنّاس، وصعدنا إلى غرفتي. تناولتُ قطعة خبز والقليل من الجبن من خزانتي التي كانت تصلح لحفظ الأكل.

- تريد القليل من السّجق؟

- لا، قال جاك. القهوة المجمّدة التي احتسيتها أفقدتني الشهيّة.

دسستُ يدي في درج الكومودينو. كان المسدّسان هناك، تحت المناديل والقمصان: الذي اشتريتُه من مداخيلي، والذي سرقه جاك من أبيه. اختبرتُ صمّام التوقّف. كنتُ حريصاً، فكّرتُ في أنّه ليس عليّ ترك شيء للمصادفة.

- خُذ، قلت. لا تستعمله إلّا إذا أحسست حقّاً بتهديد. سيكون أولئك السّادة سعداء جدّاً بدقّ ناقوس الجنازة الوطنيّة.

تفحص جاك المُسدّس بفضول: لم أكن أعرف أنّه قد يقتُل، قال. يبدو لعبة.

يبدو لعبة. أليس لديّ مظهر شابّ مسالم، جالس بين الرّفاق، يتململ

ويُصفّق بيديه؟ كانوا إخوتي، كان جاك أخي، كنّا على متن موجة واحدة. غداً، بفضلنا، ستحقّق الثّورة أهدافها، والذين سخِروا منّا، سنغلق أفواههم بقبضة اليد. كان جاك يقاوم في خضمّ الضّرب بالهراوات. كان قميصُه مفتوحاً على صدره، وشعره قد سقط في خصلات طويلة على وجهه وخيط دمٍ يسيل من شفتيه، كان سعيداً بإهداره حياته...

«روث! روث!» اضطربت في سريرها؛ نادت. لم أكن أدري من كانت تنادي تحديداً. كنّا وحيدين في تلك الغرفة، كنّا معاً وكلانا كان وحده. «روث». من كانت ترى؟ سمعتُ هذا الاسم، لكن لم يلُح لي أيّ وجه. كنتُ أنظر إليها منذ ساعات، وخلف أهدابها المُغمضة، لم أكن أرى شيئاً؛ كانت ذكرياتي تتزاحم حولي؛ إنّي أرى حكايتي تجري أمامي. وسط الضجّة انطلق عيارٌ ناريّ، ثمّ آخر فوراً: «الصّغير هو من أطلق أوّلاً».

قَتَلَة. قَتَلَة. كنتُ أمشي في اللّيل متعثّراً، كنتُ أركض هارباً. كان هناك هادئاً وسط أشعارِه وكُتُبِه. أخذتُه من يده، أعطيتُه مُسدّساً وألقيتُ به تحت الرّصاص. قَتَلَة. كان مارسيل في أعلى السُلّم يقرأ أو ينام وسط رائحة الرّسوم الزّيتيّة، بجوار حصان البحر السّاكن؛ كان ينتظر جاك. صعدتُ السُلّم، لم أكن قادراً على الصّعود، لا يمكنني النّزول، كان على الوقت أن يتوقّف وأن أُبتَلَع، أن يُبتَلَعَ مارسيل، أن يُبتَلَعَ العالم؛ كانت الدّرجات صلبة تحت قدَمَيّ، كلّ قضيب كان في مكانه. خلف الباب، كان مارسيل في انتظار جاك، وأنا كنتُ هناك، وسأتكلّم. كلمة واحدة وسيوجد الشّيء، ثمّ ستتوقّف عن أن تكون موجودة. طرق جافّ، كلمة، وسيتصدّع الوقت، سيُقطع نصفَيْنِ يستحيل لقاؤهما. طرقتُ باب مارسيل.

في البداية جاك، والآن «إيلين». كان ذلك غير كافٍ. سيأتي لورون. تابعت اللّحظات سباقَها، الواحدة تدفعُ الأخرى، دافعة إيّايَ بلا رحمة. تقدّم في ليل المُستَقبَل. قرّر. ملاحَقاً من قِبَل الحياة التي كانت ترمي بي إلى الأمام نحو جثث جديدة، نحو نساءٍ باكيات، أبواب الزّنزانة التي تُقفَلُ وتُفتَح، التي تفتَحُ على الموت. كانت هناك لافتة صفراء حديثة

تحتوي على أسماء حديثة، ملصقة على الخزف الأبيض للمترو وعلى جدران باريس. «*لا تذهب*». *عندها سيكون قد ذهب كلّ شيء سدى، ستصبحين ميّتة بلا سبب*. آه! كيف نوقف المدّ الجارف. تقدّم، تقدّم، قرِّر. كلّ خفقة من قلبي تقذف في العالم قراراً لا رجعة فيه. أوصد الباب، أغمض عينيك: أن تُقرّر *إغلاق الباب وإغماض عينيك*.

ليس ثمّة تحيّة. ولا حتّى ثمالة اليأس والقرار الأعمى، ما دمت هنا، على هذا السّرير، في ضوء الموت البرّي.

مكتبة
t.me/t_pdf

-II-

كانت الدرّاجة لا تزال هناك، جديدة، مضيئة، بإطارها الأزرق الشّاحب ومقود «النيكل» المتلألئ، متّكئاً على الحجارة الكئيبة للجدار. كانت نحيفة ومندفعة إلى حدّ كبير: بلا حركة، بدت كأنّها تشطر الهواء نصفين؛ لم يسبق لـ «إيلين» أن رأت درّاجة أنيقة بهذا الشّكل. «سأعيد طلاءها بالأخضر الدّاكن، ستصبح أجمل بكثير»، فكّرت. ابتعدت عن النّافذة بأسف. ما الفائدة من البقاء هناك للمشاهدة، وارتعاش القلب. لم تعرف منذ ثمانية أيّام ما تفعل غير هذا. فريسة جميلة! كانت تفكّر فيها من دون توقّف. كانت تطلّ من النّافذة عشرين مرّة في اليوم لتتأمّلها؛ لكنّها كانت عاجزة عن أخذها. «أنا أُتعِبُ نفسي»، فكّرت بأسى. عندما كانت صغيرة، كانت تقوم بأيّ شيء ترغب في القيام به من دون تردّد. رتّبت فرشاتها في مئزرها. حسناً. لقد وصلت إلى آخر النّهار. غداً يوم آخر شبيه بهذا الذي انقضى. استخرجت من حقيبتها قطعة كرتون مؤطَّر: 20 نوفمبر 1934. لوّنت بالرّماديّ المربّع الخالي. رماديّ، أسود؛ يومان أحمران فقط منذ بداية الشّهر.

رنّ الجرس، في الأسفل. نزلت «إيلين» السُلّم.

كان هناك طفل صغير في منتصف المحلّ يراقِبُ قناني الحلوى بسحنة خجل.

- أترغب؟ قالت إيلين.

- أريد هذه، قال الطّفل الصّغير وهو يشير بإصبعه إلى حلوى بالشوكولاتة.

تناولت إلين قطعة الحلوى بملقط ولفّتها في ورق حريريّ.

- إنها تساوي فرنكاً.

رمت الفرنك في درج المصرف وتابعت بعينيها الولد يوغل في الطّريق وهو يقضم غنيمته بشراهة. عاد إلى بيته، الجميع يعود؛ كانت ساعة كئيبة؛ سيعودون هم أيضاً. خيّم اللّيل على حلوى اللّوز والكريم؛ أحسّت إلين بالطّعم اليوميّ للدّهون الجامدة في فمها.

فتحت الباب الذي يُفضي إلى السّاحة؛ كان المقود وواقي العجلات يُشعّان في العتمة. اقتربت إلين؛ كم سيكون مبهجاً لو جلست على هذا المقعد الأصفر وأن تأخذ المقود بين يديها! ألقت نظرة على الحجرة. الأمر يوحي بأنّ الحاجبة تتعمّد عدم الخروج كلّ هذه الأيّام. «مع ذلك، أريدها، لابدّ أن أحصل عليها»، قالت إلين. ناعمة، نظيفة، مرحة؛ هشّة وقويّة في آن، بعجلاتها المُخرّمة وإطاراتها الرّجاليّة. أمسكت شعاعاً بين أصابعها وضغطت على نطاقها الآجُريّ اللّون: إنّها تقاوم كحجر، إنّه مثير للغرابة حقّاً أن يكون الأمر مجرّد غشاء مليء بالهواء. تراجعت إلين قليلاً: كانت تشعر بالفخر والحرّية. «سأذهب حيث أريد. سأعود متأخرة في المساء. سيكون هناك خطّ نور يسبقني في الطُّرقات الصّامتة، سأسمع حفيفاً عذباً ومكتوماً. سأعالجها. سأخصّص لها قارورة زيت كالميكانيكيّين وسأصبّ الزّيت في أحشائها». رفعت رأسها ناحية نوافذ الطّابق الثّالث. «هذا إذا لم تخف من الصّعود بها إلى الشقّة». أحسّت برأسها يسخن، تجعل الرّغبةُ شفتيها وأصابعها ترتعش. «عند أوّل مرّة تخرج فيها الحاجبة..».

رنّ الجرسُ في المغازة. تعجّلت.

- پول! يا لها من فكرة رائعة! قالت بفرح.

أخذها بين ذراعيه ووضع شفتيه على خدّها؛ قبّلته بشكل خاطف.

- ستساعدني في غلق المغازة، ثمّ سنصعد إلى شقّتي. تريد شوكولاتة؟

– ليس الآن، قال پول. فتح الباب وتناول بين يديه أحد الأصص الثّقيلة المُصطفّة على الجادة: مازال رفض الشوكولاتة يثير الغرابة لديك! قال ضاحكاً. المرّة الأولى التي رأيتُكِ فيها كنتِ تريدين حشوي بها بأيّ ثمن.

– إنّها وسيلة الإغواء الوحيدة لَدَيّ، قالت إيلين.

– أعجبتِني بغير ذلك، قال پول.

– هذا صحيح، كان الودّ مُعَطّلا عندك دائماً، قالت إيلين. ابتسمت: ستصحبني للعشاء؟ لديّ بعض القروش، أنا أدعوك.

– ليس هذا المساء، قال پول. عليّ أن أتناول العشاء مع أحد أصدقائي.

– آه! قالت إيلين.

– غداً، لو أردتِ، قال پول.

أمسكت إيلين بأصيص من دون إجابة. لم يكن العشاء مع پول حفلة مُعتَبَرَة، لكنّه دائماً أفضلُ من الوجبات العائليّة؛ كانت ترغب بشدّة في العشاء معه في ذلك المساء بالذّات. غداً... إيه حسناً! غداً إذًا. انتهيا من إدخال الأصص بصمت.

– ماذا فعَلتَ اليوم؟ قالت إلين بلطف.

– اشتغلتُ. ماذا تريدينني أن أفعل خلاف ذلك؟

– أرني.

– إذا أردتَ، قالت إلين.

أدخلتهُ إلى غرفتها واقترب پول من الطّاولة.

– هذا جميل بشكل رهيب، قال.

– أتعلم، قال لي «فرديي» إنّ ثلاثة أرباع الرّسوم التي بيعت كانت لي، قالت إلين. لكن سترى! لن تُعطِيني تلك العاهرة فلساً واحداً زيادة.

كان دائماً ذاك هو الحال؛ تستقبل پول بسرور ثمّ خلال خمس دقائق،

كانت تسأم معه. تفحّصته بعينين ناقِدَتين؛ كان رغم كلِّ شيء وسيماً بشعره الأشقر وبشرته المُفعمة بالحياة والمنقّطة بالأحمر؛ لكن تحت الجبين القاسي، كانت العينان دافئتين. كان المحجران قاسيين وشفّافين، خلفهما كان في الإمكان الانتباه إلى جسم رخوٍ شبيه بالذي نكتشفه فجأة في أنفسنا.

– فيمَ تُفكّرين، قال پول.

– أرى أنّ الحياة غيرُ مُسلّية، قالت إلين.

– مع أنّك محظوظة، قال پول. فكّري في ما لو أنّكِ تعملين ثماني ساعات في مكتب أو مصنع...

– الانتحارُ أفضل، قالت إلين. أضافت بحدّة: أتساءل عن سرِّ مزاجك اللّطيف الذي تحافظ عليه دائماً.

– تعلمين، ليس لدى العُمّال الوقت للانشغال بأمزجتهم، قال پول بجفاف.

رمقته بسُخط؛ كان مزعجاً حين يشرع في صدع أذنيها بالفضائل العُمّاليّة.

– أعلم، أنا بورجوازيّة صغيرة، لقد آخذتني على ذلك بما يكفي. وما الذي يثبت ذلك؟ إنّها مُضحكة، طريقة تفسير النّاس دائماً من الخارج؛ نحن لا نقول غير ما نفكّر فيه، ما نحن عليه، لا صلة لذلك بأهوائنا.

– بل يرتبط بأوضاعنا، قال پول؛ ابتسم: لأنّك بورجوازيّة صغيرة فإنّ هذه الفكرة تجعَلُكِ تثورين؛ أنتِ تحتاجين إلى تخيّل أنّ ما يحدث لكِ فريد، وأنّك أنتِ نفسكِ فريدة.

– أنا على يقين من ذلك، قالت إلين.

– كلّ البورجوازيين لديهم هَوَس الأصالة، قال پول. أبداً لا يخطرُ لهم أنّها محاولة تشابه. تلذّذ فكرته بعناد واعتزاز: العامل لا يكترث للأصالة؛ أنا مثلاً، على العكس، يسعدني أن أكون شبيهاً برفاقي.

– لستَ المثال المناسب، قالت. أنتَ فنّي طباعة، لديك تكوين.

– هذا لا يُغيّرُ من الأمر شيئاً. العامل هو العامل.

– هذا يعني، حسب رأيِكَ، قالت إيلين، ثمة آلاف الفتيات في العالم ممنّ يشبهنني تماماً؟

ضحك پول بهدوء.

– أتعلمين، ليس هناك ورقتا شجر متشابهتان تماماً.

هزّت إيلين كتفيها بنفاد صبر.

– لكن عموماً في الإمكان الخلط بينهما؟

– عموما، نعم، قال پول مسترسلاً في الضّحك.

– حسناً، قالت إيلين؛ انتصبت أمامه: إذًا، لماذا تزعُم أنّك تحبّني، أنا دون غيري؟

– هناك الآلاف مثلي على الأرض، قال پول. وهذا يعني آلاف قصص الحبّ المشابهة لقصّتنا. أخذ پول من كتفيها ورمقها بغبطة: كلّ واحدٍ يحبّ كلَّ واحِدَتِه.

– لكن، إجمالاً، في وسعنا دائما أن نتبادَلَ الـ «كُلّ واحدٍ» والـ «كُلّ واحدة، قالت إيلين؛ استخلَصت: يبدو لي أنّه حين يحبّ المرء شخصاً ما، لا يخطرُ له أن يحبَّ شخصاً آخر.

– هذا طبيعي، قال پول. لكن هذا يصادفنا في كلِّ حُبّ: عادة، نحنُ لا نرغب في خلاف ما نملك.

– آه! أنت تعقّد المسائل علَيّ، قالت إيلين؛ تقدّمت نحوه خُطوة: نعم أم لا، أيمكنكَ أن تحبّ فتاة غيري؟

تردّد پول لحظة؛ كان الرّهيب بالنّسبة إليه هو أنّه يأخذ كلّ شيء مأخذ الجد؛ لم تطلب منه الإجابة بِنزاهة.

– الآن، لا يسعني أن أتخيّل ذلك؛ مع ذلك أعلم جيّداً أنّ الإجابة هي نعم. أنتِ أيضاً كان من الممكن أن تحبّي شخصاً آخر.

- لم أدّع العكس قط، قالت إيلين.

احمَرَّ وجه پول قليلاً. لم ينل منه كلامها؛ انزعج فقط لكونها نزلت إلى مستوى تعمّد جرحه. ثمّة أوقاتٌ يُشتَهى فيها ضربُه بسبب تواضعه المغرور. لم يكن يتعاملُ كإنسان خارق، لكنّ إيلين لم تكن بدورها خارقة في عينيه؛ كان الجميعُ في نظره عاديّين وكان عاديّاً أن يحبّ النّاسُ بعضهم. كان على يقين تامّ من أنّها تحبّه.

- ليس مُهمّاً أن نطرح أسئلة مماثلة، قال پول. بل لا معنى لأن نفترض أنّ الأشياء كان من الممكن أن تكون مختلفة. الأكيد، هو أنّي أحبّكِ. لمسها بلطف بقبضة يده على خدّها: تعرفين هذا أيّتها الخادمة الصّغيرة.

- أنت تردّد هذا كثيراً، قالت إيلين.

- لا تتغابَيْ، قال پول.

أحاطها بذراعيه ووضع شفتيه على فمها؛ كانت شفتاه شهيّتين ونبيلتين وباردتين وكانت تحبّ أن تلامسا شفتيها؛ أغمضت عينيها؛ أحسّت بالرّفاهة بين هاتين الذّراعين الصّلبتين اللتين تطوّقانها وشعرت بالحرارة في جسمها والحنان الذي يلُفّها. تملّصت مبتسمة.

- إذًا! إن كنتَ حقّا تُحبُّني، افعل شيئاً لأجلي، قالت.

- ماذا؟ قال پول.

- اعتذر لصديقك وخذني معك للعشاء.

اكفهرّ وجه پول:

- لا أستطيع، قال.

- قل إنّك لا ترغب، قالت إيلين؛ أشاحت عنه بظهرها، أخرجت مشطاً من حقيبتها ومرّرته على شعرها الغزير: لعلّه أحد أفراد الحزب.

- لا، قال پول متضايقاً. إنّه بلومار، تعرفين...

- آه! بلومار، قالت إيلين.

أدارت عقداً حول إصبَعِها. بين جميع رفاق پول كان الوحيدَ الذي ودّت لو أنّها عرفته.

- حسناً! لا تعتذر منه، قالت. خذني معك.

- يا لها من فكرة! قال پول.

- لماذا؟ أتخجل بي؟

- لكن، لا معنى لهذا، قال پول. قلتُ لكِ إنّ لدينا مواضيع يجب أن نخوضها، بجديّة.

- متعلّقة بماذا؟

- هذا ليس من شأنِك.

- بالعكس، إنّه يهمّني.

هزّ پول كتفيه؛ كان حزيناً بالكامل. «لستُ لطيفاً»، فكّرت إيلين. لكن ماذا؟ منذ زمن طويل وهي تطهو عصيرها الخاصّ بها؛ كانت في حاجة إلى تجديد؛ إن لم تهتمّ برغباتها فإنّ أحداً لن يفعل بدلاً عنها؛ كانت تلك هي القاعدة: الكلّ يؤثرُ نفسَه.

- ما دمتُ أقولُ لك إنّ الأمرَ يهمّني، قالت. يمكنك أن تشرح لي.

- حسناً، تعلمين أنّ هناك كمّاً هائلاً من التجمّعات النقابيّة؛ يوجد الكثير منها، نحنُ نشتّت قوانا؛ سيُفتَح مؤتمر في «تولوز» في محاولة للاتّحاد. بلومار هو مندوب عن أحدها. أريد أن أقنعه بالتّصويت معنا.

- نعم، قالت إيلين. لأنّكم لا تنتمون إلى نفس الجماعة.

- كان اشتراكيّاً في ما مضى؛ لكنّه غادر الحزب، قال پول مؤنّباً. والآن يرفُض الانخراط في «العالميّة»[4] L'internationale. يريد أن ينعِش العمل النقابي الفرنسيّ القديم: أن تحتضن النّقابات العمل الميدانيّ،

4- «العالميّة» L'Internationale: نشيد ثوريّ كتبه الشاعر أوجان پوتيي سنة 1871 خلال أعمال قمع وعنف في باريس.

بعيداً عن السّياسة. لكن في الوقت الحاضر فإنّ اللّعبة تجري على أرض السّياسة.

كان سيُعقّب؛ لم يكن يتمالك نفسه أمام هذه المسائل: إمّا أن يتكلّم وإما أن يصمت.

اختصرت إيلين:

- لن أمنعكما من الحديث، قالت. أين تواعدتُما؟

- في «ميناء سالو»[5] Port-salut. تردّد پول لحظة: لكن لا يمكنني أن آخذك معي، لا علاقة لك بالأمر؟

- ما دمتُ أرغب في المجيء، قالت إيلين على نحو مشاغب.

- أرجوكِ، قال پول بلطف. كفى نزوات. غدا مساءً نخرج معاً.

- لن يسلّيني الغد، قالت إيلين. وابتلّ صوتُها: أنت تقول إنّكَ تحبّني، وعند أوّل طلب بسيط أطلبه منك...

- مضحكٌ حقّاً أنّك لا تريدين أن تفهمي، قال پول منزعجاً قليلاً.

- أفهمُ جيّداً: هذا غيرُ معقول. هزّت إيلين كتفيْها: حسناً! بالعكس، عندما نحبّ فإنّنا نقوم بأشياء لا يصحّ القيام بها.

- أوه! إنّها كقاذورات السّينما، قال پول.

كان مظهره هادئاً وحاسماً على نحو جعل دم إيلين يغلي.

- هذا آخرُ كلامٍ لديك؟ قالت. لن تأخذني معك؟

نفى پول برأسِه بنصف ضحكة:

- لا، قال.

- إذًا! يمكنك الذّهاب الآن، لن أستبقيك.

خطت نحو الباب وفتحَتْه.

- إيلين! لا تكوني ساذجة.

5- ميناء-سالو أو الپور-سالو Le Port-Salut: مطعم وكاباريه على الشاطئ الشمالي لباريس.

- ستأخذني أم لا؟
- أوه! حسناً، قال پول. تجاوز الباب: نلتقي غداً مساءً.
- إن كنتُ هنا، صرخت بسخط.

مالت نحو الممرّ؛ رنّ جرس المدخل وانغلق الباب. «لقد غادر. لا فرق لديه إن بقيتُ لأتعفّن هنا؛ لا فرق لديه إن كنتُ غاضبة عليه، لابدّ أنّه نسِيَ الأمر». جلست على درجة في السُلّم. كان پول يُحبّها، هذا مؤكّد، إنّه يحبّها بإخلاص منذ ثلاث سنوات، كان يُحبّها بحرارة، بشغف، لكنّها لا تشعر أنّها نفيسة في عينيه؛ لم تكن غالية على أحد. من يهتمّ لأمرها في هذه اللّحظة؟ كانت هناك، مغمورة برائحة العسل والكاكاو التي تصعد من المتجر؛ كان من الممكن أن تكون في أيّ مكان آخر، سيكون الأمر نفسَه. في طفولتها لم تكن هنا ولم تكن هناك: كانت على ذراع الربّ؛ كان يحبّها حبّاً أبديّاً وكانت تشعرُ أنّها أبديّة مثلَه؛ منكفئة في العتمة، كانت تهديه كلّ خفقة من قلبها وكلّ نفسٍ من أنفاسِها، كان يحظى بأهمّية لانهائيّة بما أنّ الله هو الذي يقطفه. كانَ پول أقلّ انتباهاً؛ وحتّى لو كان أكثر اهتماماً فإنّه على أيّ لم يكن الله. نهضت إيلين. «لستُ في حاجة إلى أحد. أنا، إيلين، موجودة؛ ألا يكفي ذلك؟».

صعدت إلى غرفتها واقتربت من المرآة. «عيناي، وجهي»، فكّرت بنشوة. «أنا. لا أحد غيري في وسعه أن يكون أنا». كان من النّادر أن تنتزع من نفسها مثل هذه الشّرارات الوجيزة؛ لمست يدها كما لو أنّها غريبة عنها، ووجدت نفسَها فوراً في قلب ألفة لا أمل فيها. ارتمت إيلين على الكنبة. كانت غبطتها قد تلاشت. لا أحد قبالتها؛ كانت منغلقة على نفسها بالكامل؛ كان في استطاعتها أن تزعم بأنّها تحبّ نفسها، لم يكن ذلك الحبّ سوى رفرفة صغيرة باهتة داخل قوقعتها؛ وذاك الملل، تلك الحموضة المقزّزة للحليب المُتخثّر. إنّه اللّحم الذي يكوّنها، اللّحم اللّزج والطريّ الذي ما تنفكّ تساوره القشعريرة. كمَحارة، ينبغي أن تشعر المحارة بوجودها على هذا النّحو؛ أفكاري، إنّها رموش تهتزّ؛ تبدو

كأنّها تسافر نحو وجهة ما، ثمّ تنكمش، تهرب، وتسقط. وثبَت إيلين على قدميها. هذا غير معقول، يجب أن يحدث شيء ما. ماذا يتصرّف الآخرون؟ لابدّ أنّهم محارات مكتملة أكثر منّي، هم لا يتخيّلون أصلاً أنّ هناك خارجاً خارج قوقعاتهم.

- آنسة برتراند؟

مالت إيلين على الدّرابزين:

- نعم.

- سأغيب فترة. هل بإمكاني أن أضع عندكِ اللّوحة كي أحوّل عنواني لديكِ؟

- نعم، بالتّأكيد، قالت إيلين. متى تعودين؟

- نصف ساعة، في الجوار، قالت الحاجبة. شكراً جزيلاً.

- العفوَ، قالت إيلين.

انتظرت لحظة ثمّ نزلت السُلّم راكضة؛ كان قلبها ينبض بقوّة. إنّها اللّحظة المناسبة الوحيدة؛ لن تُتاح فرصة أفضل. فتحت باب السّاحة، وانزلقت عبر الجدار. على الواجهة الدّاكنة، كانت النّوافذ تتلألأ، مُتوعّدة كأنّها نظرات. لو أنّ أحداً رآها، لو أنّها تقاطعت مع أبيها أو مع أحد المُستأجرين؟ جمدت في مكانها؛ كانت يداها رطبتين وكانت ساقاها ترتعشان. «هل أصبحتُ جبانة إلى هذا الحدّ؟» كانت تريد تلك الآلة بقوّة؛ كانت تشعر بأنّها تمثّل نصيبها على الأرض وأنّها إن أهدرت الفرصة، فلن يكون لها أيّ أمل في المُستقبَل. «أريدها». أمسكت بالمقود. كم كانت خفيفة! توقّفت مُجدّداً؛ ستراها عاملة المخبز، والجزّار، وهي تمرّ. سيعرفها الحيّ بأسره، يمكنها أيضاً أن تترك رسالة موقّعة: أنا من أخذ الدرّاجة. «وليكُن!» قالت، وهي تصرّ على أسنانها. تقدّمت نحو المدخل المسقوف وهي تدفع الآلة. ها هي الآن ترتعش إلى درجة أنّها لن تكون قادرة على الحفاظ على توازنها فوق المقعد. «غريب»، ردّدت بيأس. ستحدث فتنة في البيت خلال ساعة: «سيخبرون عنّي، وستُفتكّ منّي».

نظرت حولها بقلق؛ لم تكن بعدُ على استعداد لمفارقتها، إنّه متاعها، دابّة مألوفة عزيزة ومُطيعة، صديقتها، ابنتها العزيزة. «أن تهرب معها وألّا ترجع أبداً..». مرّرت يدها على جبينها المتصبب عرقاً. «هناك حلّ، واحد فقط».

أعادت الدرّاجة إلى مكانها وعبرت السّاحة راكضة. إلى حبّي النقيّ؛ ثمّ إنّنا لسنا متخاصِمَينِ تماماً. مرّت كسهم على امتداد شارع «سان جاك» وتوقّفت أمام باب المطعم. وماذا لو أنّه رفض؟ أخذت نفَساً عميقاً؛ كان وجهها ملتهباً؛ كانت هناك غيمة تفصلها عن العالم، ظلّت أنظارها مُثبّتة هناك على قطعة النيكل اللّامعة. «لو رَفَض فسأقطع معه، لن أراه ثانية أبداً». دفعت الباب؛ نفخت مقلاة في وسط الغرفة المُبَلّطة؛ كان هناك أناسٌ جالسون إلى الطّاولات المُغطّاة بالقُماشِ المُشَمّع. لكنّ پول لم يكن بينهم.

- بِمَ أخدِمُكِ؟ قال صاحب المحلّ.

تحت مئزره الأزرق، برز بطنُه مُهدّداً.

- أبحث عن شخصٍ ما، غمغمت إيلين. واستقرّت عيناها على شابّ يجلس وحده في ركن عميق؛ لم يكن يأكل، وكان بادياً أنّه ينتظر أحدهم بكتاب مفتوح أمامه. خطت نحوه. رمقها مستفهماً؛ لم يكن شابّاً جدّاً، يفترض أنّ لديه من العمر ثلاثين سنة. لم يكن الاعتراض بادياً في عينيه.

- ألستَ بلومار؟ قالت.

ابتَسَم:

- نعم، أنا بلومار.

- هل لديك فكرة ما إذا كان پول سيأتي أم لا؟

- پول پيربي؟ أنا أنتظره بين دقيقة وأخرى.

كان لا يزال مُبتَسِماً؛ ابتسامة طريفة ومُقَيّدة؛ لا يمكن تحديد ما إذا كانت ابتسامة طيّبة أم ساخرة.

تردّدت.

- ثمّة خدمة كنتُ سأطلُبها منه. رمقت بلومار بقلق: الأمر مستعجل.

- أيمكنني أن أقدّمها لكِ نيابة عنه؟

أخذ قلب إيلين يقفز داخل صدرِها. سيكون هو أفضل من پول؛ لا أحد في الحيّ يعرفُه. تفحّصَتْه. إلى أيّ حدّ يمكن الوثوق به؟

- أعتقد أنّه لا يمكنني، تابع.

- ربّما، قالت إيلين. لو أردت... لابدّ أنّها تبدو سخيفة وهي ترتكز في كلّ مرّة على ساق: حسنًا، لا أريدُ العودة إلى البيت لأنّ والِدَيَّ سيرغمانني على تناول العشاء معهما وهذا يصيبني بالقرف. لكن عندي درّاجة في السّاحة، وأنا في حاجة أكيدة إليها الآن...

- هلّا أخرجتها لي؟ إنّها على بعد خطوَتَين من هنا.

نظرت إلى ساعة الحائط. السّابعة وخمس وثلاثون دقيقة. مضت عشرون دقيقة على غياب الحاجبة.

- طبعا، بكلّ سرور، قال بلومار. لكن ماذا لو أنّ أحدهم رآني وأنا أسرقُ درّاجَتَك، ماذا سيُظَنُّ بي؟

- عندها، تعالَ إلى هنا وأنا أقول إنّي أنا من أرسَلَك.

رمَقَتهُ بنظرة رجاء. نهض بلومار.

- إنّها في 200 شارع سان جاك؛ في السّاحة، الدرّاجة الزّرقاء الفاتحة. عموماً هي الوحيدة. حاول أن تُسرِع لأنّي أحبّذ، مع ذلك، ألاّ يراكَ أحد.

- سأجلِبُها إليك حالاً، قال بلومار.

تهاوت على المقعد الخشبيّ. هل سيصل في الوقت المناسب؟ لو افتُضِحَ أمره... لكن من الأفضل عدم التّفكير في ذلك. إنّه الحلُّ الوحيد. كلّما كبر المرء، صار يبالغ في التّفكير.

- ماذا تفعَلين هنا؟ قال پول.

برز فجأة وراح يحدّقُ في إيلين باحتقان؛ احمَرّ لونُها غضباً.

- أنتظر رفيقك، قالت إيلين. هو على الأقلّ لطيف. ولا أعتقد أنّي أبغضه.

- أين ذهب؟ قال پول.

- أرسلتُه لجلب شيء ما.

- لا تنقُصُكِ الوقاحة، قال پول بنبرة مُلَطّفة. ابقَيْ ما دمتِ هنا. لكنّك لن تجدي متعة.

جلس.

- أنا أتسلّى كثيراً. قالت إيلين.

ثبّتَ نظراته على زجاج الباب المُقَشّر. مرّت سبعُ دقائق. يجب أن يكون هنا.

- ماذا تريدين للأكل؟ قال پول.

- لا أدري، قالت إيلين، لستُ جائعة.

سيكون أمراً بشعاً حقّاً لو تعرّض للأذى بسببها. كان رائعاً بكنزته الملفوفة، وشعرِه الفاحم الغزير ورقبته القويّة وقامته النّحيفة؛ لم يكن يبدو أنّه عامل، ولا بورجوازي، ولا أحد من ساكني الحيّ اللّاتيني. ارتَعَش.

ظهر بلومار في المدخل مبتَسِماً.

- درّاجَتُك، قال. أتأخذينها فوراً أم أُدخِلها؟

- أوه! كم أنا ممتنّة! قالت إيلين.

انتابتها رغبة في أن تعانقه. درّاجتي؛ إنّها لي حقّاً؛ بعد قليل آخذها وأخرج في نزهة بين الطّرقات؛ سأشقّ باريس؛ أنا على يقين أنّها تسير بشكل جيّد.

أحسّت أنّ حياتها تبدّلت.

- أدخِلْها، لو سمَحت.

- درّاجتُكِ؟ قال پول. ما الحكاية؟

تملّى الآلة الزّرقاء البديعة التي كان بلومار بصدد إسنادها إلى الجدار: ألكِ هذه الدرّاجة؟ منذ متى؟

ابتسمت إيلين من دون إجابة. سأل صاحبه بعينيه:

- ألكَ هذه الدرّاجة؟

- لا، إنّها درّاجتُها وقد جلبتُها لها، قال بلومار. طلبت منّي أن أفعل ونظر هو نفسُه إلى إيلين بريبة.

- هكذا إذًا! قال پول. أمسَكَ إيلين من كتفها: قولي، ألا تستطيعين القيام بحركاتك بنفسك عوض أن تلقي بها على عاتق الجار. ألديك فكرة عمّا كان ينتظره لو أنّ أحداً فطن له.

ضحك بلومار.

- استغفَلَتني إذًا، قال بلومار مُحبَطاً.

كانت ضحكته شابّةً ودافئة، لكن كان في عينيه وفي زاوية من شفتيه كم هائلٌ من الممانَعة، لم تنجَح إيلين في فكّ شفرتها.

- أتدري، أنا آسفة، قالت. لم يكن في إمكاني الذّهاب بنفسي لأنّ حُجّاب الحيّ جميعهم يعرفونني.

- لكن كيف! قال بلومار. جلَسَ ومرّر القائمة إلى إيلين: ماذا تتناولين؟ لابدّ أنّ الإثارة قد حفرتْكِ من الدّاخل؟

- آخذُ «پاتي» مع شرائح اللّحم المقليّة، قالت إيلين.

- نفس الشّيء، قال بلومار لصاحب المطعم الذي اقترب منهم: مع قارورة نبيذ أحمر.

- أنا أيضاً «پاتي» وشرائح اللّحم، قال پول بكآبة. شرد بسحنة عناد: «قصّة غبيّة، قال بغتة. سأعيد الآلة».

- درّاجتي، قالت إيلين. پول، لو فَعَلْتَ ذلك لما رأيتني مدى حياتِك.

- سأعيدها، قال پول.

نهض. ترقرقت الدّموع في مُقلَتَيْ إيلين. كان پول أقوى منها وكان عنيداً جدّاً.

- لو تقدّمتَ بها لمَشيْتُ خلفَك ولأخذتُ أصرخ، قالت وهي

تعضّ على أسنانها. سترى الفضيحة الجميلة التي سأسبّبها لك. حاول الذّهاب، هيّا...

– اسمَع، قال بلومار. نظر إلى پول بعينيْن مواسِيَتَيْن: الآن وقد حدث المكروه وسرقت لها الدرّاجة، اترُكها لها!

تردّد پول.

– لكنّ هذا سخيف، سيُشكُّ فيكِ فوراً.

– لا أهتمّ، قالت إيلين. لن يكون في حوزتهم أيُّ دليل ضدّي.

– أينَ ستُخفينها؟

– لِمَ لا في بيتِك؟ قالت إيلين.

– لا، قال پول، لن أحشُر نفسي في هذا.

– يمكِنُكِ إيداعها عندي، قال بلومار.

– أوه! سيكون ذلك رائعاً، قالت إيلين. يمكنني أن أعيد طلاءها عندك؟ هل يزعجك ذلك؟

– مطلَقا، قال بلومار. بأيّ لون ترغبين؟

– بالأخضر الدّاكن. قالت إيلين. ألا ترى أنّها ستكون جميلة؟

– الأخضر الدّاكن؟ قال بلومار. ليست فكرة سيّئة.

– ظننتُ أنّ حماقات مماثلة قد انتهت في صِغرِك، قال پول. إنّما الآن، صراحة هي بشعة. أخيراً، ضعي نفسَك مكان المرأة المسكينة التي لن تجد درّاجتها.

– بالعكس، هذا يسرّني. تلك المرأة المسكينة! لكنّها امرأة حمراء فظيعة ومُغطّاة بالفرو ولديها الكثير من الزرابيّ في بيتها. ثمّ إنّها لا تستعمل درّاجتها أبداً، ها قد مضت ثمانية أيّام عليها وهي في السّاحة.

– تسرقين أيّ شخص، لا يهمّكِ، قال پول.

– غيرُ صحيح، قالت إيلين. هزّت كتفيها: لا أفهم لِمَ تكسرُ رجلَيْك دفاعاً عن الملكيّة ما دمتَ شيوعيّاً!

- لا صلة لذلك بالشّيوعيّة، قال پول. أنتِ تتحدّثين كالبورجوازيّين الذين يتخيّلون أنّنا نحنُ شيوعيّون لأنّنا نفتّش في جيوب الجيران.

- لا أرى سبباً واحداً يجعلني لا أسرق الأغنياء القذرين، قالت إيلين.

استدارت بعينيها نحو بلومار لعلّها تجد تأييداً.

- شخصيّاً أنا لا أفعلُها، قال.

كان لا يزالُ يحافظ على سحنته الطيّبة والسّاخرة في آن. «كأنّ لي أربع سنوات»، فكّرت إيلين بغضب.

- آه! لماذا؟ قالت خائبة.

- هذا لا يجعلُكِ تتقدّمين، قال بلومار.

- كيف! قالت إيلين. بل هذا يلائمني جيّداً! إنّها لي الآن.

- نعم، طبعاً.

ابتسم بلومار. لم تكن ابتسامة شفّافة مثل پول.

رمقته إيلين بنوع من التوجّس.

- إذًا، لِمَ التّوبيخ؟

- أنا لا أوبّخك، قال بلومار بأدب.

- قلتَ إنّك لا تفعلُها مثلي.

ندّت عنه حركة لا تدلّ على شيء.

- أوه! سيُزعجني دائماً أن أسعى وراء مصلحتي الخاصّة.

كان جادّا، تلك الجدّية المرعبة لدى پول. إنّما فقط لم يكن لكلماته ذاك الوقع الأجوف. لقد غادر بيت العائلة في العشرين من عمره عمداً، كي لا يملك شيئاً. ينبغي أن يكون لديه أسباب قويّة.

- لكن، يبحث المرء دائماً عن مصلحته، قالت إيلين. وأرى أنّه محقّ، تابعت باحتجاج. أخيراً لا يملك المرء إلّا نفسَه.

- أنتِ، ليس لديكِ غير نفسِك، قال پول.

- لأنّي بورجوازيّة صغيرة، أعلم، قاطَعَته إيلين مكشّرة.

– مصلحته، نعم، قال بلومار. لكن فيمَ يوظّف ذلك؟

– ماذا تعني؟ قالت إيلين.

كان يتحدّث عكس ما يضمرُ قلبه، من شفتيه فقط؛ طبعاً، كان يعتبرها طفلة، لم يكن يرغب في النّزول إلى مجادلتها.

– رغباتنا الشّخصيّة الصّغيرة، لا تبدو لي ذات أهمّية، قال بلومار... لا أرى لماذا قد يلهث وراء تحقيقها.

– رغباتي تهمّني، قالت إيلين.

كانت متضايقة. من ناحية كانت تحبّ الحديث معه، لابدّ أنّه يخبّئ كنزاً من الأسرار. وكان رائعاً أن يختار جُمَلَه لأجلها، أن تشعر بنقل نظراته المتوهّجة. لكن كم كان واثقاً من نفسِه! إنّ ذلك يؤجّج رغبة معارضته.

– أرى أنّه يجب على المرء أن يصون كرامته، قال بلومار.

– كرامة؟ قالت إيلين متفاجئة.

– نعم، قال بلومار.

لم تفهم قصدَه جيّداً. لكن كان لكلماته صدى الشّتيمة في أذنيها. عموماً ما أبدى تسامحاً مع سرقة الدرّاجة إلّا لأنّ ذلك بدا له صبيانيّاً. كان ينظر إلى إيلين من فوق رجولته ونضجه.

– إذًا، إن كنّا لا نهتمّ بما نرغب فيه، أتساءل ما الذي يبقى.

– حسناً، أشياء، قال بلومار بعطف.

كان في صوتِه نوع من الأخوّة.

هل كان هناك أناس يتحدّث إليهم بهذه اللّهجة؟ ربّما امرأة. أمر مضحك هو التّفكير في أنّ وراءه وحوله حياة برمّتها.

– ماذا؟ قالت.

– إنّه أمر يطول شرحُه، قال بلومار بمرح. ستكتشفينه وحدكِ إن كنتِ حقّاً لا تعرفينه.

صعد الغضب ثانية إلى خَدّيْ إيلين. طبعاً، لم يكن يجد فيها ما

يجعله يطيل الحديث إليها؛ كان يرمي في وجهها الشّتائم ويمضي إلى شأن آخر بأريحيّة.

- أوه! أعلم: يجب أن يكون همّي الوحيد هو سعادة البشريّة.

رمقت پول حابِسَةً الضّحك: العمّال، لديهم حِسُّ المجموعة.

- تماماً، قال پول.

- لكن على كلّ منّا أن يهتمّ بنفسِه، الأمر غاية في البساطة. أنا أدافع عن نفسي وغيري يحذو حذوي.

- أنا متأكّد من أنّك وُلِدتِ مُدافَعاً عنكِ، قال بلومار.

أحسّت إيلين بعقدة تتصلّب في حنجرتها: لم يكن ضرورياً أن تمنحه كلّ تلك الابتسامات لكي يسخر منها في النّهاية.

- إنّها أقلّ سوءاً ممّا تزعُمُه، قال پول ضاحكاً. لا تستطيع أن ترى فقيراً من دون أن تبيع قميصها الذي على ظهرها كي تساعده.

لم يكن مُحتّماً أن يسارع إلى نجدة إيلين فقد كانت كبيرة وفي إمكانها الدّفاع عن نفسها بنفسها. ثمّ إنّه كان عادياً بالنّسبة إليها أن تشوّه بلومار.

- هذا صحيح، لا أحبّ أن يتألّم أحد أمام عينَيَّ، قالت إيلين. رمقت بلومار بنظرة مُستَفِزّة: أترى أعتقد أنّي وحش: الذين لا أعرفهم، من السّهل عليّ خداعهم.

- هذا ليس وحشيّاً، بالعكس، هذا مألوف، قال بلومار.

كان صوتُه لا مبالياً. أمسكت إيلين بكأسها بكلتا يديها؛ تمنّت لو كان في وسعها أن تدلقه على وجهه. إنّه يجد لذّة في تحقيرها، هو الذي يمضي كامل وقته في النّقاشات والاجتماعات. «كم كان ذلك سيُضحكها». أفرغت كأسها ووضعتها على الطّاولة.

- على أيّ حال، هذا أفضل من الاختيال بأهمّية كما لو أنّ مصير البشريّة بين أيدينا، في متناول الأصابع، قالت بصوت متشنّج.

- أكيد، قال بلومار.

ضحك. لم يحاول حتّى أن يقنّعَ حقدَه.

– أنا على يقين بأنّ البشريّة لا تلقي بالاً لثرثرتكم.

لم يعد في إمكانها التوقّف؛ لم تفهم جيّداً لِمَ سيطر عليها الغضب، إلّا أنّه لم يكن في مستطاعها التّراجع، كان سخطها يزداد مع كلّ كلمة إضافيّة. وكان بلومار يضحك. نهضت وتناولت معطَفَها.

– استمتعوا من دوني، قالت.

أمسكت بدرّاجتها، تخطّت باب المطعم وقفزت فوق مقعدها. استمرّا في تهكّمهما وراء ظهرها، كان پول متضايقاً قليلاً، لكنّ بلومار وجد الأمر مُضحكاً. صعدت دموع سعار إلى محجريْ إيلين. هاذان القدّيسان! كانا يتحدّثان الآن رجلاً إلى رجل؛ ولم تكن هي سوى فتاة سطحيّة، فتاة نزوات. ارتعدت، اخترق الرّذاذ معطفها الرّقيق جدّاً، لم يكن لطيفاً أن تتنزّه على درّاجة في هذا الوقت البارد. «لِمَ أبديتُ هذا القدر من الغباء؟ لا أعرف كيف أتصرّف». كبحت الفرامل وركنت الدرّاجة على الرّصيف. ربّما لم يكن حذراً تركها هناك. لا يهمّ. أخيراً، إنّها مجرّد درّاجة، لا أكثر. دفعت باب مقهى مُضاءٍ واتّكأت على الكنتوار. «واحد روم». أحرق الروم حنجرتها. پول هو الذي أشعلها؛ فقط لو لم يكن هناك. هل كان من النّوع الذي يهتمّ بالنّاسِ فعلاً؟ أحقّاً؟ كلّ هؤلاء النّاس: من رجال، ونساء، وشباب، وشيوخ. كانوا يضحكون ويشربون بصخب. ما الذي يمكن أن يُعثر عليه لديهم؟ ماذا يملكون أكثر منّي؟ أنا أعرف نفسي جيّداً، كان الأمر دائماً هكذا؛ إلّا أنّهم لا يساوون أكثر. ستكتشفين ذلك بنفسك. لكن، لا، لن أكتشف شيئاً. أين تكمن الفائدة؟ ما الذي يستحقّ عناء الجهد؟

كانت الدرّاجة في مكانها على الجادة، وفيّة، مطيعة. داعبت إيلين المقود بمزاج رائق؛ أمن الضّروريّ أن تجرّها طوال اللّيل؟ لم تكن لديها الرّغبة في ركوبها، كان أسهل أن تفكّر وهي تمشي. «لِمَن أصلح؟»، كان من الصّعب التّفكير، على أيّ حال، كانت أفكارها تهرب منها في

كلّ الاتّجاهات. «ما أحتاج إليه، كأس روم أخرى». دخلت مقهى آخر. «اثنين روم». كان النّادل يمسح الكنتوار بخرقة. الضّوء الحزين في الخارج والرّذاذ الذي يسقط. وأنا. نحن هنا. لِمَ هنا بالذّات؟ أنا. من؟ أحدهم يقول أنا. يوماً ما لا أحد سيشعر بهذا الوجود. ضغطت بيدها على الصّفيح. مستحيل. كنتُ دائماً هنا، سأظلّ هنا بالتّأكيد، إنّه الخلود. تأمّلت قدميها، كانتا مُتسمّرتين في الأرض؛ كيف يُعقَل ألاّ تتحرّك يوماً؟ لتتحوّل إلى ماذا؟

وجدت إيلين نفسها في الشّارع. نظرت إلى الدرّاجة بتقزّز: حيثُ تركتها، ككلب صبور ولجوج. ابتعدت مُشفقة؛ كان من الأفضل ترك اليدين طليقتين، كان كافياً أن تكون قدماها مشغولتين: عليها أن تقدّم إحداهما على الأخرى، لم يكن ذلك سهلاً كما قد يبدو. قامت ببعض الخطوات. «إنّها لا تتقدّم»، قالت. أسندت ظهرها إلى شجرة. ملوّنة بضباب رطب. سقطت قطرات باردة على الأغصان العارية، أحسّت إيلين بالبرد يُقطّع كلّ جزء من جسمها. استأنفت السّير. «هذا لا يتقدّم»، أعـادت. على كلّ نحن لا نبرح مكاننا كما في الكوابيس. التقدّم، والتّقهقر، ما من هدف.

«سيعرف دائماً كيف يجيبني». وجهه الذّاكن، صوتُه اللاّمبالي والخشن. هو، ليس غريباً أن يكون على الأرض؛ يبدو أنّ له أسبابه. «لو أمكنني التحدّث إليه من دون پول». فجأة التهب حريق في الطّقس المتجمّد: ليس عليها سوى أن تكتب له ذلك. ما الهدف؟ الهدف موجود؛ مرّ الوقت ثانية، ملموساً، حارّاً. تعثّرت إيلين على حافة الكنتوار وراحت تضحك.

-III-

سُمِع طرق. فُتِح الباب برفق.

- ألا تحتاج إلى شيء؟

نفى برأسِه.

- لا، شُكراً.

في حاجة إلى ماذا؟ لماذا؟ هناك، من دون شكّ، سيكون لكلماته معنى. ثمّة غرفة خلف الباب؛ منزل بأسره؛ شارع؛ مدينة. وأناس، أناس آخرون ينامون أو يسهرون.

- هل خلد لورون للنّوم؟

- نعم. سيأتي إلى رؤيتك عند السّادسة. اقتربت مادلين من السّرير: ألا تزال نائمة؟

- لم تتوقّف عن النّوم.

- لا تنس، قالت مادلين، أنا في الجوار مع دينيس.

أغلقت الباب. بدرت حركة خفيفة على السّرير.

- كم السّاعة؟

همس بالكلمات، بصوت صبيانيّ. انحنى، لمس اليد التي ترتاح تحت الغطاء.

- الثّانية، عزيزي الصّغير.

فتحت عينيها:

- لقد نِمت.

لبثت برهة تربّص، كانت تنصت؛ لم تكن تسمع الخارج بل كانت تصغي إلى داخلها.

- أتسمع؟ دائماً هذا الضّجيج فوق؟

لم يسمع؛ تابع الاحتضار، لكنّه لم يتقاسَمْه.

- بودّي لو أنّهم يصمتون.

- سأقول لهم ذلك. عُد إلى النّوم.

- نعم. العينان زرقاوان مترنّحتان: پول، قالت. أين پول؟

- لقد نجا؛ سيتكلم غداً. سيأتي هنا قبل الرّحيل.

أغمضت عينيها؛ لم تعبر الكلمات حُلمها. ذاك الحلم الثّقيل الذي يخيّم فيه دم بنفسجي وعدم قدرة مُطبقة على الحلم. لا. لن أعود إلى النّوم. استيقظي تماماً، استيقظي إلى الأبد. فتحت عينيها، فتحت شفتيها، كانت قريبة منّي مجدّداً ولم أنجح في حمايتها. كان ينبغي أن أقتحم قلبها بالقوّة، أن أفكّ شفرة الضّباب، وإجبارها على الإصغاء إليَّ، أن أتوسّل إليها: ظلّي حيّة، عودي إليَّ. عودي؛ بالأمس فقط، كان كلّ شيء سهلاً. بيدين موضوعتين على المقود، كنتِ تنظرين إلى السّماء وتقولين: ليلة صافية. ليلة دافئة وخالصة البهاء. كنتِ تبتسمين: سأعود. لن أرى ابتسامتها مجدّداً أبداً. يُخَيَّلُ إليّ أنّ شفتها صارت قصيرة جدّاً؛ اكتشفت أنّ أسنانها ومنخاريها مُطبقة؛ كانت جثّة تتشكّل بعدُ في لحمها الحيّ. عليها أن تُغمِضَ عينيها كي لا ترى قناع الموت هذا؛ غداً، لن أستطيع رؤية شيء سواه. «سأعود». كان عليّ أن أطوّقك بذراعيّ وألاّ أحرّرك أبداً: لا تذهب؛ أحبُّك، ابق معي. سمعت هذه الكلمات في الصّمت، مع ذلك رحلت؛ كان عليّ أن أصرخ بها بقوّة أكبر. أحبُّك. ها أنا أتكلّم الآن لكنّك لا تسمع. كنتَ تسمعني بشغف: وكنتُ ألتزم الصّمت. أما من سبيل للعودة إلى الوراء في حياة أخرى؟ إنّها هنا، قريبة، شابّة في تابوتها

الفاتح، صغيرة كالأمل ذات صيف غائم. كانت تلبس تنورة مجعّدة ذات مربّعات حمراء وخضراء، قميصاً أبيض قصيراً، وحول خصرها حزام أحمر وعريض من الجلد: كانت خصلة تغطّي جبينها وسقط شعرها ناعماً على جانِبَيْ وجهها. حين تراءت في المدخل فجأة، التفتت إليها كلُّ العيون؛ لم تبدُ زوجة لأحد العمّال، مع ذلك، عندما راحت تتقدّم داخل الورشة، كان حضورها يزداد وطأة؛ ربّما بسبب حركاتها اللاّمبالية وهيأتها المُهمَلَة وشخصيّتها غير المكترثة عموماً. اقتربت منّي بسحنة مخيفة وحادّة؛ مدّت إليّ علبة.

- جئتُك بالأكل.

أخذتُ العلبة، كان صندوقاً كبيراً مُغلّفاً بورق أسمر وملفوف بالخيوط كما اتّفق.

- أنتِ في غاية اللّطف.

نظرتُ إليها متردّداً؛ كانت تناوب الوقوف على كلتا قدميها مترنّحة. أحسستُ بالضّيق: لأنّي لم أجب على رسائلها ثمّ لأنّي تلقّيتُها أصلاً.

- إذًا، قالت بنفاد صبر، ألن تفتَحَه؟

ظنّت أنّنا بقينا جياعاً طوال يوميْ الحبس الإرادي اللذَيْن مكثناهما في الورشة، لقد سطت على الحلويّات واختارت بين السّلع أكثرها متانة وذكورة: قطع خبز مُعَطّر، أصابع كبيرة من الشّوكولاتة، بسكويت سميك، لم تتمالك نفسها من غمس هذا وذاك في الكراميل الليّن، موزة مُلبّسة، وكرات باللّوز. قلّبت المأكولات بابتسامة شراهة.

- وزّعها على أصدقائك بسرعة: لابدّ أنّكم تشعرون بالجوع.

جستُ بعيْنَيّ في أرجاء الورشة، فالتقتا بستّ عيون طائشة. «من يريد القليل من الحلوى؟» صرختُ. رميتُ لهم بالزّبدة وعلب التّمر والكراميل الأسمر والأبيض وعضضتُ على قطعة خبز مُعطَّر.

- ألا تأخذين شيئاً؟

- لا، كلّه لكم، قالت.

كانت عيناها تتلألأ؛ كانت تتابع حركة فكّيَّ وخُيّلَ إليّ أنّها تستطعم في فمها العسل الذي يسيل في فمي. راح انزعاجي يتزايد؛ كانت نظراتها تتفحّص وجهي بصبر، مُسجّلة شكل رموشي، لون شعري؛ لا أحد مَسَحَني كذلك من قبل. لم تكن مادلين تراني، لم تكن ترى شيئاً؛ كانت الأشياء حولها، مُشوّشَة، ومفزعة على نحو ما، كانت حريصة على ألّا تلاحظها؛ كان مارسيل يتفحّص ملامحي أحياناً، لكنّه كان يكتفي بأن يلحظ قسماتي بحياد مُشفق. بينما كانت نظرات إيلين مستفهمة، مُقيّمة، متسائلة على الدّوام عن الخلاصة. من يجرؤ، إذاً، على أن يكون هنا، في مواجهتي؟ مضغتُ جزءاً كبيراً من الخبز المُعَطّر بصمت؛ ثمّ قلتُ:

- تركوكِ تدخلين؟

هزّت كتفيها:

- أمامك الدّليل.

- لديهم تعليمات بأن لا يسمحوا سوى للأمّهات أو الزّوجات...

ابتسمت بتحدٍّ:

- قلتُ لهم إنّي جئتُ أرى خطيبي.

- پيريي في الورشة، من الجهة الأخرى، قلت بسرعة.

- لكنّي أعطيتُ اسمَكَ أنت، قالت. ربّما لهذا لم يمنعوني.

بدا عليَّ أنّي مُكَدّر؛ سألت:

- هذا يزعجك؟

- قليلاً. إنّه أنا من أعطى التّعليمات، لا ينبغي أن أحظى باستثناء.

جلست على مقعد وعقدت ساقيها؛ ساقان جميلتان وسمراوان. كانت تنتعل صنادل إسبرطية من الجلد وشراباً أبيض.

- ولِمَ لا؟ قالت.

- اسمعي. إذا أردتِ أن نتحدّث فلنضرب موعداً. لن يتواصل الإضراب طويلاً. لكن لا يجب أن يطول مكوثك هنا.

- آه! لكنّي أتيتُ من مكان بعيد، قالت. لا؛ سأبقى. هكذا، ستكون مُجبَراً على أن تجيبني.

ابتَسَمت. لم تعجبني رسائلها؛ رسائل فتاة صغيرة تشعر بالضّجر. لكن يجب أن تساوي أكثر من هذا؛ كان في عينيها، في جبينها، وفي خدّيها قوّة حيوان برّي بينما كان يرتعش على فمها ألف وعد بالوداعة؛ أحبّ هذا الوجه. ألقيتُ نظرة على الرّفاق؛ لم يكونوا منشغلين بنا. كان بعضهم يلعبون الورق فوق الرّخام؛ وآخرون كانوا ممدّدين على الأرض يدخّنون؛ كان «پورتال» يسخّن وعاء الطّعام الذي جلبته له زوجته فوق موقد كحوليّ، كتب له «لورون» رسالة؛ يذهب في الظنّ أنّنا في مبيت شعبيّ، الدّيكور من حولنا هو أيّام العمل؛ أمر باعث على الفضول حقّاً أن تُهدَر بسعادة حياة شبّان في هذه الورش حيث يجري في سباق محموم عمل جماعيّ قاسٍ. تصلّب الرّصاص في الأخاديد، كانت النّار قد انطفأت، إشارات اللّوحة لم تعد سوى بقع يصعب تمييزها، عادت أحرف الرّصاص عشوائيّة حتّى أنّه بات من الصّعب قراءتها، نحن فقط نوجد، غير عابئين بتلك الأشياء غير الإنسانيّة، مشغولين تماما بأنفسنا. كنّا أحراراً وكنّا نبدي قوّة. لم نكن نطيع أمر أحد ولم نكلّف أحداً بأن يتصرّف بدلاً عنّا؛ لقد حدث الإضراب؛ عفويّاً، من دون ضغط من الأحزاب، من دون غايات سياسيّة، من قلوب العمّال أنفسهم، من صميم حاجاتهم وآمالهم. أحسستُ بأنّي ممتلئ. ناضلتُ منذ سنين لأجل الوصول إلى هذه النّتيجة: تلك الوحدة الآمنة حيثُ الكلّ ينهل من الكلّ قوّة فرض إرادته، من دون المساس بحرّية الآخرين، محافظين على حسّ المسؤوليّة.

تدلّت ساقُها بنفاد صبر؛ لمسَ طرف صندلها ذراعي:

- أنت غاضب؟

- أنا؟ لماذا؟

- أنتَ لا تقول شيئاً.

- أنظر إلى هذه الإضرابات؛ إنّها انتصار حقيقيّ. فكّري لحظة في أنّ المشهد نفسه يجري الآن في كلّ مقاطعة بفرنسا وأنّ الآلاف في المصانع والورشات يعيشون الشّيء نفسه.

تحت أهدابها التي توحي بالعناد، كانت عيناها الزّرقاوان قد مالتا إلى الأسود.

- لِمَ تسخرُ منّي؟

- أنا أسخرُ منكِ؟

- لم أقطع هذه المسافة كي تحدّثني عن الإضراب.

جاست بعينيها في وجهي بجرأة؛ وقفت عند كلّ تجعيد، عند كلّ طيّة؛ لكنّها اشمأزّت من فمي الرّقيق، مرّرَتْ لسانها على شفتيها.

- لِمَاذا لم تردّ على رسائلي؟

- لكنّي، أجبتُ.

- مرّة. كلمة بأربعة أسطر.

- لم يكن هناك ما يُقال أكثر.

نظرت إليّ على نحو شرس كما لو أنّها تشتهي ضربي.

- هل هو سيّئ أن نلتقي شخصاً يمكن أن يكون اللّقاء به نافعاً؟

- وهل هو سيّئ أن ترفضي لقاء شخص لا يقدر على أن يكون نافعاً لكِ؟

كنتُ قد قرّرتُ إحباطها، لم يكن لدَيّ ما يكفي من الوقت لإضاعته معها؛ لكنّي أجدها جذّابة بوجهها الجادّ والمُغتاظ، ودفق الدّم الذي يلهب وجنتيها.

- طبعاً، أكيد، لا فرق لديك إن أنا تعفّنتُ داخل جلدي من دون أن أعرف شيئاً عمّا ينتظرني.

- بالضّرورة لا فرق لديَّ: أنا لا أعرفُكِ.

- لكنّك تعرفني الآن؟

وجّهت إليّ ابتسامة سخيّة.

- اسمعي، قلتُ، أنا أفهمُكِ جيّداً؛ أنتِ في سنّ الضّجر، كلّ المتع تفي بالحاجة. لكن بالنّسبة إليَّ، الأمرُ يختلف؛ ليس لديّ أشياء كثيرة لأقوم بها؛ ليس لديّ الوقتُ أبداً لأهتمَّ بكِ.

- الوقت... أدلت ساقيها بنفاد صبر دائماً: بالإمكان دائماً إيجاد الوقت لو شئنا.

- لنفرض أنّي لا أشاء، قلت.

توقّفت عن الحركة كما لو أنّها أرادت للكلمات أن تنفذ إلى داخلها بيسر، طأطأت رأسها.

- ألا تجدني وديعة؟

كان سؤالها جادّاً إلى حدّ جعلني أرتبك؛ كانت هناك شجاعة تدعو إلى الاحترام في طريقة صدّها لأجوبتي الأشدّ فتكاً. إنّه أوّل ما شدّني إليكِ، نكهة التهوّر التي في نزاهتكِ.

- أنتِ ودودة جدّاً. لكن تعلمين، أنتِ واهمة جدّا في ما تتصوّرين أنّي قادرٌ على فعله لأجلِك؛ ليس لديَّ ما أعلّمُكِ إيّاه. إلّا إذا كنتِ تهتمّين بالعمل النّقابيّ.

هزّت كتفيها:

- أنا أكثر من في وسعِه أن يحكم إن كنتَ تصلُح لي أم لا.

كان من الصّعب الإفلات من كمّاشاتها المثابرة.

- لا، لندع هذا جانباً. لو أنّي عاشرتُ كلّ الذين أجدهم ودودين لما كفتني حياة واحدة.

- تعرفُ الكثيرين؟ أنت محظوظ. تنهّدت: أنا، لا أعرف أحداً.

- هناك بيريي...

ومضَ البريق الأسودُ في عينيها.

- آه! إنّه بسبب پول. اطمئنَّ ليست لديّ نيّة الوقوع في حبِّكَ.

- لم أفكّر في هذا أبداً، قلت.

لم أكن متأكّداً تماماً؛ فقد كان لديها مزاج المُغرَمَة، وطبعاً سيبدو لها رتيباً أن تحبَّ خطيبها.

- فقط، واصلتْ، پول وأنا، منذ سنوات، ونحن نغلي في حساء واحد. تمنّيتُ دائماً أن أسمعَ جرساً آخر.

- أتحبّين القراءة. لا شيء قد يزيل عنك الضّجر مثل كتاب جيّد.

هزّت كتفيها باحتقان.

- أقرأ، طبعا. لكن الأمر يختلف. ضربت ساق المقعد بقدمها: أعتقد أنّك لا تعرف ماذا يعني أن تظلّ في ركنٍ واحد من الصّباح حتّى المساء.

- ثمّة فرق طبعاً، قلت. أنا مطمئنّ لأجلِك. قمتُ بخطوة كما لو أنّي أردتُ الابتعاد عنها: اعذريني، لكن لديّ الكثير من العمل في انتظاري.

- عمل؟ أنتَ في إضراب.

- سبب إضافيّ، أنا أكتُب مقالاً حول الإضراب.

- أرني إيّاه.

- لم أنجزه، ثمّ إنّه لن يهمَّكِ.

- فسِّر لي، قالت. ألستَ شيوعِيّاً؟

- لا.

- ما الفرق؟

- يرى الشّيوعيّون النّاسَ كبيادق فوق رقعة شطرنج؛ القضيّة بالنّسبة إليهم هي الفوز في اللّعبة؛ لا أهمّية للبيادق في ذاتها.

نظرت حولها بانتباه.

- وأنتم، هل ترونَ أنّ لهم أهمّية كبيرة؟ إنّه الأمر الممتع الوحيد في السّياسة: أن تحسَّ بأنّ خيوطاً كثيرة بين يديك وأنّك قادرٌ على تحريكها كما ترغب.

- أنتِ لا تعرفين عَمَّ تتحدّثين، قلت.

كان حادثاً. لن تغادر الحزب لأجل هذا. أنتَ مدينٌ بنفسِك للحزب، صغيري. سنثأر له. قبضتان وعقل: ليس بالأمر العظيم؛ بقي أنّ هناك كمّاً هائلاً من العقول والقبضات. طرقتُ في اللّيل وفتح مارسيل الباب: مات أخوه الوحيد. لأُقتل ولأُدفن تحت التّراب. خطير كشجرة على حافّة الطّريق أو كهذا المُسدّس المحشوّ بالرّصاص، كالحرب، كالطّاعون. خبّئوني؛ احذفوني. لكنّي أعيش. على الأقل، لن أتحرّك، لن أتحرّك مجدّداً أبداً.

- لكن وأنتم تنظّمون الإضراب ألستُم تجذبون الخيوط؟

- نظّموها من دوني، قلت.

بعد انفصالي عن الحزب، لزمتُ البيت سنتين من الخمول؛ ثمّ شيئاً فشيئاً بدأتُ أهتمّ بالحياة النقابيّة. بدا لي هذا النّشاط مشروعاً لأنّه بعيد عن السّياسة؛ إنّ أبعادَهُ إنسانيّة. لم يكن عليَّ أن أختار نيابة عن الآخرين؛ أنا لا أقرّر شيئاً. كلّ فردٍ في النّقابة يتعرّف إلى إرادته من خلال الإرادة الجماعيّة؛ ألّا أمارس سلطة على المجموعة التي أنتمي إليها: أنا أكتفي بكوني الأداة التي بواسطتها أحقّق وجودي؛ في داخلي، تؤلّف أنفاسهم المتداخلة جملة من الأفكار المنسجمة، رغباتهم المُشتّتة تأخذ شكل جسم مادّي، إنّهم يستعيرون منّي صوتي ليعبّروا عالياً؛ هذا كلّ شيء. من خلالي لا شيء غير متوقّع يحدث لحياتهم، لا شيء يندلع من تلقاء نفسه. لكنّي لا أبدي رغبة في أن أشرح كلّ هذا لإيلين. مددتُ لها يدي.

- إلى اللّقاء. انصرفي بتعقّل.

- وإن لم أفعل؟

- لن أفرض عليك ذلك بالقوّة.

جلستُ إلى الرّخام حيثُ نشرتُ أوراقي. تردّدت برهة ثمّ جاءت ناحيتي.

- إلى اللّقاء، إذًا، قالت بصوت متهدّج.

- إلى اللّقاء.

دافعتُ عن نفسي كما يجب، كنتُ فخوراً بحذري الجيّد. أعمى، مرّة أخرى. صددتكِ بوعي، زعمتُ أنّي أصدّكِ: لكن ألم أكن أنا هذا الصّوت، هذا الوجه الذي يجذبكِ؟ رفضي نفسُه يمنحني الجاذبيّة. «لم أفعل شيئاً لأجل ذلك». هزّت مادلين كتفيها. معها حقّ، أنا المسؤول. مسؤول عن عذوبة عينَيَّ وقسوتهما، عن قصّتي، عن حياتي، عماّ أكونُه. كنتُ هناك، أمامك؛ ولأنّي كنتُ هناك، التقيتِني، بلا سبب، فوق مشيئتك: كان متاحاً أمامكِ أن تقتربي أو أن تهربي، إنّما لا يمكنكِ أن تمنعي وجودي أمامك. كنتُ الشّرط العبثيّ الذي يثقِل كاهلَكِ. اعتقدتُ أنّي كنتُ أصنعُ بحياتي ما أقرّره لها، كنتُ أشعرُ بأنّي حرّ ولستُ مطالباً بتبرير شيء لأيّ أحد. كنتُ إلى الأبد تلكَ الكارثة في نظر الآخرين. لكنّي لا أعرف. ظننتُ أنّه يكفي قولُ «لا». لا، لن أراكِ مُجدّداً. لا، لن أورّط رفاقي في معركة سياسيّة. لا، لن نطالب بتدخّل.

- مع ذلك، صحيح ما آخذوك عليه، قال مارسيل. ألاّ تنخرط في العمل السّياسي بحدّ ذاته عملٌ سياسيّ.

- يمكنك أن تتكلّم، قالت دينيس، أنت الذي لم تُصوّت حتّى.

وزّعتُ القهوة في الورشة الخالية. في طقسِ إخفاءٍ، واحترازا من أيّ عمليّة حجز، كنّا اللّيلة السّابقة قد نزعنا الأثاث النّفيس، المفروشات، واللّوحات النّادرة التي كانت لا تزال في حوزة مارسيل.

- أعلمُ أنّه عبثيّ أكثر من التّصويت، لكن على الأقلّ هذا أقلّ إزعاجاً.

- بالنّسبة إليّ، ذاك التحفّظ لا يتعدّى مجرّد سفسطائيّة، قلت؛ عليهم أوّلاً أن يبرهنوا لي سُمُوَّ السّياسة، أنّ الإنسانَ حقّاً حيوان سياسيّ، وأنّ موقفه سياسيّ، مهما فكّر. أنا أنفي هذا. السّياسة هي فنّ إخضاع النّاس من الخارج؛ يوم تتنظّم البشريّة من الدّاخل لن تكون في حاجة إلى السّياسة.

– أنت تتحدّث جيّداً، قال مارسيل. أهو خطاب بعد قليل، وأنتَ الآن تجرّبه علينا؟

أنا أسلّيه، أظن، أكثر من أيّ كائن على وجه الأرض. الادّعاء ليس هو النّزول إلى مرتبة العبث الكونيّ، إنّها قمّة العبث، التي لم يصادفها عند أحد. الأمان الذي كانت دينيس ترمي به نفسها في كلّ الكمائن، بدا له كوميديّاً بشكل أقلّ من جهودي لأتجنّبها. بالنّسبة إليه، كان يقبل بلا مبالاة توريط الذّات في الدّبق الإنسانيّ: القضيّة كانت خلاف ذلك.

ابتسمت له من دون ضغينة. لم أشعر بأنّي سعيد منذ ثمانية سنوات كما هو الحال آنذاك. في الوهج الأحمر لـ 14 يوليو، كان مجدي الخاصّ ما أُحيّي: انتصار حياتي، وأفكاري.

– ألا ترغبين في القيام بجولة حتّى «الباستي»[6] La Bastille؟

– تحت سماءٍ كهذه؟ أشارت عيناها إلى السّماء المتألّقة: لا. سأنام قليلاً.

لم يكن يعيش سوى باللّيل. كان ينام القسم الأكبر من النّهار.

– وأنتِ؟ قلتُ لدينيس. أتأتين؟

نظرت بعينين كئيبتين إلى الباب من حيثُ اختفى مارسيل للتوّ.

– ليس لديّ رغبة كبيرة. أدارت عينيها ناحيتي: بمجرّد أن أتذكّر أنّه كان في إمكاننا أن نكون سعداء..

– لن تُغيّري مارسيل، قلت. يجب أن تتعاملي معه كما هو.

– أحاولُ، قالت، لكنّه لا يبرأ أبداً. إنّه يتعمّد...

حاولت السّيطرة على صوتها وقد ارتعشت ببكاء مرّ.

– أنا متأكّدة من أنّه يوغل في طريق مسدود؛ لن يخرج أبداً.

6– الباستي La Bastille: ساحة في باريس لها رمزيّة ثورية لاحتلالها مكان حصن الباستي الذي تمّ تدميره في 14يوليو 1790.

توقّف مارسيل منذ سنوات عن رسم لوحات تعيش على نظرات مجاملة من قِبَل غرباء. كان يريد أن يبدع حقيقة. نحت الخشب، شكّل الطّين، حتّى أنّه اشتغل على الرّخام؛ كان يُمررُ يده بإعجاب على المادّة القاسية وكان يصنع منها أشكالاً ناطقة؛ كانت تقف من دون مساعدة، كان في الإمكان أن ندور حولها، لم يكن فيها ما يُلامُ على كرسيّ أو طاولة، بل كان يتأمّل أعمالَهُ بغموض. الرّخام موجود، تلك الصّخرةُ الثّقيلة العارية. «إنّما الوجه، أين الوجه؟» قال مارسيل بغضب. أشار بإصبعه ناحيتي. «إنّه في عينيك، وليس في مكان آخر».

ذات صباح، شَحَنَ لوحاته في عربة مجرورة، وجرّها إلى مخزن «برسي»: قَلَبَ العربة في « السين». بكت دينيس على مدى أيّام.

– معه، ما إن نحجم عن أمر ما، قالت، فسرعان ما نقف على حقيقة أنّنا سنحجم عن أمر آخر. متى ينتهي هذا؟

كان وجهها أجعَدَ تحت شعرها اللّامع: امتلأت عيناها بفقدان الثّقة. كانت ترتدي فستاناً أنيقاً، لكنّه مهترئ من المرافق وضيّق من جهة الخصر بحزام رخيص.

– ربّما حان الوقت لتعيشي لحسابِك الخاصّ، قلت، لا أن تظلّي مُعلّقة بواقع مارسيل.

– ماذا تريدني أن أفعل؟ لستُ عبقريّة في شيء.

– لسنا مُضطرّين لأن نكون عباقرة.

رمقتني بنظرة تشكّك؛ كانت تميل إلى القيم الثّابتة.

– تُفزِعني الرّداءة. لفّت حول نفسِها وخطت نحو الطّاولة: أتجد هذا بديعاً، أنت؟ قالت وهي تشيرُ إلى تلّ صُنِع بالأصداف والحصى المُجمّع. يقضّي مارسيل وقته، في الوقت الحاليّ، في إنجاز هذه التّحف، يضفر الخيوط، والقشّ، يدهن النّوافذ، يصنعُ من الخزف صوراً رديئة الألوان. كانت تلك الأشياء ترضيه لأنّه لم يكن ممكناً –حتّى بمجرّد التّفكير – أن تُفصل عن دلالاتها الغامضة ووجودها لحماً وعظماً.

- لم يكن مارسيل يزعُمُ أنّها أشياء جميلة، قلت.

هزّت كتفيها.

- فاشلاً كبيراً، هذا ما يحبّ أن يجعل من نفسِه.

كان من الصّعب إقناعها بأنّ النّجاح، المجد، لا يحتملان كلّ هذا النّدم الحارِق. «إذًا، ما المُهمّ؟» قالت. لم أكن قادراً على إجابتها. أعرف المهمَّ بالنّسبة إليَّ؛ والمُهمَّ في نظر مارسيل. لكنّنا أبداً لم نتقاطع، في أيّ سماء، هذه التّدابير المضبوطة، النّهائيّة، التي كانت دينيس تنادي بها.

- امنحيه ثقتك، قلت.

- ألم أكن صبورة؟ قالت.

نظرت إليها بإشفاق. كانت جديرة بالاحترام. لقد قبلت الفقر من دون تذمّر، لم تكن توجّه التقريع لمارسيل أبداً، كانت دائماً تحاول فهم ما تُسمّيه «عقدتها الخاصّة». كانت عادلة، ذكيّة، شجاعة. لكنّ خزياً خفيّاً واحداً كان قادراً على أن يجعل من فضائلها هباءً.

لمستُ ذراعها.

- لا ينبغي أن تظلّي هنا، قلت. تعالَيْ معي.

- أخشى أن يكون هذا مُتعِبا جدّاً.

ابتسمت لي بمرارة؛ كانت تخشى فقدان تكتّمها. لم أُلِحَّ. لم أفلح في إيقاظ عاطفة إزاءها. أعتب على نفسي في ذلك، أحياناً.

- لا عليك، كانت مادلين تقول لي. إنّها هموم بورجوازيين، إنّه بؤس الرّفاهة.

لم تكن مادلين تفهم معنى أن يشكوَ المرء مصيره، ولا أن ينتشيَ به؛ ولا أن نعيش من دون خشية شيء ما، ولا من دون أمل ما.

- ماذا يعتقدون إذًا؟ قالت وهي تشير لي إلى سيل أسوَدَ وأحمَرَ يتقدّمُ بين الأرصفة.

كانت تسير بمحاذاتي وهي تعرُج. كانت أحذيتها تؤلمها دائما، لأنّها

كانت تقتنيها مصادفة كلّما سنحت الفرصة، أو في شكل مبادلة، مقابل خدمة أدّتها.

- إنّهم يعتقدون أنّ الغد سيكون أفضل من اليوم، قلت.

أعتقد ذلك أيضاً. وعود كثيرة بصدد التحقّق من خلال التردّد الذي يرافق البدايات عادَة!

- پيف! مهما فعلوا، لن تساوي الدّنيا الشّيء الكثير.

لم أردَّ؛ لم أكن أناقش مادلين؛ كنت كلّما قدّمت لها أدلّة دامغة، ارتابت في وجود مكيدة في الكلام. ثمّ من الطّبيعيّ ألاّ تُساويَ حياتُها الشّيء الكثير ما دامت تعرضها بثمن بخس؛ لم يكن جسمُها يساوي الكثير، كانت تمنحه بلا مبالاة لمن يعبثُ به؛ لم يكن لوقتها قيمة، كانت تقضّيه، خصوصاً، في النّوم والتّدخين، عيناها سابحتان في الفراغ؛ لم يكن الذّكاءُ لينقُصَها لو أنّها لم تقدّر بأنّ أفكارها لا قيمة لها: كان من النّادر أن تتوقّف. لم تكن متعها، اهتماماتها، قلقها، أحاسيسها تساوي شيئاً في نظرها كما أنّه لا أحد كان في وسعه أن يجعل ذلك ممكناً في نظرها؛ لا أحد، عداها، كان في وِسعِه أن يقنعها بأنّ وجودها له قيمة. لكن بالنّسبة إلى هؤلاء الرّجال الذين يمرّون منشدين الأغاني، كانت صفة إنسان مؤسّسةً عظيمة. غداً، سيُصبح للحياة معنى، إنّ لها واحداً، منذ الآن، بفضل قوّة أملهم.

- تأتين معي أو تنتظرينني في حانة؟

- ذاهب للحديث مرّة أخرى؟ قالت.

- نعم. وعدتُ الرّفاق بخطاب.

راح «غوتيي» يخطب وسط السّاحة وقد أراح جسمه على مصطبة. كانت هناك هالة صمت حوله، لكنّنا كنّا بعيدين جدّاً، كان صوتُه ضائعاً وسط جلبة الحشود.

- ماذا يحكي؟ قالت مادلين.

- لا أدري.

- وأنت، ماذا ستقول؟

- تعالَيْ وستعرفين.

- لا، قالت، سأنتظركَ هنا.

استندت إلى شجرة ونزعت حذاءها، كاشفة عن جوربها المليء بالثّقوب والبقع الورديّة اللّون: كانت تصبغُ الثّقوب بطلاء الأظفار كي توقف تماديها في الاتّساع.

- أخشى أن يطول انتظارُكِ، قلت.

- لا فرق عندي.

مرّ فوجٌ من الأطفال من أمامنا، مرتدين مناديل معقودة حول العنق و«بيريه» حمراء على الرّأس؛ ثمّ كانت هناك نساء يهتفن على إيقاع الفوانيس: «لا روك على العمود». كانت الأعلام تخفق فوق رؤوسنا: كانت الأقمشة ثلاثيّة الألوان تمتزج مع الرّايات الحمراء؛ وفي جميع مفترقات باريس استوت الرّايات بين الأشجار: 1936.[7] 14 يوليو 1936. كنّا نحمل الجبهة عالياً! طبعاً، لم ننتصر بعد، مازال أمامنا الكثير للقيام به، لكن للمرّة الأولى بعيداً عن التّنافر الحزبيّ، عرفنا كيف نُوحّد قوانا وآمالنا. ألم يكن ذلك بالأمس؟ شقّ الحشود. كانت لديه رغبة جامحة في أن يصرخ عالياً بالفرحة التي تملأ قلبه: فرحته، فرحتهم.

«أيّها الرّفاق». تحدّث. كانت كلماته من ابتكاره، وهم، لم يكونوا يسمعونها بآذانهم بل بجوارحهم. كان يتكلّم لأجل نفسه وكانوا يهتفون: كان يتكلّم لأجلهم. كان يحدّثهم عن الإرادة العظيمة التي وُلِدَت للتوّ في فرنسا، والتي ستشعّ عبر العالم؛ وعدَهم بأنّهم سيفرضون على الأرض نمطهم في السّلام. لأنّه لأجلنا، لأجلنا نحنُ الرّفاق النقابيّين، أنّ هذا اليوم هو يوم الانتصار؛ لم تكن النّتائج التي تحصّلنا عليها سوى البداية:

7- 14 يوليو 1936: عيد الجمهوريّة الفرنسيّة.

لكن ما أحدث اعتزازنا، ما منحنا الأمل، هو أنّنا تحصّلنا عليها من خلال إضراب مهنيّ بحت. تحدّث، ولم تكن كلماته لا صلواتٍ، ولا أوامر: أنشودة، أنشودةَ احتفال. كان الكلّ يغنّي في كورال واحد. *كما لو أنّ أحداً منّا لم يحتَلّ مكاناً على الأرض: كما لو أنّ أحداً لم يكن عثرة في طريق الآخرين، كلّ واحد لا يمثّل إلّا نفسَه، جنباً إلى جنب مع الآخرين، منفصلاً عنهم إلى الأبد: آخرون* غنّوا سحرَ الحرّية، قوّة الأخوّة ومجد السّيادة التي يمنحها أن تكون إنساناً. قريباً، ستصيرُ الحرب، والعنف، والعشوائيّة، مستحيلة؛ حتّى السّياسة ستصيرُ عديمة الفائدة، لأنّه لن يكون هناك انقسامٌ في الإنسانيّة، ستكون هناك إنسانيّة واحدة. كان هذا هو الأمل الذي يلوحُ له في المُستَقبل: الأمان لكلّ النّاسِ من خلال التعرّف على حقّهم في الحرّية.

– ستمدّني بورقتك، قال «غوتيي» أريد أن أنشر خطابَك في: *الحياة النقابيّة*.

– لقد تحدّثت بشكل رائع جدّاً، قال لورون.

وضع بلومار يده على كتِفه:

– إنّه صديق من الورشة.

– أنت أيضاً تحدّثت بشكل رائع، قال لورون لـ «غوتيي». أنت من يكتبُ في *الحياة النقابيّة*؟

– هو من يُديرُها، قال بلومار.

ابتسم. كان سعيداً. كانت الأعلام ترفرف والحشود تُغنّي؛ وكان أصدقاء الورشة يربّتون على كتفه، رفاق النّقابة، الذين صمتوا، والذين تكلّموا، من كانوا مهمّين في الحركة، والذين لم يكونوا شيئاً، وتصافحت أيديهم. إنّه احتفالنا. انتصارُنا. تذكّر حشداً آخر في شريط طفولته، والرّائحة القديمة للنّدم. لقد انتهى كلُّ شيء. من دون النّدم، لم يكن يستنشق سوى رائحة الحبر والغبار، رائحة العرق، رائحة العمل؛

من دون النّدم كان يسير بمحاذاة الجدران العارية، وكان يشاهد أبراج الغاز ومداخن المصانع، إذ بعيداً عن التّعب والأفق الرّماديّ، عرف الرّجالُ كيف يفرضون إرادتهم وحياتهم لم تكن نبتة صمّاء: لقد اختاروا لأنفسهم المصير الذي يرتضونه؛ كان يخاطبهم بانتماء وفخر، قائلاً في نفسه: أنا منهم.

- جعلتُكِ تنتظرين طويلاً؛ شعرتِ بالضّجر؟

- لا، قالت مادلين. رأيتُك تتحرّك هناك.

ظلّت واقفة، متّكئة على جذع شجرة. أخذتُ ذراعَها. في تلكَ اللّحظة، برزتِ أمامي؛ كنتِ تتأبّطين پول من ذراعه؛ شارةٌ كانت تومِضُ فوق ميدعتك البيضاء؛ وكان خدّاكِ يتألّقانِ حيويّة.

- بحثنا عنكَ في كلِّ مكانٍ، قال پول.

ألقيتِ عليه نظرة احتقان، ثمّ نظرتِ إلى مادلين التي كانت تحاولُ إدخالَ قدمها في الحذاء. قمتُ بالتّقديم.

- سمعنا خطابَك، قال پول بصوتٍ ساخر.

- آه! كنتُما هنا؟

- نعم. هزّ كتفيه: كما لو أنّ فرنسا في وسعِها أن تفصل مصيرها عن مصر العالم!

أردتُ أن أجيب، لكنّكِ قاطعتِني بنفاد صبر.

- لن نظلّ مُتسمّرين هنا ساعة كاملة.

- الوقوف مُتعِب، قالت مادلين.

رمقتِها من فوق بازدراء.

- آه! لستُ متعبَة.

تابعنا السّيل البشريّ الأسوَد الذي تدفّق بفوضى بين المنازل المُحتفلة؛ كانت الأرض مُغطّاة بالأوراق: أعلام، شعارات، مناشير؛

جلسنا في مفترق، مكوّنين حلقة شعبيّة؛ وضع النّادلُ أمامنا ثلاث شطائر وكوكتيل رمّان: كانت إيلين تعشق المشروبات ذات الألوان السّاخنة.

- يعتقد هؤلاء البلهاء أنّ في استطاعتهم تشييد عشّ مرفّه في قلب أوروبا، قال پول. مذعورون، ومحاصرون بخط ماجينو[8] من الشّمال والپيريني من الجنوب. في الأثناء، الفاشيّة تطرق بابنا. المُصيبة أنّهم يعلمون أنّه ليس في وسعِنا الانغلاق على المستوى الوطنيّ.

- من دون شكّ، قلت. لكن علينا أوّلاً أن نفوز بجولة الوطنيّ.

ساد صمت. كانت مادلين تستمع إلى الأكورديون مبتسمة. كانت إيلين تؤرجح ساقيها كتلميذة متعجّلة. لم يعد لي رغبة في الاستمرار في النّقاش. كنتُ على علم بأنّ فرنسا ليست وحيدة في العالم. أنا أيضاً، لم أكن وحيداً؛ لقد نجحتُ في تكوين حياة من حولي من دون مساومة، من دون امتياز، حياة لا تدين لأحد بشيء، ولا يمكنها أن تكون مصدر شرٍّ لأحد. ابتسمتُ لمادلين. كان على وجهها مسحة استرخاء. لم أكن، من دون شكٍّ، أمنحها الكثير منّي، لكنّها لم تكن تطلب المزيد، لم تكن تعرف كيف تفعل. لم تكن قادرة على العيش سوى في الهامش وأجملُ أوقاتها هي تلك التي كانت تقضيها معي. لم أكن أشعر بأنّي مسؤول عن أحد غيري، مسؤوليّة أتجشّمها في سلام: كنتُ ما أرغب في أن أكونه، لم تكن حياتي تمتاز بشيء عن الهدف الذي كنتُ أدعو إليه. في ذلك الوقتِ، كنتِ تتأمّلين هذا الوجه الذي لم أخترهُ لنفسي.

- طبعا، أنت لا تجيد الرّقص؟

- عرفتُ هذا من قبلُ وأخشى أنّي نسيتُه.

- عليك أن تحاول، قالت مادلين.

تفحّصت إيلين من دون عدائيّة ومن دون تعاطف، مرّة واحدة وأخيرة، كي تنتشلها من تفكيرها.

8- خطّ ماجينو: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى اعتمدت فرنسا استراتيجية دفاعية سلبية بإنشاء «خط ماجينو» الذي يُعد نموذجاً للتحصينات الدفاعية الثابتة.

- لنحاول، قلت.

عانقتُ إيلين؛ كنتُ قد نسيتُ كلَّ شيء، لم يكن عليَّ سوى أن أنساق، كانت تجيد الرّقص لاثنين.

- من هذا الشّخصُ الذي معكَ، قالت.

- صديقة، قلت.

- مهتمّة بقصصك النّقابيّة؟

- مؤكّد لا؛ إنّها تضجرها ليس أقلّ منكِ على الأقلّ.

- ماذا تفعَل؟

- لا شيء على الإطلاق.

- لا شيء؟ رمقتني بتلك النّظرة التي تطلب بها المبرّرات: لِمَ تخرُجُ معها.

- لأنّي أحبّها.

- وهي؟

- تحبّني أيضاً، قلتُ بجفاف.

خيّم صمتٌ بيننا.

- عجيب أن أراكَ على المصطبة، قالت.

ابتسمت.

- لابدّ أنّي سبّبتُ لك السّأم.

نظرت إليّ بجدّية.

- لا، بل حاولتُ أن أفهم. لفت انتباهي ما كنتَ تقولُه عن الحرّية.

- من يدري؟ قلت. ربّما هي بداية. ربّما بدأتِ تنشغلين بالقضايا الاجتماعيّة.

- مُستَبعَد.

نظرت حولها:

من الطّبيعيّ أن نشعر بالقوّة حين يأخذنا سيلُ الحشود؛ نمشي ونغنّي

مع البقيّة. لكن ما إن نتوقّف، يبدو لي أنّنا نصيرُ مُنفّرين كحالنا بعد سُكرٍ شديد.

– مؤكّد، قلت. لكنّ العمل النقابيّ أو السّياسي لا صلةَ له بهذه المظاهرات.

فكّرت:

– ما أعجبني في خطابك هو أنّك تعتقد أنّ النّاس موجودون كلّ على حدة، كلّ لأجل نفسه، وأنّ الكتلة ليست أمرا ضروريّاً.

– الكُتل هي مجموعة أناسٍ كلّ منهم على حدة؛ ليس العدد هو ما يعني.

– آه! أتعتقد ذلك حقّاً؟ قالت. تألّق وجهها: اعتبر پول دائماً أنّنا نملة في غار نمل. بالتّالي فإنّ كلّ ما نفعله ونفكّر فيه ونشعر به لا قيمة كبيرة له! وأنّه لا فائدة من أن نعيش.

رقصت برأسٍ ملقى إلى الخلف قليلا، كان شعرها يطفو بحرّية حول وجهها النّحيف؛ كان يلمع في الشّمس، وكانت ميدعتها تتوهّج في ضوء النّهار؛ لكن لا شعرُها الطّفولي ولا زرقة عينيها ما يمنحها إشراقها، إنّما كان حماس الحياة الذي يلقي بها في المُستقبل. حطّت نظراتها على جبيني، على السّماء، كانت تفتّش في الأفق كأنّها تتوق إلى انتزاع وعود مستقبليّة منه، كانت ساقاها تتحرّكان باندفاع متواصل؛ كان العالم في نظركِ فسيحاً، كان فريسة رائعة. لم يعد هناك مستقبل، كما أنّ العالم مُحِي. كانت عيناكِ مُغمَضتين، والصّور تتلاحق في الرّأس المليء بالطّنين، كذاك الدّم الذي يسيل من قلبك إلى قلبِك؛ حتّى حين ترتفع أهدابُك، كانت الأشياء هنا، حقيقيّة وخاملة كما في الحُلم، ولم يكن بالإمكان تمييزها عنكِ؛ فقد العالم سُمكَه، إنّه يغيب في داخلك؛ إنّه يتقلّص حتّى لم يعد أكثر من بريق آخذ في الفتور، بريق في طريقه إلى أن ينطفئ؛ تراجع المُستقبل ليلتحق باللّحظة المتوقّفة؛ قريباً لن يعود هناك سوى حاضر متّحد مع نفسِه؛ لن يعود هناك وقت، لن يعود هناك عالم، لن يعود هناك أحد. كنتِ ترقصين ملاصقة لي، ونسَجت بعدَ ذلك الرّابط

الذي يسمّرني إلى احتضارك؛ لقد دخلتُ حياتَكِ رغماً عنّي كي ألبث يوماً ما، رغماً عنّي، وحيداً على باب موتِك.

توقّفت الموسيقى. ألقت إيلين نظرة أسف على المصطبة الخرساء: «خسارة! كم وددتُ لو أنّي استمررتُ في الكلام!»

- سنرقُصُ ثانية، بعد قليل.

هزّت كتفيها بهيجان.

- ما فائدة هذا إن كان لابدّ من المقاطعة في كلّ مرّة.

كان في صوتها ما يشبه الإغواء المُلِحّ؛ لكنّي تظاهرتُ بالصّمم. عدنا إلى أماكننا. كانت مادلين تتحدّث إلى بيربي؛ كانت منسجمة معه، وكانت تبتسم إليه. أحببتُ تلك الابتسامات التي لا يبدو أنّها استسلمت إليها من قبل؛ كان من الممكن أن تحظى بجاذبيّة أكبر لو أنّها فسحت المجال لوجهها كي يُشرق؛ رغم جسمها المنغلق على نفسِه، كان هناك ما يثير الإعجاب في حركاتها البطيئة، في بدنها المسترخي ونظرتها الشّاردة.

سحبت إيلين بالماصّة قطرات المشروب الورديّ العالقة على جانب الكأس.

- أريد آخر، قالت.

أرجحت ساقيها ثانية على نفس النّحو الوقح والضّجِر.

- قرّرنا الغداء نحنُ الأربعة معاً، قالت مادلين. هل يلائمك؟

- طبعاً، يلائمني. أين نذهب؟

لم يكن سؤالاً يُرَدُّ عليه باستهانة. فقد كانت مادلين حسّاسة؛ ثمّة أماكن كانت تشعُر فيها بأنّها منزوعة الأسلحة، كحيوان مُطارَد، وأخرى رحيمة أكثر حيثُ كان في مستطاعها أن تنسى لفترة خوفها من العالم. شرعنا في النّقاش. صمتت إيلين بشكل ملحوظ. أُحضِرَ إليها كوكتيل رمّانٍ ثانٍ وراحت فوراً تنفخ، عبر الماصّة، فقاقيع هواء داخل السّائل الورديّ. فجأة، وقفت:

- وعدتَني بأن نرقُص ثانية. نهضتُ فوراً ورقصنا برهة بصمت؛ غمغمت فجأة:

- أوه! أشعر بصداع شديد!

توقّفتُ:

- أترغبين في الجلوس؟

- لطفاً، أحضِر لي حبّة مُسكّن.

- حالاً.

رحتُ ركضاً؛ كانت الصّيدليّة الأولى التي صادفتها مُغلَقَة؛ اضطُرِرتُ للذّهاب إلى فندق المدينة؛ كنتُ سعيداً بتقديم خدمة لإيلين؛ مؤكّد أنّي كنتُ سأتمنّى فعل شيء لأجلها لو لم أشعر بأنّ أيّ حركة صغيرة من جهتي قد تعرّضها إلى الخطر.

وضعتُ ثلاث حبّات مُسكّن على الطّاولة؛ كانت إيلين جالسة أمام الكؤوس الأربع الفارغة.

- أين البقيّة؟

- تقدّموا إلى الأمام ليحجزوا طاولة. يقولون إنّ علينا الإسراع وإلّا لن يعود في الإمكان إيجاد أيّ مكان.

- أين ذهبوا؟

- عند «ديموري»، شارع «بروكا».

- هناك! قلت. حسناً! لنلحَقَ بهم.

ألا تتناولين المُسكّن؟

تردّدت:

- لستُ أتألّم كثيراً. أحبّذ الانتظار قليلاً.

- مشينا بمرح عبر الشّوارع حيثُ حرارة النّهار أخذت تفتُر وتصبح ألطف. لا يزعجني هذا اللّقاء العفويّ على انفراد، بالعكس.

حاولتُ الإجابة على أسئلتها بأفضل ما لديَّ؛ أمطرتني بوابل من الأسئلة: حتّى أنّي شككتُ في أنّها تعتقد بأنّي الربّ الأب.

- إجمالاً، قالت، لِمَ الحياة؟

دخلنا إلى «ديموري»؛ تقدّمتُ إلى عمق الصّالة. لم تكن مادلين هناك، ولا پول أيضاً.

- أأنتِ متأكّدة من أنّ الموعد كان هنا؟

- نعم، قالت إيلين.

- لا تبدين واثقة تماماً...

- أنا متأكّدة تماماً، قالت. اتّجهت نحو طاولة: ليس علينا سوى الجلوس والانتظار.

- نعم، قلت، لن يتأخّروا، من دون شكّ.

أسندت إيلين ذقنها إلى راحة يدها.

- فسِّر لي، تابعت. لِمَ الحياة؟

- لستُ حامل إنجيل، قلتُ بقليل من الضيق.

- أخيراً، لعلّك تعرف، على الأقلّ، لماذا تعيش. باعدت بين أصابعها كمروحة وتفحّصتها باهتمام: أمّا أنا فلا أعرف.

- لابدّ أنّ لديكِ أشياء تحبّينها، أشياء ترغبين...

ابتسمت:

- أحبّ الشّوكولاتة والدرّاجات الجميلة.

- أفضل من لا شيء.

تأمّلت أصابعها من جديد؛ وبدا عليها الحزنُ فجأة.

- حين كنتُ صغيرة، كنتُ أومن بالله، كان ذلك رائعاً؛ كان هناك ما هو مطلوب منّي في كلّ لحظة؛ آنذاك كنتُ على يقين أنّه يجب أن أوجَد. كانت ضرورة.

ابتسمتُ إليها بحنُوّ.

- أظنُّ أنّ خطأكِ هو اعتقادكِ بأنّ دواعي وجودِكِ يجب أن تنزل عليكِ من السّماء جاهزة: نحنُ من عليه أن يخلُقَها!

- لكن، إذا علمنا أنّنا نحن الذين أوجدناها لأنفسنا، سنكفّ عن تصديقها فوراً. لن تكون سوى طريقة لخداع أنفسنا.

- لماذا؟ نحنُ لا نخلُق كما اتّفق، من العدم؛ نخلُق بقوّة الحبّ، من خلال رغبة؛ عندها سينتصب ما خلقناه أمام أعيننا صلباً وحقيقيّاً.

ونحن نتحدّث كنتُ أراقب الباب. كنتُ قد بدأتُ أقلق. بدت لي الحكاية برمّتها مبهمة. لِمَاذا لم ينتظروا عشر دقائق؟ كان من المستحيل أن تتمكّن نوبات الجنون المفاجئة من مادلين.

- غريب أنّهم لم يصلوا بعد، قلت. أتساءل ما إذا كنتِ قد أفسدتِ كلّ شيء.

- لا، قالت بنفاد صبر. لابدّ أنّهم قرّروا القيام بجولة قبل المجيء، هذا كلّ شيء. حدّقت في عينيَّ من جديد: كيف ننتزع من أنفسنا دواعِيَ جيّدة للحياة؟ قالت، بما أنّنا نموت.

- هذا لا يُغيّرُ شيئاً.

- بالنّسبة إليَّ، أرى أنّ هذا يغيّر الكثير، قالت. تفحّصتني بفضول: ألا تفرق في شيء لديك فكرة ألاّ تكون موجوداً يوماً ما، ألاّ يكون هناك حتّى من يفكّر فيك؟

- إن استطعتُ العيش كما أرغب، فماذا يهمّني؟

- لكن على الحياة أن تشبه الارتقاء إذا أرادت أن تكون مهمّة: نتخطّى عتبة، ثمّ أخرى، ثمّ أخرى، وكلّ منها وُضعت لأجل التّالية. هزّت كتفيها: حتّى إذا وصلنا إلى القمّة انهار كلّ شيء... سيبدو أنّ كلّ ذلك كان مبنيّاً على العبث منذ البداية. ألا ترى معي؟

- لا، قلتُ بشرود.

لم أكن في الحوار؛ كنتُ أشعرُ، فعلاً، بأنّي مشغول.

– اسمعي، قلت، سآخذ تاكسي وأقوم بجولة على المطاعم التي تحدّثنا عنها. أنتِ، تظلّين هنا. لو جاؤوا، قولي لهم إنّي سأكون هنا خلال ربع ساعة.

رمقتني بمكر.

– نحنُ أفضلُ من دونهم.

– أنا متأكّد من أنّك تضلّلينني.

لابدّ أنّهم ينتظروننا في مكان آخر.

– دعهم ينتظرون، قالت منزعجة.

نهضت.

– أنتِ لا تفكّرين في الأمر.

– أفكّر فيه جيّداً.

– حسناً! أنا لا.

– حسناً. ألقت عليّ نظرة انتصار: على أيّ حال لم يعد من المجدي البحث عنهم. لن تجدهم.

– لماذا؟

مرّرت لسانها على شفتيها.

– أرسلتُهم إلى الجانب الآخر من باريس.

نظرتُ إليها من دون أن أستوعِبَ تماماً.

– قلتُ لهم إنّكَ اضطررتَ للذّهاب إلى موعد مستعجل وأنّ عليهم الذّهاب إلى المطعم لحجز أماكن وأنّنا سنلحقُ بهم.

– أيَّ مطعَم؟

نظرت حولها بخبث:

– واحد آخر تماماً.

كنتُ مُستاءً؛ كثيرون هم من يتعاملون مع مادلين بإهمال، وكرهتُ أن أكون من بينهم. كنتُ حريصاً دائماً على ألاّ أُقلّل من شأنها.

- لِمَ قمتِ بهذه الحماقة؟

- أردتُ التحدّث معك.

حسناً! ها قد تحدّثنا. قولي أين ينتظروننا ولنلتحق بهم فوراً.

مانعت بحركة من رأسِها.

- لن أقول لك.

- أمرٌ لا يُصَدّق فعلاً، قلت. أتعتقدين أنّ في إمكانكِ إجباري على التحدّث معك بالقوّة!

زمّت شفتيها من دون ردّ. وقفتُ.

- إن لم تخبريني، عدتُ إلى البيت.

تصلّبت قسماتُ وجهها.

- عُد إلى بيتِك.

- أفسدتِ أمسية كان من الممكن أن نستمتع خلالها.

- لنتحدّث عنها! هزّت كتفيها باحتقان:

كانت إلى حدّ الآن مملّة جدّاً.

- ولكي تخرجي نفسك من الملل لم تتردّدي في تسميم ثلاثة آخرين؟ أنتِ أنانيّة قذرة!

صعد الدّم إلى وجهها.

- يُسلّيني أن أفسد أوقاتك قليلاً. أنت قاسٍ جدّاً معي.

- لستُ قاسياً، لا أريد التورّط في قصّة معكِ.

دفعتُ باب المقهى وغادرتُ بخطوات واسعة نحو محطّة الأوتوبيس خاصّتي؛ أخذت تقفز إلى جانبي.

- لأجل تلك المرأة البائسة؟

كانت تختنق غيرة بطيش يجعلني أضحكُ في سرّي. لم أرَ في حياتي امرأة تجهل حِيَلَ النّساء.

- لا دخلَ لمادلين بهذا.

كان ذلك صحيحاً؛ لم يكن ثمّة بيننا التزام من أيّ نوع؛ خلال فترات كنّا نلتقي كلّ يوم، ثمّ أحيانا تختفي مادلين لأسابيع فلا أراها؛ كانت بصدقٍ تُبوح لي بانتكاساتها العاطفيّة. لو كان لديّ مغامرات، لو كنتُ على علاقة بامرأة لكنتُ حدّثتها عنها من دون حرج.

- أنا أعفيكِ من مرافقتي، قلت.

وسّعتُ خطواتي. كان التصرّف الأسهلُ هو أن أروي لمادلين ما حدث؛ كان من السّهل جرحها بأشياء بسيطة، لكن لو أُتيح لإمكانيّاتها المجال، لصارت قادرة على تقبّل أيّ شيء.

أفضى بي المسير إلى ساحة «غوبلان»؛ كانت شرفات المقاهي تعجّ بالنّاس حتّى قارعة الطّريق؛ كانت الفوانيس مضاءة، والمصابيحُ اليابانيّة تتأرجح تحت الأشجار. سمعتُ صوتاً مقطوع النّفسِ خلفي.

- انتظرني.

استَدَرْت. اقتربتِ منّي ونظرتِ إليّ بإلحاح غريب هُيّئ لي معه أنّك تعيدين تصويري: لم أعد أعرف جيّداً ماذا كنتِ ترين من خلالي. استعدتِ أنفاسكِ.

- سأقول لك أين هم: لقد أرسلتهم إلى «پور سالو» Port-Salut.

- ليس بعيداً، قلت. تعالَيْ بسرعة؛ لن نكون متأخّرين.

- ليست لديّ رغبة في المجيء.

مددتِ لي يدكِ وقلتِ بأنفٍ مُنكّس:

«إلى اللّقاء، اعذُرني». وأحسستُ في ذراعي رغبة جامحة لسحبِك ناحيتي، لضمِّكِ إلى قلبي؛ بين ذراعَيَّ، بدت حركة سهلة: متاحة وسهلة، سهلة الإهمال، حركة شفّافة مساوية لنفسها. لكنّي لاحظتُ الذّراعين الملتصقين بجسمي. حركة، ومات جاك. حركة واحدة، وحدث شيء جديد في هذا العالم، شيءٌ أوجَدتُه لكنّه نما خارجي، من دوني، مخلّفاً في أثرِه انهياراً غيرَ متوقّع. «ضمّني بين ذراعيْه». أحسستُ بوجهي يهربُ

منّي تحت نظراتِك؛ ما الذي كان سيتحوّل إليه، في قلبِكِ، الحدث المظلم الذي كنتُ سأكلّف به ماضيكِ؟ صافحتُ يدكِ بلامبالاة؛ تركتُكِ تذهبين عبر طرقات الاحتفال؛ كنتِ تبكين، لكنّي لم أكن أدري. غادرتُ بدوري، ظنّاً منّي أنّي وحيدٌ أيضاً أرعى ندمي على طريقتي. كما لو أنّ كلّ القبلِ التي لم أمنحكِ إيّاها لم تربط بيننا تماماً كعناق ملتهب؛ تماماً كالقُبَلِ التي لن أمنحكِ إيّاها، كالكلمات التي لن أُسمِعَكِ إيّاها والتي تصلني بكِ إلى الأبد، أنتِ، حبّي الوحيد.

مكتبة
t.me/t_pdf

-IV-

تمطّت إيلين؛ كانت منكفئة على نفسِها ككرة أمام المدفأة وكانت النّارُ تشوي وجهها. كانت إيڤون تحيك بعينين منخفضتين؛ كانت الإبرة تغوص بثبات في قطعة الحرير التوتيّة اللّون. يومٌ رماديّ ورخو يتحطّم على نافذة الغرفة. «انتهى الأمر، فكّرت إيلين. سيأتي. لقد أتى». ضغطت يدها على رقعة لحاءٍ ذهبيّة اللّون كانت تداعب أصابعها.

- لا أحبّ أيّامَ الأحد، قالت.

- أحبّها، قالت إيڤون.

الأحد، الإثنين... لا يجدُر أن يكون ثمّة فرق. أيّام الأحد، كانت تظلّ في البيت، لكنّها كانت تحيك، ولا تتوقّف أبداً عن الحياكة. كان وسط الرّماد فرقعة صغيرة.

- تذكرين، قالت إيڤون. المرّة الأولى التي شوينا فيها الكستناء، ذلك الانفجار!

- نعم، قالت إيلين. تسلّينا كثيراً، أضافت بحسرة. حرّكت الرّماد المشتعل بملقط: أظنّ أنّها قد نضجت.

صوتٌ نادى في الغرفة المجاورة: «إيڤون».

- حالاً، قالت إيڤون.

وضعت عملها جانباً، ندّت عنها تكشيرة وجّهتها لإيلين وغادرت الغرفة. قشّرت إيلين حبّة كستناء ووضعتها في فمها؛ كانت أصابعها

برائحة الخشب المحترق والتّبغ والليمون اليوسُفيّ؛ رائحة جميلة: تكسّر ت الكستناء تحت أضراسِها، كانت ساخنة. «كلُّ هذا موجود»، قالت. لكنّه غيرُ صحيح؛ لم يكن يحيطُ بها سوى الفراغ. «ها قد جاء، قالت. كم أكره الألم». أغمضت عينيها. كان الرّاديو في الشقّة المتاخمة يغنيّ: «ثمّة حجارة في الطّرقات، في كلّ الطّرقات ثمّة الحنين.».

لم تحاول إيلين أن تقاوم، فقد كان ضرباً من العبث. سنة واحدة فحسب؛ يمكن عدّ الأيّام التي رأيتُها فيها بالأصابع. والآن، هو وحده.

– ألا تعرفين ماذا تريد؟ قالت إيڤون. كان صوتُها يضحك: تريدني أن أمسح أنفَها. لقد قرّرت أنّه من المُزعج إخراج يدها من تحت الغطاء.

حافظت إيلين على عينيها مُتسمّرتين في النّارِ حتّى لا تلاحظ إيڤون ذلك الضّباب فيهما.

– لا ينبغي أن تستسلمي إليها.

– باه! إنّها متعتها الوحيدة.

– متعة اضطهادك. ليست مريضة أكثر منّي ومنكِ.

– إلى جانب ذلك، لا ينبغي أن تنتشي كثيراً.

تناولت إيڤون عمَلها ثانية. وضعت إيلين قبضة كستناء على ركبتيها.

– إنّها رائعة، قالت إيڤون، هشّة وناضجة جيّداً؛ كهذا تحديداً أحبّها.

ألقت نظرة سريعة على إيلين: أنتِ لا تستغلّين مسرّات الوجود كما ينبغي، قالت بنبرة مدرسيّة.

– حمقاء! قالت إيلين.

حدست إيڤون من دون شكّ؛ لكنّها لم تكن تطرح الأسئلة قط؛ كانت تحسن التصوّر والفهم والصّمت؛ إلى جانبها كان المرء يشعر بالأمان.

– متأكّدة أنّكِ ستسهرين اللّيل بأسره، قالت إيلين بنوع من الضّغينة.

– الواجب هو الواجب، أليس كذلك؟ قالت إيڤون. لبست الصّدريّة اللّامعة: يا للغرور، فستانُ آنسة شرف. سيُعتَقَد أنّه لأجل زواج. خسارة فقط أنّ معدة العروس تحت سرّتها.

- فوق السُرّة؟

- إنّها نحيفة جدّا. ومُحاطة بالمطّاط حول فخذيها وحول بطنها.

- سيُفاجأ العريس، قالت إيلين.

ضحكت إيڤون.

- لو تعلمين عدد النّساء اللاتي يشكّلن أعشاشاً مفاجأة. فساتين الحفلات يُباعُ معها الصّدر.

غاصت الإبرة في الحاشية، وخرجت، غاصت، كان ذلك مُذهلاً. أبداً، أبداً. لن يحبّني أبداً.

- تعلمين، قالت إيڤون، لا أقول هذا لأطردكِ، لكن يمكنك أن تكوني في بيت پول عند السّادسة...

- كم السّاعة الآن؟ قالت إيلين.

- السّادسة.

تثاءبت إيلين.

- سأغادر شيئاً فشيئاً.

پول. حياتي، حياتي الحقيقيّة. لم تعد لي حياة. فقط هذا الغياب. لن أراه قبل أيّام وأيّام. وهو لن يفكّر في أنّه لن يراني؛ لا يفكّر حتّى في أنّه لا يحبّني. العالم حافل من حولِه. أنا غير موجودة.

- پول المسكين، قالت إيڤون.

جهّزت إبرة ببراعة.

- لماذا پول المسكين؟ قالت إيلين وهي تقف. إنّه يبلي بشكل ساحر. ارتدت معطَفَها، مالت على إيڤون وقبّلت شعرها الأسود: إلى الغد. سأكون في «بيار»[9] Biard عند السّادسة.

- إلى الغد. أمسية رائقة، قالت إيڤون.

أمسية رائقة. يجب أن أخجل من نفسي. مُقيّدة طوال اللّيل بهذا

9- بيار Biard: مدينة في الوسط الشرقي لفرنسا.

الثّوب الورديّ، مع المجنونة التي تنتحب في الغرفة المجاورة. غادرت إيلين. غريب؛ لا تقوم إيڤون بشيء عدا الحياكة، تقشير البطاطا، ومعالجة مرض خياليّ؛ مع ذلك لا تبدو حياتها هزليّة؛ بل كان مقبولاً أن يُقال إنّ إيڤون موجودة، مثلها، مستغرقة في الحياكة في حجرة منفردة. «أهو ذنبي أنّ حياتي عبثيّة؟» حياتي. ربّما كان يكفي القول بقناعة: إنّها حياتي. لكنّه لم يعد في متناول إيلين أن تقول ذلك، لم تكن تريد. مع ذلك لن تكون لي حياة أخرى. أبداً. أبداً.

- لقد تأخّرتُ قليلاً، قالت إيلين.

- لا بأس، قال پول. مازالت القهوة ساخنة.

رتّب الكنبة وقرّبها من المدفأة: اجلِسي هنا.

قدّم لها قهوة.

- رائعة قهوتك، قالت إيلين. أنت رجل بيت مكتمل.

- إيه! من ستتزوّجني لن تكون قد خاضت مشروعاً سيئاً، قال پول.

جلس على مسند الكنبة وألقت برأسِها على خاصرته. كانت هناك مناديل تجفّ فوق الأنبوب المسبوك؛ وكانت هناك زجاجة ماء تخرخر.

- پول المسكين، فكّرت إيلين بإحساس رقيق. عليَّ أن أكون أكثَرَ لطفاً معه. عزيزي پول المسكين.

- سترين كيف سأجهّز لنا مأوى صغيراً جميلاً، قال پول. سأصنع لكِ طاولة عمل كبيرة، بخشب جيّد، ثخين، ومكتبة للكتب. سنُعلّق رسومك الأكواريل على الجدران؛ سيكون ذلك رائعاً.

- أنتَ لطيف، قالت إيلين.

كانت تحبّ تلك اليد التي تغوص في شعرها مداعبة على نحو بطيء ومكرّر.

- سأشتري خيمة، وسنذهب للتّخييم أيّام الأحد في الصّيف.

- أنت لطيف جدّاً، كرّرت إيلين.

تركت شريط السّعادة المتواضعة يمرّ بعذوبة أمام عينيها: غرفة نظيفة، شرائح اللّحم تطبَخ وسط البصل، أشرطة السّينما حول الإسكيمو وفواصلها والعلب البنفسجيّة والصّفراء في صندوق السيّارة أيّام الأحد. كانت أحلام أيّام الأحد في يوم أحد.

- هل كلّ شيء على ما يُرام؟ قال پول.

احتضن إيلين.

- نعم، جيّد، قالت.

في لحظة خاطفة كالبرق، رأت الرّأس الأسوَد يخرج من ياقة الكنزة. «إنّه هنا؛ في هذه اللّحظة بالذّات، نعم، أشعرُ بوجوده، لحماً وعظماً». ثمّ تلاشت الصّورة. حلُم لا وزن له. لم تكن هناك سوى تلك اليد الحقيقيّة التي تمسِكُ برقبة إيلين؛ شفتان على وجنتها، على صدغها، على زاوية شفتيها وأحسّت إيلين بأنّها سابحة في بخار لذيذ؛ أغمضت عينيها. استسلمت إلى هذا السّحر الذي حوّلها برفق إلى نبتة؛ إنّها الآن شجرة، شجرة حور فضّية حيثُ نسمة الصّيف تحرّكُ أوراقها المنفوشة. فمٌ ساخن التصق بفمها، من خلال بلوزتها يدٌ داعبت كتفيها، نهديها؛ ازدادت سحابة البخار سُمكاً حولها؛ شعرت بأنّ عضلاتها وعظامها تذوب؛ تحوّل لحمها إلى رغوة رطبة وإسفنجيّة، حافلة بالحياة. ألف حشرة تطنّ، تلسعُها بشوكها المغموس في العسل. حملها پول بين ذراعيه، ومدّدها على السّرير واستلقى بجانبها؛ نسجت أصابعه حول بطنها سترة دافئة؛ كانت تتنفّس بجهد؛ بمشقّة؛ غاصت في قلب اللّيل؛ فإذا قدماها في الهواء؛ وعيناها مُغمضتان، مشلولة تماماً بهذا الحرير المُشتعل، خُيّل إليها أنّها لن تطفُو على سطح العالم ثانية أبداً، وأنّها ستظلّ دائماً مسجونة داخل تلك المجاهل الهلاميّة، قنديل بحر داكن ومترهّل مُمَدّد في سرير من قرّاص سحريّ. أبعدت پول بكلتا يديها، ووقفت.

- اتركني، قالت.

قفزت إلى طرف السّرير من دون أن تنظر إليه؛ كان خدّاها ملتهبين؛

اقتربت من المرآة؛ كان وجهها مُحتقناً، وشعرها مُشوّشاً، وبلوزتها مجعّدة؛ فزعت من منظرها. أخرجت مشطاً وعلبة أصباغ من حقيبتها؛ استمرّ قلبُها ينبض بسرعة قصوى، ولم يتوقّف الصّفير المُخرّب للآذان. ارتعشت؛ دنا منها پول، وأحاط كتفيها بذراعه.

- لِمَ لا ترغبين؟ قال.

طرح السّؤال بصوت جليّ، رمقها وجهاً لوجه بعينيه الصّافيتين؛ أشاحت برأسِها.

- لا أدري.

ابتسم پول برفق.

- مع أنّكِ لستِ فتاة صغيرة. مِمَّ الخوف؟

- لستُ خائفة، قالت إيلين.

تحرّرت منه وراحت تمرّر المشط في شعرها.

- بلى، أنتِ خائفة، قال پول. أمسكها من كتفيها بلطف؛ في أغلب الأحيان، تكون النّساء خائفات في المرّة الأولى. ما أدهشني هو أنّك، أنتِ الشّجاعة، تنساقين وراء الخجل كالآخرين.

رمق إيلين بريبة؛ تابعت تمشيط شعرها بصمت؛ كيف يمكنه أن يناقش أمراً كهذا بتلك الأريحيّة؟ كانت متضايقة من أسئلته تماماً كما كان سيضايقها أن يطلب منها التعرّي أمامه.

- اعتقدتُ أنّ بيننا ما يكفي من الثّقة والصّداقة كي تقلبي الطّاولة بهذا الشّكل، قال پول.

- نعم، قالت.

لم يكن لديها ما تقوله له؛ ما دخلُ الثّقة والصّداقة في وحدة اليرقة التي يحتفظُ جسمُها بذكراها المريرة؟

- إذًا؟ قال پول.

عانقها، طبعاً، مادامت قد صمتت فهذا يعني أنّه مُحقّ.

تصلّبت.

- إذًا، لا أرغب، قالت بعنف.

لم يفلتها پول؛ وصعد الدّمُ قليلاً إلى وجهه.

- غيرُ صحيحٍ تماماً، قال.

ضحكت إيلين.

- اسمَع، ربّما أعرف هذا.

- أنا أيضاً، قال پول.

أضاء وجه إيلين؛ كانت له أذنان فقط ليحصِيَ دقّاتِ قلبها؛ كانت له عينان ويدان...

- كلّ ما هنالك هو أنّك تتصلّبين فوراً. لكن لو تركتِ نفسك...

- أكيد، حين يلامسني شخص، هذا يفعلُ فعله، قالت إيلين. جعلها الغضب تتلعثم: لستُ من جليد، لكن لنقل إنّ لي رغبة في مضاجعة كلّ الأوغاد الذين لمسوني في السّينما.

- لِمَ تأخذين الأمر من هذه الزّاوية؟ قال پول. أعتقد أنّه علينا التحدّث في الموضوع نهائيّاً.

- لكن، ليس ثمّة ما يُقال، قالت إيلين؛ سيطرت على صوتِها: لنفترض أنّي خائفة؛ هذا سخيف، أعرف جيّداً، لكن لِمَ لا تتحلّى بالصّبر، ستُسوّى الأمور في النّهاية.

- يا رأسَ البغل الصّغير! قال پول.

قبّلها في زاوية من عينها؛ زمّت شفتيها؛ لم تكن ترغب في مقاومته ولا في الارتماء على شفتيه ولا الانخراط في البكاء؛ بل كانت في حاجة إلى إرخاء عضلاتها لتُبدّد الرّعد الذي كان يُدوّي في داخلها.

- لنخرج من هنا، قالت.

- كما تشائين، قال پول.

تبعها في السُلّم بوداعة. خلُصَ مرّة أخرى إلى أنّه لا يفهمها؛ لاح

له ذلك بسرعة. رمقته بنظرة مشحونة بالضّغينة سُرعان ما تحوّلت إلى شعور بالنّكبة. لم تفهم نفسَها. في الشّارع، لم يكن الطّقسُ بارداً ولا دافئاً، وكان النّاسُ يصعدون وينزلون بخطى وئيدة؛ كان هناك انطباعٌ بأنّ ما تحت جلودهم تحديداً ليس إلا ما هو خارجها: لا هو باردٌ ولا هو دافئ. أحسّت بأنّها رماديّة بالكامل وقابلة للتفتّت من الدّاخل. كانت أمامها فرصة لتقتل الرّطوبة المقزّزة لذلك الأحد. لِمَ صدَّتْه؟ مدُّ الحزن في فراغ حنجرتها، ذاك القضيب الذي يخترق بطنها، ذاك الجفاف الذي في فمها، لم تكن مجتمعة سوى الرّغبة.

- اسمعي، قال پول. لديّ عرضٌ لكِ: لِمَ لا نتزوّج الآن؟

- نتزوّج؟

- نعم! قال پول.

لبثت إيلين مشدوهة برهة؛ هذا الزّواج، إنّه مثل ذلك المساء العظيم، إنّه أسطورة؛ حديث جادّ لا أحدَ يُصدّقُه.

- لكن، أين سنسكُن؟

- عندي في البيت: سأتدبّر أمري. ما من سبب يجعلُكِ تظلّين في عائلتك حتّى الرّبيع القادم. أخذ إيلين من ذراعها: أيّتها الخادمة المسكينة، أفهم عصبيّتَك؛ هذا ليس وجوداً.

نظرت إليه بمرارة. اجتاحتها رغبة في أن تصرخ في وجهه: لا تكن طيّباً إلى هذا الحدّ؛ تمنّت لو كان في استطاعتها أن تمزّق خديّهِ الورديّين ليكُفَّ عن التشبّث بهذه الطّيبة الحمقاء. كان ذلك سخيفاً جدّاً: كان يُحبّها، فيما لم تكن هي تُحبّه؛ ومن كانت تُحبّه لا يحبّها.

- لن يغيّر هذا من الأمر شيئاً، قالت إيلين. ما دمتُ لن أشتغل في هذا القفص. مادام لن يكون لنا منزل، سأكون مضطرّة دائماً إلى قضاء أيّامي في شارع «سان جاك».

- سيكون هناك فرق، قال پول.

- لن أراكَ أكثر من الآن.

- لكن ستكون بيننا علاقة مختلفة.

صعدت شعلة غضب وإهانة إلى وجه إيلين. «يتصوّر بأنّي في حاجة إلى رجل؛ بعضُ ليالي الحبّ ويحصُل التّوازن».

- قلتُ لك إنّي لا أرغب في تلك العلاقات، قالت بتحدٍّ.

- أخيراً! قال پول. لن تظلّي عذراء بقيّة حياتِك؟

- لِمَ تظنّ أنّك الوحيد في العالم الذي يمكنني أن أنام معه؟

رمقها پول بنظرة معاتبة.

- اسمعي، إيلين، إن كنتُ أبدَيتُ صفاقة منذ قليل، فهذا لا يعني أنّي سيّئ؛ تعلمين أنّ غايتي هي أن تكوني سعيدة. لنتحدّث كأصدقاء ودودين.

كانت قاسية وسيّئة، تعرفُ ذلك؛ إلّا أنّها كانت في حاجة إلى تعكير المياه الصّافية. لم يكن واثقاً تماماً من أنّها تحبُّه. هل كان ذلك خطأها؟ لا يهمّ: لابدّ أنّه كان سيّئاً بما أنّها كانت ترغب بشدّة في إلحاق الأذى به.

- بصداقة، قالت، لِمَ قرّرتَ أنّه عليّ ممارسة الحبّ معك؟

- أوه! لا بأس، قال پول بنفاد صبر.

ندّت عنها ابتسامة رضا؛ كان من الصّعب جعله يغضب، لكنّها كانت تنجح أحياناً.

- أنا لا أمزح، قالت. بما أنّك تريد أن نتحدّث. لنتحدّث، إذًا، بجدّية. لماذا؟

- اعتقدتُ أنّك تحبّينني، قال پول ساخراً من نفسِه.

- وأنتَ؟ قالت.

- كيف؟ وأنا؟

- هل تحبّني؟

هزّ كتفيْه.

- ماذا تريدين منّي؟ قال. ما وراء كلّ هذه الأسئلة السّخيفة؟

– أوه! أعرف، قالت. من البديهيّ أنّنا نحبّ بعضنا بعضاً، هذا بديهيّ منذ زمن طويل! مصيبة أن نحاول فهم ذلك.

– تبدو لي المسألة واضحة، قال.

– ليس بالنّسبة إليّ، قالت إيلين. رمقته بنظرة مُستفِزّة: هل تقتل نفسَك لو أنّي مِتُّ؟

– لا تكوني طفلة، قال پول.

– لن تقتُل نفسَك لأجلي، قالت إيلين. وماذا لو كان عليك الاختيار بيني وبين نشاطك السّياسيّ، ماذا تختار؟

– إيلين، قلت لكِ خمسين مرّة أنّ عملي هو أنا. لا يمكنني اختيار ألاّ أكون نفسي. لكنّي أحبّك على ما أنا عليه. ليس لديّ سوى أمنية واحدة: أن أقاسِمَك كلّ شيء.

– أنت في حاجة إليّ كي تكون سعيداً لكنّك لستَ في حاجة إليّ كي تعيش.

– هل ثمّة من هو ضرورة لعيش شخص آخر؟ قال پول. نحن نعيشُ في مجمَلِ الأحوال.

– نعيش، قالت إيلين.

كانت العلاقة متينة بينهما بالنّسبة إلى پول، سنواتُ الشّباب المشتركة، انسجامهما الثّوريّ ضدّ الـرّداءة، الصّداقة التي تربط بين جسديهما القريبين المستعدّينِ للالتئام، لكنّ الحبّ، الحب أمر آخر. إنّه لعنة.

– لستِ شخصيّة روائيّة على أيّ حال، قال.

ماذا؟ أتريد أن تكون لنا دقّاتُ قلبٍ إذا التقينا وأن نتبادلَ خصلاتِ الشّعر؟

– من السّهل أن نسخر، قالت إيلين. أنت، لمجرّد أنّنا معجبان بعضنا ببعض، وأنّنا لا نزدري بعضنا جسديّاً، يعني أنّنا نعيش قصّة حبّ.

– قوليها فوراً، قال پول. تعتقدين أنّكِ لم تعودي تحبّينني؟

كان في صوتِه غضب. ظلّت إيلين صامتة، فجأة خذلها قلبُها.

- لا أدري، غمغمت.

رمقت پول بقلق. إن كانت ستخسَرُه: ليس لديها غيرُه في العالم، ماذا سيكون مصيرها من دونه؟

- ماذا؟ قال. تسأمين معي؟

- بالتأكيد لا، قالت إيلين.

- يزعجك أن أقبّلك؟

- بالتّأكيد لا، قالت مجدّداً.

- إذًا؟

شقّا حديقة المرصَد؛ كانت هناك طبقة وحل رقيقة تغطّي الأرض الباردة، وبعض الأوراق تتدلّى من الأشجار.

- إذًا، أصرّ پول.

- أنا متمسّكة بكَ، قالت بكسل.

- مع ذلك يبدو لك أمراً مُسطّحا أن تقضّي حياتَك معي؟

راح پول يهزأ؛ كان في مزاج سيّئ، لكنّه مع ذلك، لم يخطر له أكثر من أنّها تغيظه على طريقة طفلة صغيرة متحمّسة. كانت أحياناً تسيء معاملته من دون سبب.

- أظنّ أنّ الزّواج لا يناسبني أبداً، قالت.

- منذ ساعة، كنتِ تعدّين معي المشاريع، قال پول.

- أوه! من الصّعب عدم مجاراتِك، قالت إيلين؛ خرج صوتُها عنيفاً أكثر ممّا أرادت: تبدو واثقاً من برنامَجِك؛ لم تطلب منّي رأيي.

- في العادة، لا تتردّدين في إبداء رأيِك من دون أن يُطلَبَ منكِ ذلك، قال پول. تفحّصها بريبة: هل أنتِ غاضبة منّي، قال بنبرة تسامُح. وتقولين أيّ شيء كي تعكّري صفوي.

- لكنّي، أقول الحقيقة، قالت إيلين. لِمَ يبدو لك أمراً خارقاً أنّي لستُ ميّتة من الرّغبة في الزّواج منك؟

توقّف پول ووضع يده على الحاجز الذي يقفل الحديقة.

- صحيح؟ قال، ألا تحبّينني؟

لم تردّ بشيء.

- إذًا، فقد كذبتِ عليّ خلال كلّ هذا الوقت، قال.

استعمل الصّوت الواثق والقاطع الذي لا يستخدمُه سوى في النّقاشات السّياسيّة؛ تصلّبت قسماتُه. فجأة، جزعت إيلين؛ لم يعد لها؛ إنّه أمامها وها هو يحاكمها.

- لم أكذب، قالت، أحبّك كثيراً.

ألقى عليها نظرة توسُّل؛ لقد أساءت معاملته! لا ينبغي أن ينتبه وإلّا خنقها الخجل.

- لا تلعبي على المفردات! قال پول. كان عليك إخباري بأنّ هناك سوء تفاهم بيننا.

- لكنّي حاولت، قالت إيلين.

- رأيتُ منكِ خمسين مشاجرة فتيات صغيرات؛ لكنّك لم تكلّميني بنزاهة قط.

ترقرق الدّمعُ في عينَيْ إيلين؛ كان بادياً أنّه يكرهها بجدّية؛ هل كرهها من قبلُ من دون أن تتفطّن؟ فكّرت فجأة في أنّه فعلَ من باب التّهاون فقط.

- خشيتُ أن أغضِبَك، قالت بيأس.

- إيلين! ألديكِ فكرة عمّا تقولينه؟

كان قد كرهها فعلا؛ أظلمت عيناه، لم يعد من الممكن فهم ما يدور في خلدِه بوضوح؛ كانت أفكارُه التي في رأسه والتي لم تكن متاحة السّيطرة عليها أمراً مُفزعاً. انخرطت إيلين في البكاء.

- أوه! لا تنتحبي، قال پول.

عضّت شفتها؛ لقد خطّطت للمشهد كطفل مدلّل؛ ألم تكن قادرة على أن تردّ عليه ندّاً لندّ؟

- كلّ ما هنالك، قالت، هو أنّي لا أتساءل عن مشاعري؛ اعتدتُ على فكرة أنّي أحبّك.

- كيف اكتَشفتِ أنّ ذلك غيرُ صحيح؟

لم تتحمّل نظراتِه.

- شيئاً فشيئاً، قالت بغموض.

أخذ ذراعها.

- تحبّين شخصاً آخر؟ قال.

كان هو الآن من يقرأ ما في داخلها؛ إنّه يبتعد بسرعة، لم تكن تعرف بِما تُجيب، إنّها على وشك أن تخسره، لا تريد أن تخسَرَه...

- من؟

- لا، قالت إيلين.

هزّ كتفيه.

- ألا تجيبين؟

ماذا يُقال؟ لم تشكّ يوماً في أنّها متمسّكة بپول! لم يبدُ لها يوماً بهذا الغموض والواقعيّة.

- لا بأس، قال پول. ليلة سعيدة.

أشاح بظهره؛ وقبل أن تبدر منها أيّ حركة كان قد ابتعد. أخذت تركُض:

- پول!

استدار:

- ماذا تريدين؟

ظلّت مُتسمّرة أمامه، ممنوعة؛ كان لديها رغبة في الحفاظ عليه؛ كانت رغبتها أن يظلّ يحبّها من دون أمل في أن تبادله إيّاه: لم يكن هناك كلمة تصف ذلك.

- حسناً! إذًا! عندما تقرّرين الكلام، أشيري بذلك.

رأته يبتعد. «إنّه يجدني قذرة! فكّرت بإحباط، كنتُ فعلا قذرة معه». تهاوت على مقعد مبتلّ. «والآن، ليس لديّ أحد. إنّها غلطتي». خنقتها الدّموع. لم يبكِ، عرف كيف يتصرّف؛ لكنّه كان حزيناً بسببها. «لم أهتمّ به يوماً؛ كنتُ فقط أريدُه بالقرب منّي، وفيّاً وراضياً. جبانة، ظالمة، خفيفة، خائنة. قذرة، كنتُ قذرة»، كرّرت بيأس. كان أمراً غير محتمل، ذاك النّدم الذي ينهشها؛ ندم لا فائدة منه، لا يمحو شيئاً. «عفواً..». لكن لم تكن هناك أيّ سماء يمكن للمرء الانطلاق نحوها، متحرّراً من ماضيه الثّقيل؛ ظلّت دائماً لصيقة بنفسها، وحيدة عديمة الجدوى كميّت تحت التّراب.

«أريد رؤيَتَه». نهضت إيلين وراحت تركُض. سيقول لي اشرحي الأمر لپول. لكنّه هو من أرغب في رؤيتِه. اندفعت داخل الأوتوبيس. لا يهمّ هذا الوجه الخشبيّ؛ إلى الجحيم كلامها البارد. كان لابدّ أن يعرف. يهون كلّ شيء منذ اللّحظة التي نعلم فيها أنّه سيعرف. تلك الأمسية الثّقيلة، النّدم، القلق: سيشعر بكلّ هذا؛ لن يعود بعد ذلك جدوى من الأسف على شيء، لا شيء يثير الرّغبة.

قفزت إيلين من الأوتوبيس. شارع «سوفروي». شارعه. منزله. اعترتها قشعريرة على طول عمودها الفقريّ. كان العالم من حولِه ضاجّاً إلى درجة يصعب معها التنفّس؛ كلّما وصلت إليه، كلّما نقص الهواء واختنقت. الطّابق الثّالث على اليسار. ترى أيّها نافذته؟ كان هناك كم هائل من النّوافذ، إحداها مظلمة والأخرى مُضاءة. «هل سأجرؤ؟» كان من حين إلى آخر يلقي في مرعاها بساعة من حضوره؛ لكن لو أنّه لاحظ عليها نية لإفشاء السرّ، لو غضب، فربّما استغلّ الأمر ورفض لقاءها قطعاً. صعدت السُلّم. كان هناك نور تحت الباب؛ فكّرت بقلب يخفق بشدّة: «إنّه هنا، لحماً وعظماً». حبست نفسها: تناهى إليها همس أصوات.

نزلت السُلّم ركضاً. كانت وجنتاها تشتعلان. «ماذا عليَّ أن أفعل؟» نظرت إلى البيت. لم يكن مطروحاً أن تعود أدراجها؛ هنا الحياة.

استندت إلى جدار وراحت تحصي النّوافذ. الحياة برمّتها كانت خلف ذاك المربّع المُضاء.

تحوّل المربّع إلى الأسود. تراجعت إيلين وانزلقت خلف بوّابة المدخل. اضطُرّت إلى البقاء طويلاً بلا حركة. انتظرت فإذا بمادلين تخرج من بوّابة المبنى. كان بلومار يتبعها. أخذها من ذراعها. لماذا هي؟ لماذا يحبّها؟ «كان عليّ أن أتأمّلها جيّداً»، فكّرت إيلين. بدت لها دميمة، عجوزاً وحمقاء؛ لكن ينبغي أن يكون لديها شيء أكثر جمالاً من المظهر، ومن الذّكاء، مادام يحبّها. تقدّمت إيلين بخطوات حذرة، لصق الجدار. كانت مادلين ترتدي معطفاً رقيقاً أزرقَ، ووشاحاً أحمر، وكانت خصلة تغطّي نصف وجهها.

دخلا مطعماً. كان مطعماً أصفر، وكان أمام بابه ما يشبه السّياج الخشبيّ يلعب دور الشّرفة في الصّيف. اقتربت إيلين من الزّجاج. جلسا إلى طاولة، أحدهما قبالة الآخر، أخذ بلومار القائمة بين يديه؛ كانت ملامحه واضحة؛ لابدّ أنّه متعوّد على المكان. نظرت إيلين إلى النّادلة، كنتوار الزّنك، فوق طاولة الخدمة كانت هناك سلال خبز، غلال وسجق كبير الحجم. من جهة كان ذلك مُحبطاً؛ كان من الغريب أن يختار مطعماً كهذا بدل المطاعم الأخرى؛ قوارير الزّيت، الأغطية الورقيّة، لا تخبر سوى عن حالتها؛ كان عليها أن تعيد حسابها عشرين مرّة، إذ لم يكن ممكناً أن تتقدّم خطوة واحدة في داخل بلومار. مع ذلك، وجدت إيلين نفسها مفعمة بالأحاسيس: لم يكن في وسعها أن تتخيّل هذا الدّيكور الذي بدا لها ممنوحاً بسهولة، دفعة واحدة، وبشكل حقيقيّ.

«ماذا يأكلان؟» وقفت إيلين على رؤوس أصابعها، لكنّها بالكاد شاهدت طاولتهما. كان التّفكير في أنّهما يأكلان كما يفعل أيّ شخص، أمر مضحك حقاً. نظر إلى الأكل أمامه وتذوقه لحظة في فمه، كان يمضغ مُفسّراً أشياء. فكّرت إيلين أنّه يأكل بتنازل حتّى لا يمتاز عن الآخرين؛ بدا خالياً من الرّغبة، والحاجة؛ لم يكن مرتبطاً بأحد، أو أيّ شيء، إلّا بجسده الخاصّ.

ابتعدت إيلين عن الزّجاج. «يجب أن أرحل». سيعودان معا بلا شكّ. لن تتمكّن من الحديث مع بلومار. «سأرحل». ستلتهم نفسها مجدّداً؛ ستزدرد أملها وخيبتها وتعبها؛ لم تكن لديها شجاعة. كان هناك انتظار على الأقلّ؛ لو أنّها حسمت الأمر، لن يكون هناك شيء على الإطلاق، لا غياب ولا حضور، لا شيء أبداً. لكنّ قاعة الأكل باتت الآن بعيدة، بصحونها الخزفيّة ورائحة الكاكاو القديمة: لم يكن قابلاً للتّصديق أن تطفو من جديد. كانت هناك هوّة سحيقة تفصل ذاك العالم عن النّباتات الذّابلة في الشّوارع التي تحفَل بحضور بلومار.

انتفضت. «أين يذهبان؟» خرجا من المطعم. *من جديد راحت تتعقّبهما*. أن تراه، أن تتبعه: كان ذلك يوجد رابطاً بينه وبينها. سأتعقّبهما اللّيل بأسره. أحسّت بعقدة في حنجرتها. اقتربا من نفق محطّة المترو، تصافحا. نزلت مادلين الدّرجات في حين عاد بلومار أدراجَه.

اختبأت إيلين وراء عمود إنارة لتسمح له بالمرور؛ لم تكن لديها الرّغبة في إرباك وحدته فوراً. كان وحده. «ماذا كان شكلها في رأسِه؟» كان يمشي أسرع منه مع مادلين، بخطوات ثقيلة. في تلك اللّحظات كان هو نفسه؛ كان فاتناً أن تشعر به قريباً منها وهو في حقيقته القصوى.

– مساء الخير، قالت إيلين.

لمست ذراعه. استدار.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أمشي في أثرك.

– منذ متى؟

– تعقّبتكما المساء بأكمله.

ابتسمت؛ كان من الصّعب الكلام وهي تتلقّى هذا الوجه القاسي في صميم قلبها. لم تنجح أبداً في استحضار هذا الوجه المحايد والمرحّب في آن.

تفحّصها متردّداً:

- احتجتني في أمر ما؟

- نعم، قالت، يجب أن نتحدّث. لنذهب إلى بيتِك.

- لو أردتِ.

مشت بجانبه بصمت. لا خلفه: بجانبه. منذ قليل كانت تتسكّع في أعقابه، غيرَ واعية كظلّ: ها هي الآن هنا، حقيقة؛ دخلت تلك الشّوارع حياتها وها هو نفسه يدعوها إلى الصّعود إلى السُلّم الذي اختبأت فيه.

- أنت تسكُن هنا، إذًا، قالت.

- نعم. تبدين مذهولة.

ابتسم. كانت حين تفكّر فيه، يبدو لها من دون عمر، ووجهه قاسياً وحاسماً؛ نسيت نار سخريته، ومنخريه المتحرّكين وحماسَه المكتوم الذي يمنحه أحياناً سحنة شباب كبار. اقترب من الموقد وحرّك الجمر على الكرات المحمرّة التي تشغل شبكة الشّواء.

- دفّئي نفسَكِ. تبدين مجمّدة.

- أنا على ما يرام، قال.

غُرفَتُهُ. تأمّلت السجّاد، الكنبة المغلّفة بقماش جميل؛ الرّفوف المليئة بالكتب، واللّوحات الغريبة المُعلّقة على الجدار. بدا مسؤولاً تماماً عن نفسِه إلى درجة يُلاحَظُ معها أنّ شيئاً لم يحدث معه مصادفة؛ مع ذلك لم يكن من الممكن تخيّله وهو يختارُ أثاثه بعناية. كما لو كانت ملابسه والديكور الذي يحيط به وصحونه التي يأكل فيها قد وُهب إياها إلى الأبد.

- إذًا؟ قال؛ نظر إليها بفضول: ماذا هناك؟

- إيه، حسناً! تردّدت لحظة: لقد قطعتُ مع پول.

- قطعتِ؟ قال بلومار، تقصدين أنّكما تشاجرتما؟

- لا. لقد انتهى كلّ شيء فعلاً، قالت.

- لماذا؟ قال بلومار.

كان هناك جالساً قبالتها. لم تكن تحس البتّة برغبة في أن تروي له قصصها الصّغيرة. كان هناك، لا شيء يعني أكثر من ذلك.

- لا أحبُّه، قالت.

- أأنتِ واثقة؟

- تمام الثّقة.

انحنى من جهة النّار وبدا قلقاً. كان يفكّر فيها، في نفسه. لم تكن في حاجة إلى التّفكير في شيء؛ بلا ندم أو هموم، كانت ترتاح بهدوء بين يديه.

- ماذا قال؟

- لم يكن سعيداً، قالت إيلين.

- إنّه يحبُّكِ. ألقى عليها نظرة: حتّى لو كنتِ لا تكنّين له الحبّ، هل هذا سبب للقطع معه؟

- أوه! أريد أن أراه، قالت إيلين. فقط، لا أريد أن تُطرَح بيننا مسألة الزّواج أو... أو الأحاسيس، ختمت.

ساد بينهما صمت:

- تريدين أن أتحدّث معه في الأمر؟

- أوه! لا، قالت إيلين. ليس هناك شيء يُقال.

- إذًا، ما الذي يمكنني فعلُه؟ قال بلومار.

- لا شيء، قالت إيلين. لا تفعَلْ شيئاً.

- لِمَ أتيتِ في هذه الحالة؟

- أريدُك أن تعرف، قالت إيلين.

شحب وجه بلومار.

- أنتَ غاضب لأنّي أتيت؟ قالت.

- بدا لي أنّه لا جدوى من ذلك.

- بالتّأكيد. لن يبدو لك مجدياً أبداً أن تراني.

حرّك بلومار الجمر من دون ردّ. خاطب نفسَه. حدّث نفسَه عن أشياء معيّنة. كمٌّ هائل من الأشياء التي لن أعرفها تحت هذا الشّعر الأسود الذي سيكون رائعاً أن ألمسَه.

- أتعلم، أجريتُ حساباً؛ أنت تراني تقريباً ثلاث ساعات في الشّهر. أي الجزء المئتين والأربعين من وجودك.

- فسّرتُ لك عشرين مرّة...

- أسبابُك رديئة، قالت إيلين؛ أدارت رأسَها: إذا كنتَ تخشى أن أتعلّق بكَ، فقد حدَثَ ذلك.

لزم الصّمت مرّة أخرى؛ كان يتأمّل النّار بملامِحَ جادّة.

- فيمَ تُفكّر؟ قالت.

أفكّر في أنّه لا يجب أن نرى بعضنا أبداً.

خدشت إيلين ذراع الكنبة:

- آه! لكني لن أدع ذلك يحدث، قالت. كان الرّعب الذي استولى عليها عنيفاً إلى درجة بدا له معها أنّ أحشاءها تُنتَزَع: سأذهب كلّ يوم إلى الورشة لأتعقّبك في الشّوارع و...

- لا، لن تفعلي شيئاً من هذا، قال. تعرفين أنّكِ لن تنالي منّي شيئاً بهذه الأساليب.

صعدت دموع غضب إلى مقلتيها:

- لكن لماذا؟ قالت. لماذا؟

- لا أحبُّكِ، قال بقسوة.

- أعرفُ أنّك لا تحبّني، لا يهمّني، قالت بعنف. أنا لا أطلب منك أن تحبّني.

- پول يحبّك، قال. وپول صديقي. ثمّ هناك مادلين. ستكون حزينة. وهي في حاجة إليَّ.

- أنا أيضاً، أحتاج إليك، قالت إيلين باكية.

- لا. أنت في حاجة إلى التّسلية. ستنسينني بأسرعَ ممّا تتصوّرين. بدا عليه الجموح، تصلّب في جبينه خطّان عموديّان فيما كان صوتُه هادئاً. صخرة.

- غير صحيح، قالت. لن أنساكَ أبداً: فقط، لن يكون هناك فرق عندك لو لم تسمع عنّي شيئاً، قد أصبح تعيسة كحجارة، فيما سيكون ضميرك مرتاحاً. اختنق صوتُها:

منافق قذر، قالت.

- عليكِ أن ترحلي الآن، قال بلومار.

رمقته بنظرة استفزاز، وضغطت يديها بقوّة على ذراع الكنبة.

- لن أذهب.

وقف.

- أنا من سيرحل إذًا. قال.

- إن فعلتَ... -اختنقت- سأكسّرُ كلَّ شيء، سأمزّق جميع أوراقِك.

- لا شيء نفيسٌ هنا، قال. تسَلَّيْ كما تشائين.

تناول معطَفَه، فتح الباب؛ صرخت:

- لا. عُد!

نزلت السُلّم في أعقابِه، لكن كان لديه ساقان طويلتان، ركض بسرعة؛ كانت مقطوعة النّفس وكان قد اختفى وسط المارّة؛ انعطف.

«سيرى، قالت. سيرى». عضّت منديلها. لن يرى شيئاً؛ اتّكأت على عمود إنارة. خُيّل إليها أنّها ستسقُط على الرّصيف مُغمى عليها من الغضب.

أكرهُه. قفزت في أوتوبيس. لن يحبّني أبداً، أبداً. كان الألم حاضراً، حارقاً، عذباً. لم تكن لديها رغبة في الغوص في هذا الغراء الدّافئ. پول يُحبُّكِ. أيظنُّ أنّي محكومة بالنّوم مع پول في فراش واحد؟ سيرَوْن. ثمّة أمرٌ في استطاعتها القيام به: أن تؤذي نفسَها. أريد أن أتدحرج في

الجدول وخلال سنة سيعترض سبيلي وسأقول له: «حبيبي، أتيتَ»، وسيصرُخ: «أهذا أنتِ!» نظرت باستفزاز إلى رجل بينَ عُمرَيْنِ يجلسُ في الجهة المقابلة لها. تفحّصها الرّجلُ فأشاحت بوجهها. أنا جبانة. لكنّي سأكتسب الشّجاعة. أنتِ في حاجة إلى التّسلية. سيرى كيف سأتسلّى! سأسكرُ حتّى الموت وسأرتمي أمام أوتوبيس، وسيقول له پول: «إيلين.. لقد صدمها أوتوبيس بالأمس». سيتحوّل وجهُه إلى قناع مُضحك.

نزلت إيلين من الأوتوبيس، دخلت مقهى واتّجهت مباشرة إلى كابينة الهاتف: «ألو، أريد التحدّث مع «پيتروس»».

سمعت وشوشة ووقع خطوات في الجهة الأخرى من الخطّ. إن كان غير موجود، فسأتّصلُ بـ «فرانسيس»، في «تورنيال»، أيّ أحمق، لا يهمّ.

- ألو؟

- ألو، إنّها إيلين.

- أه! ظننتُكِ ميّتة. ليس لطفاً أن تنسَيْ أصدقاءك. ماذا أصبحتِ؟

- أتريد أن تخرج معي هذا المساء؟

- تريدين الخروج معي؟

- أنا في الزّبالة وأرغب في أن أسكر، قالت إيلين.

خيَّمَ صمتٌ بينهما:

- تعالَيْ واسكَري عندي في البيت، قال پيتروس. لديّ پورتو جيّد والكثير من الأسطوانات.

- حسناً، قالت إيلين. سآتي.

-V-

حبّي الوحيد. أهذا أنت؟ أما زال بالإمكان القول: هل أنت هنا؟ مع ذلك ثمّة شخص هنا لا يمكن أن يكون أحداً آخرَ غيرَك. غيّرت ملابسها منذ ساعة، كان يبدو عليها الألم. بدأت أنفاسُها تتسارع، وعروقها تظهر تحت جلدها الباهت. لمْ تختاري ذلك: أنفاس الموت هذه، وهذا العرق على جبينك والموج البنفسجيّ الذي يرتفع إلى وجهك ورائحة الموت التي ما انفكّت تحوم حولَكِ. «علَيَّ أن أختار». من اختار؟ كنتِ تظنّين أنّكِ هنا بأكملِك وأنتِ جالسة أمامي بطيبة، فوضويّة الشّعر وبيضاء تماماً؛ لكنّي أعرف أنّكِ كنتِ غائبة في مجاهلِ المُستقبل. من علَيّ أن أُؤثِر؟ مهما كان قراري فإنّه أنتِ من سأخون.

اعتقدتُ أنّي انتهيتُ من أمر إيلين. لم أرها منذ ثلاثة أشهر؛ لقد قطعت حقّاً مع پول، وهو بالفعل لا يعلم شيئاً عن أخبارها. ظننتُ أنّها تعيش نصيبها من الحياة وأنّها نسيتني، أحسستُ بالرّاحة: كانت مع ذلك تخيفني. ذات سبت في الصّباح بينما كنتُ أحلق وجهي، رنّ جرس بيتي. فتحتُ فوجدتُ وجهاً شاحباً لا أعرفُه.

– أنت جون بلومار؟ قالت.

تفحّصتني بصرامة. كانت يهوديّة نحيفة بعينين لامعتين.

– نعم، إنّه أنا.

– أنا صديقة إيلين برتراند. صديقتها إيفون. أريد التحدّث إليك.

رمقتُها بريبة. حدّثتني عنها إيلين من قبل: كانت شريكتها، روحها الهالكة. ما الذي تكيدُه ثانية؟

- حسناً، ماذا هناك؟ اجلسي.

جلست بالقرب من المدفأة. لم تكن النّار مشتعلة.

- إيلين تنتظر طفلاً، قالت.

- إيلين؟ ما هذه الحكاية؟

- ليست حكاية. أعني أنّ إيلين لن يكون لها هذا الطّفل. وجدتُ من سيتكفّل بالأمر.

لم تكن تنظر إليّ؛ كانت تنظر إلى الشّبكة المعدنيّة المحشُوّة بالكرات السّوداء الباردة. كان تفكيري مُشتّتاً.

- اسمعي، قلت. لماذا أتيتِ تقولين لي هذا الكلام؟ لستُ المعنِيَّ بهذا.

تألّقت عينا إيفون غضباً:

- أوه! طبعاً! قالت.

- على إيلين أن تتحدّث مع پول؛ يمكنها أن تمنحه ثقتها.

- آه! تظنّ أنّ هذا الطّفل من پول! قالت إيفون.

أحسستُ بلدغة في القلب:

- ليس ابنَه؟

بالتّأكيد لا! هزّت إيفون كتفيها: لا ينبغي بحال أن تحتفظ إيلين بالطّفل، أتفهم؟

- أفهم. كيف لي أن أساعدَك؟ تحتاجين إلى المال؟

- لا، لسنا في حاجة إلى مالك.

- إذًا؟

نظرت إليّ إيفون بتعالٍ مُحتجّة:

- إذًا، على أحدهم أن يقضي اللّيلة إلى جانبها؛ أنا لا أستطيع، أمّي مجنونة ولا يمكنني أن أتركها. ثمّ، إنّه لابدّ لها من غرفة.

تفحّصتها بريبة بدوري. نصبت لي إيلين مكائد كثيرة من قبل! ألا تكون هذه حيلة كي تمضي ليلة معي؟ كان من المستحيل ألاّ تقرأ شيئاً في عينيها السّوداوين الهاربتين.

– أفعلُ عن طواعية، قلت، لو اتّضح لي أن هذه الحكاية صحيحة.
– لكنّها صحيحة! قالت إيفون مغتاظة. أتعتقد أنّها تخترع أشياء كهذه للتّسلية؟
– مع إيلين، لا أحد يدري.
– أوه! هذا مخجل! قالت إيفون. فهمتُ الآن لمَ لا تريد التوجّه إليك بالطّلب بنفسها.
– لا تريد التوجّه إليّ؟
– لا. معها حقّ. لكنّنا لا نعرف أحداً غيرَكَ.
تردّدتُ.
– مع أنّ حياة إيلين ليس فيها سوى پول. كيف حصل ذلك؟
لمع برق في عينَيْ إيفون:
– ذات مساء، كنتَ قد طردتَها، قالت. جاءت تطلب منكَ المساعدة، وأنتَ طردتَها. ذهبت وسكرت مع رفاقها. و... حصل ذلك.
– هل يعلم الرّفيق؟
– هو شخصٌ أصوليّ قذر. لم تره منذ فترة طويلة.
خيّم صمت. نعم، إيلين كانت قادرة على القيام بذلك. لأنّي طردتُها. أحسستُ بلدغة في القلب مرّة أخرى.
– والشّخصُ الذي سيتكفّل بإيلين هل هو واثق من قدراته؟
– نعم، يبدو ذلك. فقط أجد صعوبة في العثور عليها. لقد أضعنا الكثير من الوقت. كان من السّهل القيام بذلك شهراً إلى الوراء. أضافت: لما كنّا احتجنا إليك.
– ما المطلوب منّي؟
– البقاء بجانبها. لو أحسّت بألم كبير اجعلها تستنشق «الأثير». لو اتّخذت الأمور مجرى خطيراً، لو لم ينتهِ كلُّ شيء في الصّباح، هاتف الرّقم التالي: 32-01 واطلُب السيّدة لوسي من جهة إيڤون؛ قل لها إنّ المريضة ليست بخير وستأتي فوراً.
– يمكنك التّعويل عليّ. قولي لإيلين إنّي أنتظرها.

- ستأتي عند السّادسة على الأرجح.

تردّدت إيفون لحظة:

- أرادت إيلين أن أنبّهك بأنّ الأمر قد يكون مزعجاً بالنّسبة إليك، لو انقلبت إلى السيّئ.

- لا عليها، قلتُ.

وقفت:

- إلى اللّقاء، إذًا، قالت.

صافحتني من دون ابتسامة. كانت عاتبة. نزلت السُلّم، انعطفت عند زاوية الشّارع، حملت معها صورتي، كانت تراها بتأنيب ونفور.

تناولتُ أدوات الحلاقة مجدّدا وهيّجتُ رغوة الصّابون في وجهي. التّأنيب سهل. هل أرادت أن أخون پول؟ أن أترك مادلين؟ لم يكن لديّ أيّ واجب تجاه إيلين. كشط الموسى جلدي. بأيّ عين ستنظر إليّ! كما لو كنتُ آثما. قلتُ بسخط: «لستُ أنا من تسبّب لها في الطّفل». كرّرتُ الكلمات بصوت مرتفع. لكن شكّاً مشحوناً بالإيحاءات قال داخل قلبي: «أحقّاً لستُ أنا؟».

- أأنتَ متأكّد من أنّي لن أزعجك كثيراً؟ قالت إيلين.

- لا، طبعاً. وقفت عند مدخل غرفتي بسحنة حياء لا أعرفُه لديها: كانت تحمل علبة كبيرة تحت ذراعها. ضاع أملي الأخير: لم تكن إيفون تكذب، لم تكن لعبة. تحت فستان إيلين الأزرق، تحت جلدها الطّفوليّ، كان هناك ذلك الشّيء الذي يتغذّى على دمها.

- تعالَيْ بسرعة، دفّئي نفسَك، قلت. أشعلتُ ناراً جيّدة.

كنتُ قد وضعتُ زهوراً على الطّاولة وأغطية جديدة على فراشي. نظرت حولها بتذبذب.

- هل يُزعِجُك أن تخرج قليلاً، ما يكفي فقط لأرتّب نفسي؟

أخذتُ معطَفي:

- ألا تريدين شيئاً؟

- لا، شكراً. أضافت: يمكنك الرّجوع خلال نصف ساعة.

كان الظّلام حالكاً في الخارج؛ كانت هناك نساء يتأبّطن عشّاقهنّ؛ نساءٌ بضحكات نسويّة حمراء. كان لإيلين حبيب؛ شخص قذر، حثالة دسّ يده تحت فستانها، لقد سبّب لها الألم، وهي طفلة. كانت العاملات يشترين من المحلّات وجبة المساء والخبز و«الجومبون»؛ سيأكلن وينمن، لن تكون اللّيلة أكثر من همزة وصل بين نهار انقضى وآخر سيولَد. لكن في الغرفة كانت إيلين مع الشّيء الذي تحمله في بطنها، وكانت اللّيلة صحراءَ خطيرة وسوداء علينا اجتيازها من دون نجدة. حين عدتُ كانت نائمة في السّرير؛ كانت ترتدي قميص نوم أبيض، محفوفاً بخياطة حمراء، قميص مقيمة. أمّا العلبة التي كانت تتأبّطها فقد اختفت.

- أنتِ بخير؟ قلت.

- أشعرُ بأنّي مضحكة.

كانت يداها ترتعشان؛ لاحظت أنّ سائر جسدها كان يرتعش؛ وأنّ أسنانها تصطكّ.

- تشعرين بالبرد؟

جلست بمحاذاة السّرير وأخذتُ يدها.

- لا، المسألة عصبيّة، غمغمت.

كانت أسنانها تصطكّ بقوّة، ويداها تقبضان على الغطاء.

- أنا أقرفك؟ قالت.

- صغيرتي المسكينة، ماذا تقولين؟

- بلى، هذا مقزّز، قالت بصوت متقطّع.

سالت دمعة على خدّها.

- اهدئي. اهدئي.

خفّت الرّعشة شيئاً فشيئاً؛ استرخت ورمقتني بنظرة مرحة.

- ينبغي أن تكون غاضباً، قالت.

- أنا؟ لماذا؟

- أنت لا ترغب في رؤيتي.

هززتُ كتفَيّ:

- كان ذلك في مصلحتك.

- ها أنتَ ترى، قالت، لقد أسأتَ الصّنع.

نظرتُ إليها عاجزاً. كان ذلك صحيحاً، إذًا! أنا المسؤول! عاملتُها كطفلة مشاكسة؛ كانت، حقّاً، فتاة صغيرة. وها إنّ جسمَها يتألّم بحدّة كما لو كان لامرأة. تقلّصت شفتاها وامتقع لونُها.

- تتألّمين؟

ظلّت بلا حركة، مُغمَضة العينين.

- راح الألم، قالت.

- إيلين! لِمَ فعلتِ ذلك؟

- أردتُ أن أنتقم، قالت.

- أيّ طريقة غريبة للانتقام!

- تصوّرتُ أنّكَ لو علِمت، لأصابك النّدم. تشنّج وجهها بالكامل هذه المرّة وغرزت أظفارها في راحة يدي: أوه! أنا أتألّم بشدّة!

لم تخطئ الهدف، بل لقد فاق نجاحُها سقف تطلّعاتها. كانت الكارثة تنهش قلبي مع كلّ ألم يعتصرُها، مع كلّ يأس يُساوِرُها.

كان الألم يخفّ لحظة قبل أن يعاودَها بشدّة: وكان يشتدّ في كلّ مرّة. إنّه أنا من جعلها تنام في هذا الفراش. لم أشأ أن أدخُلَ حياتها، لقد هربتُ، وها إنّ هربي يقلب حياتها رأساً على عقب. رفضتُ التدخّل في مصيرها لكنّي حطّمتُها أكثر ممّا لو أنّي اغتصبتُها. أنتِ تعانين بسببي، لأنّي موجود. من أصدر عليَّ هذا الحُكم؟

كانت تُسمَعُ تحت الغطاء قرقرة غريبة.

– أوه! قالت. أوه! أنا أتألّم.

تعلّقت بيدي كطوّافة ورمقتني؛ كانت يدي تضغطُ على يدها ولم أكن أرَ شيئاً عدا عينيها الزّائغتين وأنفها الصّغير الذي كان يتوسّطُ وجهها الشّاحب. «قاومي. سينتهي كلّ شيء. سينتهي كلّ شيء». كنتُ أكرّر الكلمات من دون توقّف. وكان الألم يمزّق بطنها من دون توقّف، كان ينخفضُ لحظة ثمّ يعبُرها مسعوراً. «سينتهي كلُّ شيء». وكان الوقتُ يمرّ، لم ينتهِ شيء. تحوّلت عينا إيلين. أحياناً أشعُر بأنّ صرخة ستخرج من بين شفتيها وكنتُ أضعُ راحة يدي على فمها.

– أوه! قالت، لم أعد أستطيع. بسرعة، بسرعة، أريد هدنة. كانت تسارع اشتداد الألم وتلاشيه بتكشيرة خبل: بسرعة، أريد هدنة. بسرعة، بسرعة.

رفعها ألم أشدّ مما كان قبل، وجعلها تهوي. غرقت عيناها.

– أوه! قالت. أوه! يا حُبّي!

صعد الدّمعُ إلى عينَيَّ. كان ذلك غير عادل قط. لم أكن أستحقّ حبّاً كهذا؛ أنا لا أستحقّ عذابها. أردتُ فقط أن أجنّبها العذاب. سامحيني، عزيزتي المسكينة. سامحيني، إيلين. إنّما لقد فات الأوان. *آه! كانت الأشياء سهلة. لا تذهبْ. وزاغت العينان في الوجه المُنتَفِخ: جلّاد. الصّدرُ مثقوب بفعل البندقية، طفلٌ يموت لأنّ إخوَتَهُ الأكبرُ منه لم يجرؤوا على الاحتفاظ به. «الصّفح». لقد فات الأوان.* جلاّد. كهذا الفجر الذي لا يلوحُ أبداً، هذا الفجر الذي أتمنّى أن أُبعِدَه إلى الأبد؛ كم كانت تلك اللّيلة طويلة، طويلة كقِصَرِها، تلك اللّيلة التي غادرها الأمل.

– لم أعد أستطيع، قالت. انخرطت في البكاء: هذا لا ينتهي. لم أعد قادرة.

ضمّختُ خرقة بالـ «أثير» وجعلتها تستنشقها.

– من هنا؟ قالت.

– إنّه أنا، بلومار.

لم تعرفني عيناها.

- انتظريني. سأعود حالاً، قلتُ.

لم تكن تسمَعُني. نزلتُ السُلّم. اقشعرّ بدني بفعل البرد في الخارج. كان هناك بعضُ المارّة في شارع «كليشي»؛ لقد ناموا ليلة البارحة؛ لقد استيقظوا للتوّ وها هم يمشون متعجّلين في هذا الصّباحِ الذّاهل الحزين كوجه مولود جديد؛ صباح جديد؛ لكن بالنّسبة إليّ، لَم يبدأ اليوم بعد: كانت تحول بيني وبينه تلك اللّيلة التي لا تنزاحُ أبداً: لم يكن لونُ السّماء ليُغيِّر شيئاً. دخلتُ مقهى فتح أبوابَه للتوّ. كان النّادل بمئزره الأزرق ينظّف الزّنك بخرقة.

- أريد أن أقوم بمكالمة.

- تفضّل.

أخذتُ القطعة وهاتفتُ الـ 32-01.

- ماذا هناك، إذًا؟ قال صوت.

- لا أدري. الأمور سيّئة. يجب أن تأتي.

- في هذه السّاعة! لن أجد تاكسي.

- أؤكّد لكِ أنّ الأمور سيّئة.

أحسستُ أنّ المرأة تردّدت في الطّرف الآخر من الخطّ:

- أخشى أنّك تزعجني لأجل لا شيء؟

- لا. مضى عليها الآن اثنتا عشرة ساعة وهي تتألّم. لم تعد تحتمِل!

- تعلم أنّي امرأة عجوز، قال الصّوت. ليس من السّهل أن أتنقّل. لا بأس، سآتي.

صعدتُ إلى شقّتي وبقيت إلى جانب إيلين.

كانت عيناها لا تزالان مغمضتين. هل هو مفعول «الأثير»؟ أم التّعب؟ لم تكن تئنّ. بدا كأنّ جسمها ليس فيه قطرة دم واحدة. ظللتُ منتبهاً أنصتُ إلى أدنى صوتٍ في الشّارع. كنتُ خائفاً. قبلَ اثنتيْ عشرة ساعة، كانت تنام على سريري غريبة؛ لكنّ هذا الصّراع مع الألم وحّدنا كما لو كنّا نتعانق،

كانت دمي ولحمي، كنتُ على استعداد لأقدّم حياتي لإنقاذها. طفلتي؛ طفلتي الصّغيرة المسكينة. كم كانت شابّة! كانت تحبّ الشّوكولاتة والدرّاجات، كانت تندفع في الحياة بجرأة صبيانيّة. وها هي تنام هنا، كان يسيل من بطنها دم نساءٍ أحمر، وشبابها وبهجتها بقرقرة بذيئة.

– إذًا، صغيرتي، ما الذي يجري؟ قالت العجوز.

رمقتُها بقلق. مُجهِضة. كانت، بشكل لا يُصَدَّق، تشبه المظهر الذي يجب أن تكون عليه. كانت ترتدي الأسود، بشعر أبيض ووجنتين ورديّتين رخوتين وفم برتقاليّ؛ كانت لها عينا امرأة عجوز، شاحبتان، وتومضان، وكانت رمصاء. هل كانت ترى بوضوح؟ كان من السّهل تخمين لحم سيّئ الغسل تحت الأصباغ. نظرتُ إلى أصابعها ذات الأظفار المطليّة. كانت واثقة ممّا تفعل. رفعت الغطاء واستدرتُ. ملأت الغرفة رائحة باهتة.

– لم يحن بعد، قالت. حسناً فعلتَ إذ أرسلت في طلبي. سأساعدك. الآن، سينتهي كلّ شيء.

– سينتهي؟ قالت إيلين.

– خلال ثانية.

هل كلّ شيء على ما يُرام؟ قلت.

– أكيد. ضحكت: تبدو مُضطرباً تماماً، توقّعتُ الأسوأ. إلهي! كأنّك لم ترَ شيئاً. سمعتها تغمغم خلف ظهري: أين كيسي؟ كم هو تعيس أن يتقدّم المرء في السنّ؛ لم أعد أرى على بعد ثلاث خطوات.

– ها هو، قلت.

تناولت الكيس الأسود، فتحته؛ لمحتُ منديلاً، علبة بودرة، حافظة نقود؛ غاصت يدها في الحقيبة، يدها ذات الأظفار المطليّة وأخرجت مقصّات مذهّبة صغيرة. اقتربتُ من النّافذة وحدّقتُ في الواجهة الرّماديّة للبناية من الجهة الأخرى للشّارع. كنتُ أشعرُ بالبرد. لم أجرؤ أن أقول لها أن تعقّم المقصّات.

– لا تخافي، صغيرتي.

تناهت إليّ أنفاس إيلين المهتزّة.

- ادفعي، قالت العجوز. ادفعي بقوّة. هكذا، هكذا...

أنّت إيلين: خرجت من بين شفتيها صرخة مبحوحة.

- هكذا، قالت العجوز، انتهى كلُّ شيء. نادتني:

سيّدي!

استدرتُ. كانت تحمل إناءً بين يديها. كان لونُ أصابعها ومعصمها وساعدها أحمرَ كأظفارها.

- أفرغ الإناء.

كانت إيلين نائمة ممدّدة على طولها، مغمضة العينين. كان قميصها الطّفوليّ يكشف عن ركبتيها؛ تحت ساقيها، كان هناك قماش مُشَمَّع انتشر فوقه قطن عليه آثار دم. أخذتُ الآنية من يدها، تجاوزتُ سطح الدّرج وفتحتُ باب الحمّام. كانت الآنية ممتلئة بالدّم وفوق السّائل الأحمر تطفو أجسامٌ رخوة. أفرغتُ الآنية وصرفتُ الماء. حين دخلتُ الغرفة، كانت العجوز بصدد غسل القطن من الدّم في حوض الغسيل.

- أريد ورقة كبيرة، قالت. سألفّ هذا القطن وسترمي به في المجاري.

- هل هي بخير؟ قلت.

- نعم، طبعاً. الأمرُ ليس بهذه الخطورة. ضحكت: لابدّ أنّك غيرُ متعوّد.

رفعت يديها وعدّلت قبّعتها أمام المرآة. أجّجتُ النّار التي بدأت تخفت، وحين رحلت العجوز جلستُ بجانب إيلين. ابتسمت.

- انتهى، قالت. لا أصدّق. أشعر بأنّي بخير!

- تعلمين، قلت، يمكنك المكوث هنا المدّة التي تشائين.

- لا. قالت لي المرأة الطيّبة إنّ في وسعي المغادرة. أفضّل العودة. استندت إلى الوسائد: أتريد أن تراني من وقت إلى آخر!

- إذا أردتِ.

- تعرف أنّي أحبّ هذا.
- كان أملي هو أن تنسَيني، قلت.
- نعم. عاملتني ككلب يطاردونه بالحجارة. لكن هذا لم ينفع.
- أرى ذلك جيّداً.
- لستُ كلباً صغيراً. رمقتني بعتاب: أنتَ غريب. كرّرتَ لي مراراً أنّك تحترم حرّية الآخرين. وها أنت تقرّر نيابة عنّي، أنتَ تعاملُني كشيء.
- لا أحبّ أن تكوني بائسة.
- وإن كنتُ أحبُّ أن أكون بائسة؟ أنا أختار.
- نعم، قلتُ. الاختيار لكِ.
ألصقت خدّها بيدي.
- لقد اخترت، قالت.
أخذتُها بين ذراعيَّ وقبّلتُ خدّها.
«أنا أختار». ألستِ أنتِ من قال هذه الكلمات؟ إنّه أنتِ، لم أقتُلْكِ، حبّي.

لكن من يقول لي «إنّه أنا»، سواها؟ أهدابُك أخفتْ عينيْكِ، شفتاكِ تكمّشتا فوق أسنانِك، أسنانُكِ القويّة التي تابعتِ الضّحِكَ في لحمِك المتآكل. لن تحدّثيني.

هو، لم يختَرْ. كنّا نركُض في الثّلج مرحين، وتقاطعنا نحن وإيّاه؛ كان الظّلامُ حالكاً ولم أكن متأكّداً من أنّه رآنا؛ إنّما شعرتُ بأنّ وجهي قد احمَرَّ. كانت ذراعانا متشابكتين وكنّا نحضُر أكياسَ كستناء ساخنة: كان في إمكانه رؤيَتنا؛ كنتُ هناك، وكانت إيلين هناك أيضاً: كان ذلك معقّداً كفاية. لكن لم يكن هذا كلَّ شيء. كان هناك پول، ومادلين. وباقي البشر في الأفق. أولئك الذين لم يختاروا شيئاً.

صباح اليوم التّالي، حين وصلتُ إلى الورشة، اتجّهتُ نحو پول كي أصافحه. كانت المدقّقات قد اتّخذن أماكنهنّ، منتصبات في الأعلى

يمسكن بملاقطهن الصّغيرة؛ كانت النّساء دائماً يحضرن للعمل أوّلاً. شرع پول في الاشتغال على تنضيد الصّفحات؛ وضع العُلَب على الرّخام حيث الهواء المضغوط.

- تقاطعنا أمس، ولم ترني، قلت. كنتُ مع إيلين.

- نعم، رأيتُكما، قال.

كان وجهه طلقاً، وكان جبينه عنيداً نوعاً ما وكان على فمه أمر طفوليّ. فككتُ أزرار معطفي الرّماديّ. تحتنا في صالة الطّباعة بدأت الآلات تشتغل.

- لم أفهم أبداً ما يدور بينكما، قال.

- منذ انفصلتُما لم أرها قطّ. ثمّ جاءت تبحث عنّي. تردّدت: أنت تعرفُها؛ تحبّ كلَّ جديد، وتسأم بسرعة.

- آه، هكذا، إذًا! قال پول.

- فعلتُ كلَّ شيء كي أحبطها، قلت.

- كان عليّ أن أحدس ذلك، قال پول. لم تيأس؟

- أكنّ لها الصّداقة. لكنّي لا أحبُّها. قلتُ لها ذلك. وكانت تجيب بأنّه لا أهمّية لذلك.

هزّ پول كتفيْه:

- كما تشاء! لم يعد أمرها يهمّني كثيراً.

رحتُ لأتّخذ مكاني أمام اللّوحة؛ كان من غير المجدي أن أشرح شيئاً. مهما قلتُ له، فإنّ ذلك لن يبطل الطّريق الذي قطعناه، متردّدَيْن، إلى غاية قبلتنا الأولى؛ كان لابدّ أن يكون أنا؛ مادام يحتلّ مكاناً غريباً، لن يستوعِبَ منّي سوى أشياء خارجيّة. ركضتُ في الثّلج مع إيلين وفكّر: «لقد أخذ منّي إيلين. لا يحبّها. مع ذلك قبل بحبِّها». خرجتُ من الحزب بعد الكثير من الجدل مع نفسي ولابدّ أنّه فكّر: «إنّه ابن بورجوازيّ». ما فهمتُه فجأة هو أنّ الخارج ليس مجرّد ظاهر وهميّ: إنّها أشياء منتمية إليَّ مثلها مثل جسدي وبغصّة في الحنجرة أعلن حقيقتها: «هذا ليس عدلاً». لكنّ قلّة

العدل لم تكن ضمن حقد پول؛ كانت في صميم قلبي، في تلك اللّعنة التي أستشعرها باستمرار، والتي أرفضها بعنف: لعنة أن تكون آخر.

«هذا غيرُ صحيح، لستُ أنا». كانت بي رغبة في الصّراخ بهذه الكلمات عندما رمقتني إيلين بنظرات مشحونة بالإعجاب والحبّ. مع أنّه كان صحيحاً: إنّه أنا. أنا من أفرغ حافظة أوراقه فوق مكتب أبي، أنا من استبدل ملابس البورجوازيّ بمعطف رماديّ؛ تلك الغرفة كانت لي؛ كان هذا وجهي. مع لحمي كان هذا الوجهُ يكوّن هذا البطل الذي أقاسمُه الذّكريات والأفكار، كانت الابتسامات لي لكن في أيّ منها لم أكن أتعرّف على نفسي.

– لقد ارتكبتُ ذنب الثّقة الكبيرة، قلت.

– كيف؟ قالت. كانت تجلس بجانبي على الكنبة، كان رأسُها على كتفي كحيوان صغير آمن.

– أشعرُ بأنّي انزلقتُ تحت جلد شخصٍ آخر.

– تريد أن تقول إني لا أراكَ كما أنتَ؟

– نعم، هو ذاك.

ابتسمت لي.

– ما هي حقيقتك، قالت.

– لستُ لطيفاً بشكل محدّد، قلت. حين تسألينني لِمَ لا أحبّك، أجيبُك بأنّك صغيرة جدّاً، بأنّنا لا نحمل نفس الهموم. نعم. لكن أيضاً لأنّ دمي فقير. لم أحبّ يوماً. ألفّ وأدور حول ندمي، حول تردّدي، لا همّ لي سوى ألاّ ألوّث يدي. أسمّي هذا جحوداً من النّوع المُصاب بالإمساك. أؤاخذ پول، وأؤاخذكِ...

قاطعتني إيلين حين وضعت على شفتَيَّ شفتيها العذبتين.

– هذه هي قوّتُكَ، أن تكتفي بنفسك، أنتَ تترك الانطباع بأنّك خُلقتَ وحدك.

– ليس لديّ مشكلة مع الاكتفاء بنفسي: لا أحتاج إلى الكثير.

– ما الذي قد تحتاج إليه مثلاً؟ قالت. لمعت عيناها. كان من غير المجدي المتابعة؛ تلك الحقيقة التي تسكنني، لم أكن قادراً على انتزاعها سوى بواسطة الكلمات؛ وتلك الكلمات كانت ترنّ في أذنَيْ إيلين متّخذة معنى غير متوقّع؛ لا تعود لي منذ اللّحظة التي تخرج فيها من بين شفَتَيَّ؛ ما تكتشفه فيها، رغماً عنّي، هو ذاك الجهد المبذول لأكون نزيهاً، تواضع مؤثّر ينتشي له قلبها.

– أنتَ رأسٌ عنيد، قالت.

– أوه! على الأقلّ، لم يكن من السّهل إقناعكِ بكرهي.

نظرت إلَيَّ بشغف حتّى أنّ رغبة انتابتني في أن أخفِيَ وجهي. من كانت ترى؟ «ليس أنا». بل كنتُ أنا، كما أنا خارج نفسي، تحت أنظار غريبة. ذاك الرّفيق الغادر، البطل الحكيم والواثق من نفسه، كنتُ أنا رغماً عنّي.

حكّت إيلين وجهها على خدّي.

– أردتَ أن أكرهَكَ؟

– لم أشأ أن تفسِدي حياتكِ بسببي.

– ليس هناك خطر، قالت؛ أدارت خصلة من شعري على إصبعها: ليس أمراً مسلّياً أن يُحَبّ المرء بهذا الشّكل؛ أعتقد أنّه أكثر أهمّية أن تجد من تحبُّه.

– بمرور الوقت، يتحوّل حبّ من جهة واحدة إلى مأساة. أحطتُها بذراعي. أريد أن أكون متأكّداً من أمر ما: أن لا تضيّعي لأجلي أيّ فرصة ثمينة قد تُتاح لكِ؟

رمقتني بخنوع.

– يجب أن تستمرّي في الرّغبة في معرفة النّاس، رؤية العالم. إذا اقترح عليكِ أهلُك، مثلاً، الذّهاب إلى أمريكا كما كان ذلك مطروحاً، عليكِ أن ترحلي معهم بغبطة.

– طبعاً، قالت. أتمنّى أن يحدث في حياتي أمر آخر غيرَكَ. التصقت بي: لكن لاحقاً، ليس الآن.

– لا، قلتُ. ليس الآن. قبّلتُ وجهها بحنان. كانت هناك فترات تكون فيها جذّابة على نحو أوشكُ فيه على أن أقول لها بصدق. «أحبُّكِ». لكن ماذا؟ إنّ حضورها يلامسُ أعماقي، لكن بعيداً عنها، لم أكن أفكّر فيها: كنتُ سأتركُها يوماً من دون شفقة أو ندم. حناني واحترامي كانا بعيدين كلّ البعد عن الحبّ. كانت تغمض عينيها في القُبَل، بتعبير طاعة. ثمّ نظرت إليّ ومرّرت لسانها على شفتيها.

– اسمَع، قالت.

– ماذا إذًا؟

تردّدت.

– في فترة لا أدري متى يأتي موعدها، سأحاول الابتعاد عنك، أعدُك. لكن هذا لن يمنعك من الاستمرار في بناء العلاقات الأقصى الممكنة.

احتضنتُها؛ شجاعتُها لامست قلبي.

– هل علينا أن نتعلّق ببعضنا أكثر ما دام الأمرُ مؤقّتاً؟

– لا يهم، قالت، لن نفسِدَ الحاضر خوفاً على الآتي. أرخت رأسها إلى الوراء، اجتمع شعرُها في شكل عَجَلة على المخدّة: أريد أن أكون لكَ بالكامل، همست.

على الأقلّ، عشتُ دقائق في حياتي، لم أراوغ خلالها، ولم أساوم فيها ضميري. وعرفتِ كيف تنقذيني من ندمي. مع مادلين، كنّا نمارسُ الحبّ بصمت وغالباً في اللّيل: كانت تتلقّى اللذّة بنوع من الرّعب كما لو أنّها تتلقّى الأصوات والنّظرات، بل والوجه الجامد للأشياء؛ كنتُ أحسُّ وأنا ألامسُها كأنّي أرتكب جرماً. أنتِ، لم تكوني بين ذراعَيَّ جسماً، بل امرأة بالكامل. كنتِ تبتسمين لي وجهاً لوجه، كي أزداد يقيناً بأنّكِ هنا، حرّة، بأنّك لم تضيعي في اضطرابات دمِكِ. لم تكوني تشعرين بأنّك فريسة لنهاية مُخجلة، كان شيء ما في صوتِك، في ابتسامتك يقول، في ذروة عناقنا: «لأنّي واعية تماماً». وأنا، بثبات، أعلنُكِ حرّة، كنتِ تمنحينني السّلام مع نفسي. كنتُ بلا ندم، أمامكِ. أمامَكِ. لكنّنا لم نكن وحدنا في العالم.

- ثمّة جديد في علاقتي بإيلين، قلت.

- نعم، قالت مادلين بلامبالاة.

حاولتُ إطلاعها على مستجدّات قصّتي. لكن كانت في كلّ مرّة أفتح معها الموضوع تحدّثني في أمر آخر.

- نعم. لقد مارستُ معها الحبَّ، كي أنهي.

- لم أفكّر في أن تكون وفيّاً لي مدى حياتِك، قالت مادلين.

لم يزعجها شيء معي؛ لم أقطع معها أيّ صلة كانت بيننا؛ مع ذلك كنتُ متضايقاً. أنا على يقين أنّ المعلومة أزعجتها. ليس لديها ما تقول، فكّرتُ بإثارة؛ لعلّها كانت تدرك ذلك: لم تقل شيئاً. بعد قليل تبدو كأنّها نسِيَتْ ما بحتُ به لها. بالنّسبة إلى مادلين لم يكن هناك ما هو صحيح تماماً أو خاطئ تماماً، كانت تعرف كيف تستغلّ هذا التشويش وكانت تبحر، بلامبالاة، في مياه غير حقيقيّة تماماً. طلبت منّي، فقط، ألاّ أجبرها على الإمعان في وجود إيلين. لم تكن إيلين من جهتها تحدّثني عن مادلين. كانتا لا تعرفان بعضهما بعضا حتّى أنّي أتساءل بغرابة أحياناً كيف يمكنني التّفكير فيهما كلتيهما معاً. كانت إيلين تمشي بمحاذاتي، بخطى ثابتة، غنيّة بذكرياتها، ترنو إلى مستقبَلٍ واحد: ألا يكون في هذا الامتلاء حيّزٌ لمادلين. ومادلين، في غرفتها بالفندق التي تفوح منها رائحة مبيد الحشرات، كانت امتلاءً، نُفيَت منه إيلين. كلّ منهما كانت مشغولة بامتلائها، كانتا منفصلتين كنقطتَيْ سديم متضادّتين في الأثير، كصدفتين ملتصقتين بجانِبَي صخرة. مع ذلك كنتُ هنا، حاضراً، لهذه ولتلك، مانحاً إيّاهما الحياة معاً.

- كيف لا ترى هذا مقلقاً، قلتُ لمارسيل. التّصوّر بأنّه من الممكن تشكيل مصير شخصٍ آخر، غصباً عنه.

كنّا جالِسَيْن في مطعم صغير في شارع كليشي؛ كنّا نأكُل معكرونة بالنّقانق. كان مارسيل يرتدي بذلة مهترئة، حول رقبته كان يضع منديلاً نرويجياً بألوان باهتة بفعل الغبار ليُخفي قميصَه. نفى برأسه الكبير.

- لكنّي لا أطلُبُ شيئاً من دينيس. يمكنها أن تفعل بحياتها ما تشاء.

– أنت تعرف أنّ هذا غيرُ صحيح. لا يمكنها أن تصنع منك إنساناً ثريّاً ولا مشهوراً ولا أن تحبَّها.

انتهى بهما الأمر بترك الورشة الخالية؛ استأجرا شقة غريبة الشّكل في الطّابق السّابع، حيثُ كان السّقف عبارة عن مطلّة زجاجيّة عريضة وجدرانها مليئة بالنّوافذ. كان الهواء يدخل من كلّ مكان؛ والجدران ترشح رطوبة. «أُضيّعُ ساعة كلّ صباح في إشعال المدفأة، تقول لي دينيس بغضب. ولم يكن ذلك يمنع من أن نرتجف طوال النّهار».

– يمكننا دائماً أن نجد مخرجاً، قال مارسيل.

– جيّد أن نقول للنّاس: تصرّفوا.

– لماذا؟ أنا أتصرّف جيّداً، قال مارسيل. مادامت تسلُك طريقها في هذا العالم فهذا لا يهمّ أحداً غيرها. أمّا أنت فمسؤول عن العالم الذي قذفت بنفسك فيه.

ظلّ مارسيل يراقب عاهرة شقراء تأكُل قطعة سُجق متعجّلة قبل الصّعود إلى مونمارتر الأثرياء. لم يكن يبدو أنّه يسمعني، لكنّه كان يسمعني.

– النّاسُ أحرار، قلت، لكن، فقط، كلّ منهم، مسؤول عن نفسِه: لا نستطيع المساس بحرّياتهم، ولا أن نقرّر شيئاً بشأنهم، ولا أن نطالبهم بها. هذا ما يصعُب عليَّ؛ ما يصنع قيمة للإنسان لا وجود إلّا له؛ لا لي: أنا لا أطالُ سوى الخارج؛ ولستُ سوى خارج بالنّسبة إليه، مجرّد معطى؛ معطى لم أختر، حتّى، أن أكونه...

– اهدأ، إذًا، قال مارسيل؛ ما دمتَ لا تختار فلست في حاجة إلى أن توجع نفسَك.

– لم أختر أن أكون، لكنّي كائن. عبثٌ مسؤول عن نفسِه، هذا ما أمثّلُه.

– يجب أن يكون هناك شيء ما.

– لكن كان من الممكن أن يكون شيئاً آخر. من دونِك كانت دينيس ستحظى بحياة أخرى.

– أيّ حياة؟ قال مارسيل. كلّ حياة مُحطّمة.

- لو استمْررت في الرّسم...

قاطعني.

- لو كنتُ رسّام صالونات متعقّلاً، هل كانت لتحبّني؟ لو... هكذا يُقال: لو أنّي فعلتُ كذا، لو أنّي لم أفعل كذا. لكنّ الأشياء هي ما هي عليه. رمقني هازئا: أراكَ معتدّاً بنفسِك لأنّك ما زلتَ تحمل كمّاً هائلاً من النّدم.

يخطُرُ لي أحياناً أنّي آخذ الأمور بحساسيّة كبيرة: يبدو أنّ البقيّة يعيشون ببساطة كبيرة. بالنّسبة إليّ، لا شيء يبدو طبيعيّاً. أتمنّى أن تكون كلّ حياة بشريّة حرّية مجرّدة وشفّافة: وأجد نفسي في حياة الآخرين حاجزاً مُظلماً؛ لا أستطيع أن أحسم. كنتُ أتجنّب پول؛ وأنظر إلى مادلين بضيق. حتّى أمام إيلين، كنت أشعر بالقلق. فقدت قبلاتنا ولمساتنا بسرعة صفاءها السّعيد كما في الأيّام الأولى. أحياناً كانت هناك ظلال تمرُّ على وجهها وفيما كنتُ أقبّلها كانت تغمض عينيها بسحنة ألم؛ أحياناً كانت تنسحب في قلب اللذّة فجأة. أحيط كتفها بذراعي.

- ماذا هناك أيّتها الشّرسة؟

كانت تؤرجح ساقيها، جالسة على طرف السّرير، كانت تحدّق في الفراغ بحدّة؛ لم تكن قد أكملت ارتداء ملابسها بعد؛ كان شعرها يسقط فوضويّاً على كتفيها. قفزت.

- لا شيء.

- ماذا إذاً؟ لِمَ انقلبتِ فجأة؟

- أوه! فكّرت، فقط، في أنّه من المؤسف أن يضيع كلّ هذا الوقت؛ سيكون عليَّ أن أرحَل ولم نكن قد تحدّثنا ما فيه الكفاية.

كانت نيّتُها سيّئة؛ عرفتُ ذلك، فوراً، من صوتها المهتزّ؛ بالتّأكيد، كنتُ أحبّ جسمها. لكن، لو أنّ أغلب لقاءاتنا تمرّ في اللّذة، فهذا خطؤها وليس خطئي، تعرف ذلك جيّداً.

- عرضتُ عليكِ نزهة.

- طبعا! أنتَ، لا فرق لديك.

– ما الذي لا فرقَ فيه لديَّ؟ ألاّ أقبّلك؟ لكنّك أنت من قرّرتِ أنّه وقتٌ ضائع.

– وقتٌ ضائع لأنّك لم تكن ترغب.

– أنتِ حمقاء، قلت. ألا أبدو مُهتَمّاً بجسمك؟

– نعم، قالت، كأيّ جسم آخر.

تحفّظتُ على الكلام برهة. كان ذلك بديهيّاً. كان لابدّ أن نصل إلى هذه النّقطة يوماً ما.

– لمَ تقولين هذا؟ قلت.

– قلتُ ذلك لأنّه صحيح.

– لم يرُق لك أن يكون لي علاقة بمادلين؟

– تريد أن يسعدني ذلك؟

– ظننتُ أنّك لا تكترثين.

هزّت كتفيها وطفرت الدّموع من عينيها.

– تعرفين أنّ مادلين موجودة في حياتي، قلت. لماذا اليوم فجأة...؟

– ليس اليوم، قالت.

– كان عليكِ، إذًا، أن تحدّثيني بذلك من قبل.

– ماذا كان سيُغيّر؟

طأطأتُ رأسي. كان يروّعني أن أراها تبكي. لكنّي أعلم أنّ مادلين كانت ستُجرَحُ بصورة فيها عذاب كبير لو عرضتُ عليها تحويراً في علاقتنا.

– اسمعي، تعرفين أنّ ما أكنّه لمادلين ليس الحبّ بأيّ شكل من الأشكال؛ شخصيّاً، سأوقف كلّ علاقة جسديّة لي معها غيرَ آسف.

– حين أفكّر! قالت إيلين. بأنّك تنظر، فقط، تنظر إليها كما تنظر إليَّ. تُقبّلها... هذا غير محتَمَل، انفجرت يائسة.

ضممتُها بين ذراعَيّ بصمت؛ أحسستُ بجسمها يرتعش.

– فيما مضى، لم تكوني تهتمّين بمادلين.

- لن يكون الأمر كذي قبل.

- لماذا؟

- لأنّي بدأتُ أفكّر في الأمر. ندّ عنها ما يشبه الضّحكة: ثمّ، عليكَ أن تأخذ حذرَك: يوماً ما حضرتَ موعداً، وكان على رقبتك أحمر الشّفاه. يوم كنّا في مقبرة الكلاب.

- آه! قلت، يوم أُصبتِ بذلك الصّداع الرّهيب.

- لم يكن لديّ صداع.

شعرتُ بالاحمرار يغزو وجهي. القصّة ذاتُها. على لحمي كانت هناك بقعة حمراء لم تكن موجودة في نظري لكنّ عينيكِ كانتا تراهما؛ بقعة ميّتة هي اللّدغة التي في قلبِك.

- إيلين، آسف...

- أوه! بكت: لا يمكنني أن أقبّلك من دون التّفكير في أنّها تقبّلُك أيضاً.

رمقتها بكآبة. كانت لي بالكامل. كان لابدّ من أن يكون في داخلي حيّزٌ لها، يمكنها أن تملأه، كي تنجو هديّتي من أن تكون عبثاً. أعرف جيّداً أيّ نغمة تترك لمساتي لديها: أنا وحدي مسؤول عمّا إذا كانت تعتبر حلاوتها وهماً أم حقيقة. لم أكن أخضعها إلى عذاب جسديّ وأنا أحتضن امرأة أخرى: كنتُ أحبطُ شغفها وقلبها.

- اسمعي، قلت، سأحاول التحدّث إلى مادلين. مسحت عينيها بنوع من القبول؛ لكنّها حافظت على ملامحها الحزينة.

- ربّما سوّيتُ المسألة معها بأسهل ممّا أتصوّر، قلت.

منذ مدّة دأبت مادلين على إبقاء مسافة متزايدة بين مواعيدنا؛ كانت غائبة وهي معي، شاردة أكثر من عادتها.

- أنت طيّب! قالت إيلين.

لمستُ شعرها.

- لا تبدين سعيدة بالمرّة.

- آه! لأنّ هذا لا يعني الكثير! قالت. ماذا يفيد ألاّ تنام مع مادلين، وأنت ترغب في فعل ذلك؟

- قلتُ لك إني لا أرغب.

- نعم، لكن، في النّهاية، هذا يلائمك أكثر. مسحت دمعة: هذا غباء؛ يمكنك أن تستمرَّ لو اردتَ.

- سأرى ما يمكنني فعلُه.

- لا، أرجوك، لا تغيّر شيئاً، قالت بعنف مباغت. لا فرق لديّ، الأشياء مركّبة على ذلك النّحو. أخفت وجهها بيديها: أوه! كم هذا مخزٍ!

أخذتها بين ذراعيَّ، لكنّي لم أستطع الكلام. ما يجب عليّ القيام به، هو ألاّ أشتهي أيّ امرأة سواها، ما ستقدّمه لي، لم يكن عليّ أن آخذه سوى منها وحدها. فشلت رقّتي في إحباط هذه الأمنية؛ لا أملك سوى أفعالي، كنتُ ما أنا عليه رغماً عنها، وعنّي، لم يكن هناك ما يمكن فعله.

كنتُ قادراً على أن أخاطر بحركة، بعبارة. «سأحاول التحدّث إلى مادلين». لكن أمام مادلين كانت حنجرتي تنعقد. كانت هناك، تحرّك قهوة ويظهر أنّها غائبة تماماً، مشغولة بعدم التّفكير في شيء، في عدم تصديق أيّ شيء. في أعماقها، اضطرب الحزن، والإهانة، والنّدم، وتفاقمت يوماً بعد آخر؛ كلمة واحدة كانت كفيلة بكسر الآنية؛ لم أجد الجرأة الكافية لأنطق بها. حين عدت إلى إيلين، سألتني عيناها. «ألم تقل لها شيئاً بعد؟» كان حُزنها مشروعاً، كما هي نقمة مادلين مشروعة أيضاً. كيف أختار؟ دموع مادلين أم دموع إيلين؟ لم تكن دموعي؛ كيف أقارن بين مرارتين غريبتين عنّي؟ لستُ ربّاً أيضاً.

- إذا، الأربعاء، ترغبين؟ قلت وأنا أمدّ يدي إلى مادلين.

- لا. ليس هذا الأربعاء. أدخلت يديها في قفّازيها بانشغال: الأربعاء أخرجُ مع شارل أرنو.

- أرنو، قلت متفاجئاً. أنت ترينَه؟

- مؤكّد، منذ شهر، قالت مادلين؛ ابتسمت بغموض: خرج من

المصحّة، أتمّ إعادة التّأهيل؛ فقط، ليتحمّل النّقاهة، كان يشرب خلسة. إنّه مهترئ بالكامل.

إنّه الأمر الوحيد الذي أثّرتُ به في مادلين، أن تقطع مع ذاك المدمن ومع المخدّر. بالنّسبة إلى الكحول، كانت تشرب باعتدال منذ عرفتني.

- لن تستأنفي، على أيّ حال، قلت.

- أستأنف ماذا؟

- الشّراب، وكلّ الحماقات الأخرى.

رمقتني بنظرة ناعسة.

- ماذا يغيّر بالنّسبة إليك؟

تردّدت. كان في وسعي أن آخذها من ذراعها، أن أجرّها بعيداً عن مدخل محطّة المترو وأحدّثها. «لا تنكّدي حياتك. علاقتي بإيلين لا دخل لها في ما بيننا. لنستعد لقاءاتنا كذي قبل. ابتعدي عن هذا الشّخص». يمكنني أن أناشدها، أن أتوسّل إليها. كانت ستسمعني بكسل، لكن ربّما كانت ستحسّ بحرارة صوتي. كنتُ متأكّداً من أنّها ستطيعني لو أنّي فعلت. لكن لاح لي وجه إيلين المُشوّش. «حين أفكّر في أنّها تقبّلُك!» كانت خيانة أن أجدّد علاقتي مع مادلين.

- أوه! لا شيء، قلت. ساد صمت قصير بيننا. هل يناسبك الخميس؟

- حسناً، الخميس.

ابتعدتُ. لم أكن راضياً عمّا فعلتُه. «لم يكن أمامي خيار آخر». لكنّ العذر القديم بات مستنزفاً. لم يكن أمامي خيار آخر؛ وظلّت أمّي وحيدة في الصّالون المتجمّد للمنزل الكبير؛ وعادت مادلين إلى المخدّرات. إنّها ليست مسألة «فِعْل»؛ لم يكن ثمّة خطأ في أيّ تصرّف. بدأتُ أفهم: إنّها عجينة كياني؛ إنّها أنا. فكّرتُ للمرّة الأولى: ربّما ليس هناك حلّ.

أذنب لو تكلّمتُ. أذنب لو سكتُّ. أنا مخطئ في كلّ حال. أدرتُ المكابح بين أصابعي. ذاتُ الحكاية تُستأنف. حكايتي. «ماذا تريد منّي؟»

لم أرها منذ شهر تقريباً؛ مرّت مرّتين بالمطعم حيثُ كنّا أنا وإيلين نتناول العشاء وطلبت منّي بابتسامة مستفزّة أن أقرضها بعض المال «لأشرب». كانت تشرب؛ وكانت تضطجع مع أرنو؛ وتتعاطى المخدّر. دخلتُ مقهى الـ «فورش»، بقلب منقبض. هل يزن بقيّة الرّجال في الأرض أقلّ منّي؟ أم إنّهم قليلاً ما يكترثون بالأثر الذي يتركونه خلفَهُم؟ حيثُما ذهبتُ، كنتُ ألحظ العلامات المقلقة بشأن حضوري. أم هل هو مصير أُلقِيَ به في طريقي: كلّ إيماءة منّي أو رفض كانت تخلّف خطراً قاتلاً. كنتُ أظنّ أنّي أقبّل إيلين؛ وأنّي أخون پول وأجرحُ مادلين.

- أيّ حماقة ارتكَبتْ؟ فكّرتُ وأنا أدفعُ باب المقهى.

كانت مادلين تحتسي الشوكولاتة بهدوء، كانت تقرأ صحيفة المساء؛ ومن دون أن تصافحني، كما لو أنّي أعود إلى مكاني بعد غياب دام عشر دقائق، أشارت إليّ بمقال حول الحرب في أسبانيا:

- الأوغاد! قالت لي. تركوهم يموتون من دون أن يرسلوا لهم إغاثة.

- تعرفين، كلّ تدخّل قد تكون تكاليفه ثقيلة.

- لِمَ لا نجرّب إضراباً؟ ربّما رضخ «بلام»[10] Blum.

- أكره الإضراب السّياسي، قلت.

أنا أيضاً، أريد لنظام فرانكو أن يُسحَق؛ لكنّ هذه الأمنية المنفردة، وهذا الارتعاش الحميم لجسمي، لا أجدني قادراً على أن أشكّل منهما دافعاً لأقف ضدّ إرادة رفاقي. *إقحام الآخر في النّضال، في نضالي. طلقة ناريّة، ثمّ أخرى: مات جاك. كنتُ قد وضعتُ مسدّساً في يده، ومات. لقد حصل مكروه لجاك. ووجه مارسيل الذّاهل، رائحة الزّهور والشّمع حول التّمثال الشّمعيّ.* لأنّي أثّرتُ فيه. أعرف أنّه من المستحيل حصر حدود الفعل، لا أحد في وسعه أن يتوقّع ما هو بصدد فعله. لن أدخل مخاطرة ووحشيّة مماثلة. أبداً، لن أرفع إصبعاً لأبدأ حدثاً أعمى.

10- بلام Blum: شخصيّة سياسيّة فرنسيّة ووجه من وجوه الاشتراكيّة ولد سنة 1872 وتوفّي سنة 1950

– على كلّ، قالت، لن يتعذّر تمرير السّلاح خلسة والسّماح بالتطوّع للحرب.

كانت بين الحين والآخر تتحمّس لقضيّة ما: قبل سنتين، كانت هذه «البروطونيّة»[11] Bretonne صهيونيّة بشغف، اشتغلت ثماني ساعات في اليوم في مكتبة يهوديّة لمساعدة الحركة. ما كان، إذاً، ليفاجئني اهتمام جديد من جهتها؛ كنتُ، فقط نافد الصّبر لمعرفة سبب دعوتها لي بهذا الإلحاح.

استمعتُ إليها ما يناهز نصف ساعة تستعرض إدانتها لـ «بلام»، ثمّ انتهزتُ فرصة صمت.

– قولي، فيمَ أردتِ أن تحدّثيني؟

رمقتني بنظراتها الرّقيقة:

– عن كلّ هذا، قالت.

انخرطتُ في الضّحك:

– يهمّكِ كثيراً؟

– آه! أنت لا تفهم. أحتاج إلى مساعدتك؛ تعرف كثيرين في الحزب الاشتراكي؛ سيساعدونني على تجاوز الحدود بطريقتهم. وحدي، لن أتمكّن من فعل شيء.

– تريدين الذّهاب إلى أسبانيا؟

– أريد الانضمام للميليشيا. لِمَ لا؟ لأجل ما أصنعُه بجلدي هنا.

كانت قادرة على القيام بذلك فعلاً؛ انقبض قلبي من القلق.

– لكن هذا غريب، ليس لديكِ أسباب تجعلك تقدمين على الالتحاق بهم.

– لسنا في حاجة إلى أسباب أكثر من أنّ الحياة لا تساوي الكثير.

– هذه مجرّد نزوة.

نظرت إليّ بتعب.

11– البروطونيّة Bretonne: نسبة إلى إقليم البروطانيْ.

– لم آتِ لأطلب منك نصيحة، بل خدمة. هل تؤدّيها لي، نعم أم لا؟ تردّدت.

– خدمة غريبة. ماذا لو حصل لك مكروه وأنت هناك، لن أكون حُرّاً.

– أعفيك من كلّ ندم. ابتسمت: ثمّ إنّه من الممكن أن أتعرّض للسوء هنا.

– لديكِ متاعب؟

– ليس لديّ متاعب. لديّ رغبة في الرّحيل.

لم يكن هناك ما أنتزعه منها أكثر.

– سأرى ما يمكنني فعله، قلت.

كان ذلك سهلاً. لم يكن عليّ أكثر من التحدّث إلى پول أو بورغاد في الأمر. *لم يكن عليّ سوى عدم التحدّث إليهم. لقد أودعوه غرفة نومه، مُمَدّدا في سريره وحوله الشّمع والزّهور؛ كان كتمثال من شمع، تمثال مربك مصنوع لأجل عروض سرياليّة. وكان مارسيل ينظر إليه.* نفس القصّة. لأنّي أوجَد. ألا يمكنني التّظاهر بعدم الوجود؟ أمحو نفسي من العالم، أمحو وجهي وصوتي، أمحو أثري، لا شيء سيتغيّر؛ سيكون مكاني شطبة غير مؤذية. لن تكون إيلين أسيرة حبّ تعيس، ولا مادلين راحت لتُقتَل في أسبانيا، سأعفي الأرض من هذا الوزن الذي ما ينفكّ يمدّ أوتاره السرّية، تلك التي يهزّها، ويلقي بها في مجاهل غير متوقّعة. أن أحذف نفسي، ألاّ أوجَد. «لن أتحدّث إلى پول». *وفي الغرفة حيثُ رائحة مبيد الحشرات، سنجد، في الصّباح، جثّة فاحشة الثّراء عفّنها الكوكايين.*

ذاب النّور فوقي. لن تمحو نفسَك. لا أحد سيختار نيابة عنك، ولا حتّى القدر نفسه. أنتَ قدر الآخرين. قرِّرْ. لديك هذه القدرة: انبجس شيء ما لم يكن موجوداً، وحيداً في الفراغ، غيرَ معتمد إلا على نفسك، مع ذلك كانت ثمّة هوّة تفصلك دائماً عن نفسك، كنتَ في الهوّة من دون سبب عدا الذي في داخلك.

لا أريد. لم أعد أريد. *إنّهم يجعلونهم يعملون في الثّلج مرتدين زياً*

قماشيّا وأحذية رياضيّة في أقدامهم. ونقول: «حسناً، لن يسعنا فعلُ شيء». لكن لو أنّ البناية انفجرت، أيّ ساحة مليئة بالجثث! *كانت هناك امرأة تنام في مكان ما؛ استطاعت أن تنام أخيراً وهي تفكّر: لم يفعل شيئاً، لن يكون هو. وغداً مساءً سيكون هو. بسببي أنا.* أن أمحو نفسي. ألاّ أكون. لكن حتّى لو قتلتُ نفسي، فسأظلّ كائناً. سأكون ميّتاً. سيظلّون مرتبطين بموتي وتلك الحفرة التي ستظهر في الأرض فجأة ستهزّ وستمزّق ألف وتر غير متوقّع. سيأخذ برتيي مكاني؛ أو لونفون. مرّة أخرى سأكون مسؤولاً عن الوقائع التي جعلها غيابي ممكنة. أحدهم سيقول لـ«لورون»: «هيّا، لا تذهب». سيكون صوتي. لن أستطيع محْوَ نفسي. لن يسعني أن أنكفئ على نفسي. أنا موجود، خارج نفسي، وفي كلّ مكان من العالم؛ ما من بوصة من طريقي لم تتقاطع مع طرق أناس آخرين؛ ما من طريقة قادرة على منعي من أن أفيض عن نفسي في كلّ ثانية. هذه الحياة التي أنسجها بمكوّناتي الخاصّة، تمنح الآخرين ألف وجه نكرة، وتشقّ مصائرهم بتهوّر. *لقد استيقظ، إنّه يحلم. «سأُنسى». كانت الحياةُ أمامه شاسعة. وأنا بالقرب منه، أنا الذي قتلتُه، أشحن البندقيّات التي ستقتُلُه غداً.* لا. لا أريد. لنعدِل. *أحجمنا. عقفنا الرّأس، وهناك في عمق المستقبل، لأجل كلّ قطرة ضنّا بها، كلّ هذا الدّم.*

لنتابع...

لنعدِلْ، لنتابع. قرِّر. قرّر ما دمتَ هنا. أنت هنا ما من مجال للهروب. حتّى موتي لا أحد يملكُه غيري.

- تحدّثتُ مع «بورغاد».

كانت تلك اللّيلة رحيمة؛ في تلك اللّيلة أمكنني أن أقرّر: لم أكن وحدي؛ قبالَتي، كانت هناك حرّية تتشكّل. لو أنّي لم أتعرّف فيها على أيّ حقّ، أيّ سلطة، فعليّ الموافقة على أن أكون أداة لنفسي.

- مُرّي لمقابلته غداً. سيعطيكِ التعليمات بشأن رفاق «بربينيون»[12]

12- پرپينيون Perpignon: مدينة تقع جنوب فرنسا.

Perpignan الذين سيقطعون بك الحدود؛ وأيضاً بشأن الرّفاق في برشلونة. يبدو أنّهم لا يحبّذون كثيراً وضع بندقيّة في يد امرأة.

- شكراً، قالت مادلين، أنت لا تدري أيّ خدمة أسديتها إليَّ.

كنّا في الغرفة؛ كانت تشبه رواقاً ضيّقاً، مليئة بالحقائب الفارغة وغسيل فوضوي؛ كانت الرّائحة الطّاغية هي رائحة الشامبو والمُطهّر. كان هناك إناء يغلي فوق موقد صغير حيثُ تذوب حبّاتُ حلوى بيضاء بنكهة النّعناع. لو أنّي أحببتُها... انغرزت الشظيّة في قلبي. الآن، فهمتُ كلَّ شيء؛ كنتُ مذنباً أبديّاً، منذ ولادتي وحتّى بعد مماتي.

مع ذلك، لم يكن الحالَ بالنّسبة إلى هذه المرّة. لم يكن هذا الدّمُ لها، ولا خرخرة الاحتضار كانت لها. كما لو أنّ الماكينة المجنونة تحوّلت إلى الدّوران في الفراغ، كما لو أنّ القدر تآمر مع المهزلة. بعد عشرة أيّام من رحيلها، وصلتني رسالة من مستشفى في برشلونة. لم يتمّ إرسالُها إلى الجبهة، وجّهوها إلى مطبخ متواضع؛ ظلّت على مدى عشرة أيّام تغسل الصّحون واعية تماماً، وسكبت على قدميها وعاء كبيراً من الزّيت المغليّ. لبثت ستّة أشهر في الفراش ثمّ وقع ترحيلُها إلى باريس.

- أتعلم، يقولون إنّ الفرنسيّين أوغاد جميلون، قالت لي عند عودتها.

كان الرّبيع قد حلّ. ذات مساء، بعد خروجنا من الورشة، تسكّعتُ أنا وإيلين على جادّة «أسنِيار» Asnières؛ اشترت باقات بنفسج من زاوية الشّارع؛ جلسنا وأمامنا أكواب بيرة في لون الكراميل، كنّا نسمع الأجراس المنهكة تحت السّماء الأرجوانيّة. كان هناك أزواجٌ مثلنا يصعدون وينزلون بخمول شارع كليشي؛ بقلق تبعتُهم بعينَيَّ، هؤلاء الرّجال الذين كانوا يستمتعون بعذوبة المساء بقلب مطمئنّ. لم يكن لهم ظاهرُ مجرمين: طعم البيرة والتّبغ، وميض اللّوحات المضيئة، رائحة الأوراق النديّة، لا شيء من هذا يبدو آثما. كنّا هنا، سابحين في غسق باريس، لم نكن نؤذي أحداً. لكنّنا كنّا هناك، في برشلونة، وفي مدريد؛ لم نكن سياحاً مسالمين: أوغاداً جميلين. وكنّا موجودين أيضاً في الشّوارع المحتفلة، تحت سماء

سوداء تعبرها مقاتلات الألمان؛ وُجِدْنا في برلين، في فيينا، في معسكرات التّجميع، حيثُ اليهود ينامون في قمصان على أرض مبتلّة، في السّجون حيثُ يتعفّن المعارضون الاشتراكيّون؛ وجودٌ عنيد، ساحق، يتّحد مع الأسلاك الشّائكة، والحجارة الصمّاء، والرّشاشات، حيثُ تركنا ابتساماتنا تشرق، كانوا بالنّسبة إلى أناس آخرين الوجه الحقيقيّ للبؤس.

– تصوّر! عمّالٌ وموظّفون صغار، هكذا يقتاتون في فرنسا! قال «لينا بلومونفيلد». فيما راحت تراقب، بازدراء، السّجق الدهنيّ الرّخو فوق فرشة من البطاطا التي في فمي والتي ابتلعتُ أكثرها. كانت المرّة الأولى أيضاً على طاولة؛ وقفتُ. «أعيشُ بفضل وسائلي الخاصّة». كان يمشي في الشّارع الرّطب وهو يدحرج حبّة كستناء، مستنشقاً الهواء ملء رئتيه، هواء اعتقد أنّه غير مسروق من أحد. «وسائلي الخاصّة». بأيّ حقّ أتقاضى لحم البقر مقابل عملي اليوميّ وليس البطاطا بالمرغرين؟ لم أعد أريد التعويل على أحد، لقد قطعتُ مع إرث أبي بنبل، منذ ذلك الحين وأنا أنعمُ من دون وخز ضمير برخاء بات في عيون أمم جائعة بخلاً واضطهاداً. «أتعتقد أنّ هناك فعلاً وضعيّات عادلة؟» كان مارسيل محقّاً. لقد رأى بعيداً. لقد هربتُ من البيت: والآن إلى أين أهرب؟ حيثُما ذهبت، في كلّ المفترقات، كان النّدم يحوم؛ كان ملتصقاً بجلدي وكنتُ أحمله أينما توجّهت، حميماً ومُثابِراً. أحسستُ بأنّي أشبه أمّي، كاشطاً الجدران، ومتجنّباً النّظرات التي تعكسُ صورتي الحقيقيّة: وغدٌ فرنسيٌّ، أنانيٌّ وشبعان.

– أنت نادم، قال بلومونفيلد. أتعتقد أنّ هتلر سيقف عند النّمسا؟ سترى. سيأتي دورُ فرنسا.

كان ينظر إلينا بيأس وكراهية. جاء من فيينا خصّيصاً ليوقظ فينا العار والشّفقة. كان من بين الأعضاء المهمّين في الجبهة غير النظاميّة التي كانت تشنّ في النّمسا حرباً في الظلّ على النّازيّين. دينيس هي التي قدّمت كلاً منا للآخر: منذ فترة، دأبت على محاولة الحياة لمصلحتها وانخرطت بحماس في نشاط مناهض للفاشيّة. اصطحبتُ معي بلومونفيلد إلى مقر

النّقابة للتعرُّف على رفاقي. جاء مارسيل ودينيس أيضاً. تحدّث بلومونفيلد وقتاً طويلاً، وصف لنا الكتائب المتغطرسة للميليشيات ذات الجوارب البيضاء، الولائم، حيثُ يحتفل النازيّون المتمتّعون بالعفو بانتصارهم القادم، الاستفزاز، الجرائم التي يرتكبونها تحت أعين البوليس البريئة.

الآن، راح ينظر إلينا. وصمت.

– لكن، كيف لم تتمكّنوا من إيقاف زحفهم؟ قال غوتيي. مع أنّ عندكم أكثر من 42 ٪ من الاشتراكيّين.

– نحنُ مُطاردون، قال بلومونفيلد. لسنا قادرين على فعل أيّ شيء له جدوى. الاجتماعات السرّية والمناشير، الخُطَب البرقيّة، تسمح لنا فقط بمنع الرّكود.

– على «شوشنيغ»[13] Schuschnigg أن يفهم أنّ التّحالف معكم أكثر من ضروريّ، قال لونفون.

– ليس هناك ما يمكن القيام به، قال بلومونفيلد. رفض كلّ محاولة للمصالحة. قست عيناه: ثمّ أتظنّون أنّ الشّعب مستعدّ للموت لأجل شوشنيغ؟ إنّ له ذكريات كثيرة. رمقني من جديد: موقف حقيقيّ من قبل فرنسا وبريطانيا هو فقط ما قد ينقذنا.

– ساد صمت. اصطدم دائماً بهذا الصّمت، ما عدا مع الاشتراكيين.

– إجمالا، ماذا تريدون منّا؟ قال لونفون.

– لو أنّكم نظّمتُم اجتماعات، وحملة صحافيّة لإطلاع رفاقكم عمّا يحدث عندنا، من واجبكم إنارة الرّأي العامّ.

– لكنّه ليس أمراً هيّناً، قلت، أن تدفع ببلد إلى الحرب.

– لا، قال غوتيي. مازال حلّ السّلام قائماً.

– أوه! إلحاق النّمسا سيكون بالسّلم؛ لن يجد النّازيّون صعوبة في افتكاك الحكم؛ إنّهم في كلّ مكان. ارتجف صوتُ بلومونفيلد: شوشنيغ

13– شوشنيغ Schschnigg: مستشار النمسا من سنة 1934 إلى غاية 1938.

يقدّم لهم البلد قطعة، قطعة؛ لديّ معلومة من مصدر موثوق أنّه قد وقّع معهم معاهدة جديدة. لن يكون لهتلر سوى كلمة واحدة.

رمقنا من جديد بنوع من الضّيق والاحتقان: وحدها فرنسا يمكنها إيقافُه.

– فرنسا غير قادرة على الجلوس إلى مأدبة الحرب، قال غوتيي.

– ستندمون على ذلك، قال بلومونفيلد. تظنّون أنّ هتلر سيقف عند النّمسا؟ ستَرَوْن. سيأتي دورُ فرنسا.

نظر غوتيي ببرود إلى بلومونفيلد.

– هل في وسعنا منع بلد من الانتحار؟ قال. كلّ ما ذكرتَه، هو قصّة انتحار.

كان واثقاً من جنوحه إلى السّلام، واثقاً من نفسه. «أنا مع السّلام». قرّر نهائيّاً، لم يكن أمامه سوى التصرّف بتناغم مع نفسِه، من دون الالتفات إلى اليمين أو إلى اليسار. من دون النّظر إلى أمامه. كما لو كانت الطّريق مرسومة سلفاً. كما لو كان المُستقبَلُ لم يكن ممتدّاً في كلّ لحظة.

– الانتحار، هو جريمة بشكل ما، قلت.

– آه! قال بلومونفيلد، أتظنّ؟

فتح مارسيل فمه فقط لحظتها. ابتسم.

– إنّ لديه يقيناً أنّ ما قام به وما سيقوم به جريمة، قال.

كانت جريمة. منذ تلك الفترة وخلال السّنة التي تلتها قضّيتُ لياليَ من دون نوم. حملة صحافيّة، اجتماعات وإضرابات. كان پول من جهته يضايقني. «ستكون الحربُ سقوطاً للفاشيّة». أيُعقَل أن نظلّ مكتوفي الأيدي وإلى جوارنا أسبانيا النّازفة، والمذابح التي تلطّخ ألمانيا، والمدّ الذي يستحوذ على النّمسا؟ أحسستُ بالخجل، تحت نظرات بلومونفيلد اليائسة والباردة، لكنّ الخجل لم يكن حجّة؛ كان أنينُ المجروحين في الميادين الدّامية، والمتصدّعة، يملأني رعباً بلا هوادة. وخلف البيريني كان الشغّالون الأسبان يسقطون تحت رصاص الفاشيين، لكن هل يحقّ

أن أشتري دمهم بحياة الفرنسيين، مقابل حياة ليست حياتي؟ كان اليهود يموتون كالذّباب في معسكرات التّجميع، لكن هل يحقّ لي أن أقايض جثثهم بأجساد ريفيّي فرنسا الأبرياء؟ بإمكاني أن أدفع من جسدي، من دمي، لكن الرّجال الآخرين ليسوا عملة تحت تصرّفي؛ أيّ فكرة متعنّتة تسمح لنفسها بإجراء مقارنة بينهم، بعدّهم، بزعم معرفة قيمتهم؟ إلا أنه كان سيعجز أمام هذا التّعجرف المتعَمّد؛ لم يكن الرّجالُ بيادق لتحريكهم، ولا رهانات، ولا قوى ينبغي إلقاء القبض عليها؛ كلّ منهم يحمل حقيقته في سرّه بعيداً عن المنال؛ ما سيحصلُ له يهمُّه وحده؛ ما من تعويض ممكن. لم تنجح ابتسامات إيلين في امتصاص حقد مادلين، لم تخفّ من ألم الزّيت المغليّ. لا شيء محا موت جاك، ما من ولادة ستعوّض حياتَه الوحيدة التي أُخِذَت منه. ما من نقطة التقاء بين هذين القدرين.

«لن أفعل شيئاً؛ لقد حظرتُ على نفسي كلَّ نشاط سياسيّ». كنتُ أرفض، تماماً كآلهة صاحبة نزوات، أن ألقي في العالم وزن إرادتي الغامضة. أن تمارسَ السّياسة هو أن تختصر النّاسَ في ظاهرهم المحسوس، هو أن تعاملهم كحشود عمياء وأن أحتكر لنفسي التّفكير المُتّقِد؛ لكن على هذه الأفكار، إذا أرادت أن تعضّ الجثث الهامدة، وتحرّكها، أن تتحوّل إلى قوّة ميكانيكيّة، مُظلمة، لا أتعرّف فيها على نفسي. في قاعة صاخبة وممتلئة بالدّخان، نطقتُ كلمات سترسل رجالاً لم أرهم أبداً إلى ضفاف مجهولة؛ سأستخدم حرّية أن أتحوّل إلى شريك في العبث المخزي: عبث الأشياء التي لا مشيئة لأحد بها. «لا. لا يمكنني أن أدفع ببلدي إلى الحرب».

- أتمنّى أن لا تندم على قرارِك، قال بلومونفيلد.

وكان العارُ حاضراً. عليّ أن أعتاد العيش معه، كان ذلك هو الوجه الآخر للنّدم. يمكننا دائما أن نخفيه في زاوية من حياتنا، أن نصقله، أن نجعله صافياً وناعماً: لنكتشف، بعد ذلك، أنّه تسلّل إلى زاوية أخرى. كان دائماً حاضراً في مكان ما. من دون خجل، كنتُ سآخذ إيلين بين ذراعَيَّ، لكنّي كنتُ سأخفض رأسي أمام المرارة التي في ابتسامات مادلين؛ كنتُ

أنظر إلى رفاق النّقابة بلا خجل، لكنّ حلقي يجفّ حالما أتذكّر رفاقنا في أسبانيا والنّمسا.

- أنت تتلذّذ بتعذيب نفسِك، قالت لي إيلين.

تحدّثت جرائد الصّباح عن ضمّ النّمسا؛ حين جاءت إيلين لتنتظرني أمام الورشة، لم أكن قادراً على خوض مواضيع أخرى. مع أنّي كنتُ أكره التحدّث إليها في تلك المسائل؛ كانت تبدو لي غريبة في تلك الأوقات. أضافت بقليل من الاستياء:

- على أيّ حال، هي ليست قضيّتَكَ.

- ليست قضيّتي، قلت، أريد أن يُقال لي إنّها قضيّتُك.

- هناك حياتُك الخاصّة، قالت إيلين. ألا ترى أنّها كافية؟

- لكنّ حياتي هي عبارة عن علاقات بالآخرين؛ النّمسا في حياتي، العالم بأسرِه في حياتي.

- بالتّأكيد؛ وهؤلاء، هم في حياتِكَ لأنّك تتقاطع معهم وتراهم. احمَرّت إيلين واتّخذت صوتاً حادّا قليلاً كما في كلّ مرّة تزعجها فيها إجابة: هذا لا يعني أنّك مسؤول عمّا يحدُث لهم.

- للتّثبّت، قلت بأطراف شفتَيّ. كانت السّابعة مساءً؛ كان شارع «سانت أوان"Saint-Ouen غاصّاً بالبشر؛ انتزعنا من زاوية في الطّريق آخر عدد من صحيفة «باريس المسائيّة»[14] *Paris-soir*؛ كانت المخابز طافحة بالكرواسان، والكعك والخبز الذّهبيّ الطّويل؛ في المجازر رُشّت النّشارة على الأرضيات، كانت العجولُ والخرفان مُفرغة، مغسولة ومُعلّقة في الأسقف ضمن صفوف كما لو كانت في موكب، وفي المقصف كان اللّحمُ يرتاحُ ملفوفاً بورق مُجعّد. الحرّية، التّسلية، السّلام. كان الرّجالُ يتناقشون في الحانات بصوتٍ مرتفع، مستندين إلى الكنتوار، من دون خوف. *النّوافذ الحديديّة منخفضة، والمقاهي فارغة؛ ولم يكن يُسمَعُ في الشّوارع الحزينة سوى وقع الجزم النّازيّة؛*

14- «باريس المسائيّة» Paris-Soir: صحيفة مسائيّة فرنسية مشهورة.

كان النّاسُ ينظرون من خلف نوافذهم بجزع وبأعين يملأها الرّعب. «سيأتي دورُ فرنسا».

- كأنّك أنت من خلق العالم، قالت إيلين.

- قرأتُ يوماً: كلّ إنسانٍ مسؤولٌ عن كل شيء، أمام كلّ شيء. يبدو لي هذا صائباً للغاية.

رمقتني إيلين باستياء.

- لا أفهم، قالت.

- بالطّبع، لو أنّنا نرى أنفسنا نملة في غار نمل، فلن نملك فعل شيء لشيء. لا أقول بأنّي كنتُ قادراً على صدّ النّازيّين بفرد ذراعَيّ. أرى أمّي في شوارع سيفي، فاردة ذراعَيها: إنّما لو أنّنا جميعا فَعَلْنا...

- ربّما. لكنّ أحداً لم يفعلها. الآخرون مسؤولون مثلَك.

- إنّه شأنُهم. طبعاً. جميعُنا مسؤولون. لكن الجميع تعني كلّاً على حدة. أحسستُ دائماً بذلك، حتّى عندما كنتُ طفلاً: عيناي تكفيان كي يصبح هذا الشّارع موجوداً. أذني وحدها تكفي كي يكون لهذا العالم صوت. حين يسكت فهو خطئي.

أشاحت إيلين برأسِها.

- ما زلتِ لا تفهمين؟ قلت.

- بلى، أفهم، قالت بطريقة رديئة.

- لم أخلُق العالم. لكنّي أعيد خلقَه في كلّ لحظة بواسطة حضوري. وأتلقّى الأشياء كما لو كان ما يحدُث له بسببي.

- نعم، قالت إيلين. أدارت نحو الأرض وجهاً متجهّماً من الألم.

- ما بِكِ؟ قلت.

- لا شيء، قالت.

- لِمَ تبدين حزينة؟

هزّت كتفيها.

- هناك أوقاتٌ أشعر فيها بأنّي ذرّة في حياتِك.

- كم أنتِ حمقاء! تقولين هذا مع أنّك تطوّرتِ كثيراً منذ قلتِ فيه إنّك تمثّلين المئتين والأربعين جزءًا من وقتي.

- لستَ في حاجة إليَّ، قالت. لا شيء في حياتِك مرتبط بي.

- يمكن أن نتعلّق بأحد من دون حاجة.

ضممتُ ذراعها لكنّها انكفأت.

- أشعُر بأنّه لا جدوى منّي، قالت.

كان يُفترَضُ أن أقولَ لها: «أحبُّكِ». لكنّي لم أكن أجرؤ على مغالطتها. أقسمتُ أن أتركها حرّة، يجب أن ترى بوضوح. بالوضوح، يمكنها أن ترى حناني ولامبالاتي؛ وستجرّ هذا الحبّ كعبء لا رقّة فيه، هذا الحبّ الذي لم يكن ينفعني في شيء.

- أأنتَ متأكّد من أنّكَ لا تحبّها؟ قالت لي دينيس.

- ليس الحبّ.

- لكن، لعلّك تحبّ بهذا الشّكل.

- ربّما. لكن هذا لا يغيّر شيئاً. هي لا تسمّيه حبّاً.

إيلين تحتاج إلى أن تصير حاجتي إليها متأكّدة؛ حينها، ستوجد بالكامل؛ ستكون بفعل معجزة ما هي عليه الآن، كما كنتُ سأحبّها.

- أنت لا *تريد* أن تحبّها، قالت دينيس. هزّت كتفَيْها: أنتِ أيضاً، تفسدين حياتَكِ عمداً. مع أنّ حبّاً جميلاً ليس بالأمر السيّئ.

كانت تعتقد، بعفويّة، أنّ جميع النّاس يحبّون بعضهم بعضاً؛ كانت تكنّ المودّة لكلّ النّاس؛ لم تكن تساورها الشّكوك في أنّهم قد لا يبادلونها إيّاها. بالنّسبة إلى مارسيل، لم تكن تودّ أن ترى فيه سوى نوع من الانحراف المنهجيّ. لم يكن مُجبراً على الانضباط. كان مارسيل يكره تلك الحظيرة الأخويّة التي تدّعي دينيس أنّها تعيش فيها، جنّة إنسانيّة نظيفة، حيثُ تتدفّق الفضيلة من دون توقّف، حيثُ الاستحقاق، والحقيقة والجمال تتدلّى من أشجارٍ كأنّها فاكهة ذهبيّة. أحياناً، كانت أيضاً تزعجني. أكره سماعها

وهي تتنبأ بمصير العالم؛ كانت تحاول الخلاص من همومها في الحياة؛ ما يهمّك فقط، هي السّيرورة الكونيّة للتّاريخ.

- ليس سيّئاً. لكن يجب أن أكون قادراً عليه، أوّلا.

- نعم، قالت دينيس؛ ضحكت بقسوة: أتساءل عمّا يستطيعُ مارسيل فعلَه. أنت، على الأقلّ، تتحرّك، لديكَ رفاق. لكن هو... ألا تظنّ أنّه مجنون قليلاً؟

رمقتني بقلق مشحون بريبة.

لم يكن مارسيل يفعل شيئاً؛ بل لقد توقّف عن نحت قطع السُكَّر، والقيام بالضّفائر. كان يقضّي أيّاماً بأكملها، محشُوّاً في معاطف كبيرة، نائماً في سريره الرّطب؛ ثمّ ينفضُ عن نفسِه الغبار ويخرج بحثاً عن الأصدقاء. كان يستقبلُنا بكثير من الحفاوة، التي لولا شكوى دينيس، ما كنت لأنتبه إلى خموله اليوميّ. لاحظتُ، فقط، هوسَه؛ كان على يديه أن تكونا دائما مشغولَتَيْن: أو فإنّه يخدش ذراع الكنبة، أو يمسك بحافظة سجائره، بآنية، برتقالة؛ جلس سانداً ظهره إلى الجدار. «يفزعني الفراغ خلف ظهري». كانت الأرضيّة الخشبيّة مكسُوّة بالسجّاد، والوسائد، وجلود الحيوانات ولم يكن ثمّة جزء عارٍ في الجدار؛ كان مارسيل يعلّق الفراشات، والأصداف، والصّور الطّريفة وبطاقات بريديّة بالألوان تُظهرُ القدّيسة «تيريز دي ليزيو»، بيديها المليئتين بالزّهور.

- إنّه، من دون شكّ، يبحث عن شيء مُستحيل، قلت، لكنّه ليس الجنون.

- لكن عمَّ يبحث؟ قالت دينيس. هل تعرف؟ لو سألتُه، لسخر منّي.

لمعت عيناها بما يشبه الطّمع؛ إذا كان مارسيل ينكرُ الحبّ، والثّروة، والمجد، فهذا يعني أنّه يتفرّد بنعيم أكبر؛ تريد نصيبها.

- أظنّ أنّه أمر ليس له معنى إلّا في نظره.

هزّت كتفيها، مُحبَطَة.

- أن يكون له معنى أو ألّا يكون، قالت بنبرة حازمة. كان ما يجعل

مارسيل يفقد أعصابه هو صوتها المحايد الذي يشبه صوت المدرّسة. كان دائماً متأهّباً مع دينيس. أمّا معي، فكان يتحدّث ببساطة. فقط، ما يثيرُ غرابتي، هي السّحنة الشّامتة التي كان يتلقّى بها كلّ ما أقوم به.

- أليس كذلك؟ أهو مقنع كأسٌ تُملأ؟ قال وهو يراقب صعود السّائل الأحمر.

- كأسٌ تُفرَغ أيضاً، قلت. أفرغتُ كأسي.

- لا. إنّ ما يسلّيك، هو أن تمتلئ، قال. ضغط على حافظة تبغه بين يديه: كلّنا نبحث عن الامتلاء. انظر: عدد المارّة في الطّريق الذين يتجنّبون الوسط على الرّصيف، الذين يكشطون الجدران، ليشعروا بشيء ممتلئ بمحاذاتهم؛ ثمّة منهم من يجرّ يده على الجدار، كما تُفرَكُ قيثارة. نظر إلى أصابعه: ليس هناك أمر حقيقيّ أكثرُ من لمس الأشياء.

- صرفتَ النّظر عن الخلق؟

- لا يمكننا أن نخلق. هناك دائماً شيء من قبل.

- صحيح، قلت، صحيح على كلّ المستويات.

صفحة بيضاء مستقبلُها بين يديّ بالكامل. كان مجرّد حلم أطفال. الآن أعرف. لا شيء أبيض غير الغياب، الغياب المستحيل. أن تختار. السّلام المخزي أو الحرب الدّامية؟ القتل أو العبوديّة؟ علينا، أوّلاً، أن نكون قد اخترنا الظّروف نفسَها حيثُ سيتعيّن الاختيار.

- أو، إنّ ما نخلُقُه هو الأفكار التي لم تصل بعدُ إلى الوجود، استدرك مارسيل؛ أشار إلى غرض يتدلّى من الجدار. يجب أن يكون الشّكل نفسُه من القصب. أو أن تخرج أليافُه من رأسي، الواحد تلو الآخر.

- ماذا ستفعلُ، إذًا؟

- لا شيء أكثَرَ. أن تخلق، هو جهد قصد التّعبير عن ذاتك؛ لكن، أوّلاً، عليك أن تكون. إنّه عمل جبّار في حدّ ذاتِه. يجب أن تجد وسيلة ترتبط بها مع الكيان. أدار رأسَه يميناً وشمالاً: انظُر، جُسَّ، إنّه ارتباط.

- ألا تخشى السّأم بمرور الوقت؟

ضحك:

- تعوّدت. ليس مملاً أن تسأم.

دينيس المسكينة! بأيّ ابتسامة كان يصغي إليها وهي تتحدّث بحماسٍ عن «السّوديت»[15] Sudètes وتشيكوسلوفاكيا. في ذلك اليوم عادت مشحونة بالإثارة من اجتماع مناهض للفاشيّة كانت قد أخذت فيه الكلمة؛ كان في عينيها بريق لم أره منذ سنين.

- إنّها سعيدة، قال مارسيل. انظر إليها: تظنّ أنّها أنجزت شيئاً ما. وضع يده الضّخمة على كتف دينيس على طريقة الأصدقاء؛ انكفأت دينيس، وانطفأت نظراتُها.

- أرأيتَ، قالت بعد لحظات، إنّه دائماً هكذا معي. أنا أختنق إلى جواره. ارتعش صوتُها: هذا الضّحك الصّامت، العينان الثّاقبتان، من الصّباح حتّى المساء. إنّهما تخترقانني. إنّه يجعلني مجنونة، أنا أيضاً.

- لأجل هذا، قلت، أتصوّرُ أنّه لا يليق العيش معه.

ثبّتت دينيس عينيها على شيء مرعب.

- إنّه الجحيم.

كانت هناك الأيّام، وكانت هناك اللّيالي. كان مارسيل يقول لي أحياناً إنّه لا يتحمّل ارتباطاً جسديّاً إلّا بوصفه شيئاً. كان يمضي فترات طويلة من دون أن يلمس دينيس؛ وعندما كان يقبض عليها بيديْه القويّتين كان الأمر أفظع.

- لِمَ لا تجرّبين عدم العيش معه؟ نظرت إليَّ دينيس بحيرة؛ بذلت مجهوداً كي ترسم على وجهها قناعاً متعقّلاً ورصيناً: لكن، ماذا سيصبح من دوني؟ لا، قالت بثقة. عليَّ أن أتحرّر منه من الدّاخل.

- هذا أصعب.

- سأبوح لك بسرّ، قالت بمزيج من الضّحك والضّيق. بدأتُ في كتابة رواية.

15- السوديت Sudètes: إقليم يضم الأغلبيّة الجرمانيّة في ألمانيا.

- صحيح؟ قلت.

- رواية عنه وعنّي. مُترجَمة جيّداً، بطبيعة الحال. زمّت شفتيها: آه! لو أنّه بإمكانها فعلُها! من ناحية، كان مارسيل محقّاً: بالعمل السّياسي، لا يمكننا أن نغيّر كثيراً. ألا ترى معي؟

- حسب الظّرف، قلت. كان بيننا الكثير من سوء التّفاهم منذ بداية حوارنا حتّى أنّي كنتُ أجد صعوبة في الردّ.

- كيف تريدني أن أعمل! تابعت بيأس. يجب أن آكل، وأن ألبس بلا فلس واحد. إنّها تقرض وقتي بأكمله.

- نعم. ومارسيل لا يدري، قلت.

- لا بأس، قالت بنبرة عنيفة. سأجد الوقت.

يمكن التّعويل عليها. إنّها لا تبذّر دقيقة واحدة. كان لها عقل مرتّب.

- سلالة رهيبة، قال مارسيل؛ كان ينظر إليّ بعينين ساهمتين، كان يبدو خائفاً: إنّهم لا يضيّعون الوقت؛ ولا يضيّعون المواهب، ويخسرون الأموال. وأبداً، لا يتساءلون ما الذي نظفر به من وراء عدم خسارة شيء.

- لكنّك بقرة كبيرة مع دينيس، قلت.

- ماذا تريد؟ نحن لا نتكلّم اللّغة نفسها. دينيس اجتماعيّة، ما يفكّر فيه النّاس، ما يقوله النّاس، ما يحسّ به النّاس، هذا كلّ ما يهمّها. ضرب صدرَه العريض: أمّا أنا، الفرد الوحيد الصّغير الفقير، مشغول بمصيري الخاصّ، يبدو لها هذا جنوناً. حرّك رأسه: قلتُ لها إنّه نوع خطير.

- لنفترض أنّها مخطئة، قلت. ليس هذا سبباً للحكم عليها بحياة بائسة كهذه.

- أنا لا أحكم على أحد.

- أنت تعرف أنّها تعيسة. وتجد راحة في القول إنّها لا تستحقّ أن تكون سعيدة. لكن أنت الذي تزعم أنّ كلتا الكفّتين بين يديك، كفّة الخير، وكفّة الشرّ، ليس بيدك أن تقرّر حقوقها. ثمّ إنّه ليس هناك ما يُقاسُ عليه أصلاً. لا أرى صلة بين أخطاء دينيس وبين المتاعب التي ترغمها عليها.

– لكن، لماذا هي تعيسة. قال مارسيل. في وسعنا دائماً أن نتجاوز أشياء كثيرة. أقلعتُ عن الويسكي...

– هذا شأنُك. ليس من حقِّكَ أن تفرض عليها عِبَرَك؛ أنت تحاول إيجاد ذاتِك، لا ذاتها؛ إنّها تجربة لا تخصّ غيرك. أخيراً، قلتُ بقليل من السُّخط، لم تطلب من دينيس أن تقضّي يومها في لمس الأشياء.

انفجر ضاحكاً من دون إجابة.

– أؤكّد لك أنّك تنصّب نفسك مسؤولاً عن تحقيق العدالة. يمكنك أن توبّخ دينيس. لكن لا أحد كلّفك بمعاقبتها.

كان يلقف حبّة بطاطا.

– المُفلِسة! قال، لو أنّي غير موجود، لكانت الأرض قصراً جميلاً من الحلوى الورديّة. ابتسم لي: لكنّي غيرُ قادر على حذف نفسي.

– لو منحتها فقط قليلاً من الرّفاه المادّي؟

– ربح المال؟ قال مارسيل. لو أنّ هذا يسرّك، فأنا أرغب في ربح المال. لِمَ لا؟ أمسك البطاطا في الهواء. فساتين لدينيس، خادمة، زرابيُّ جميلة. لِمَ لا، إذًا؟

دافعتُ عنها بشكل جيّد. كنتُ مسديَ نصائح جيّداً. لكن ماذا أجيب لو أنّ مارسيل سألني: «وأنتَ؟ هل تظنّ أنّك تجعل إيلين سعيدة؟» مرّ الوقت؛ صارت امرأة، شيئاً فشيئاً؛ لم تعد تكتفي بالحبّ من دون أمل في أن تحظى بمثله. لم تكن تعاتبني، لكنّها كانت غالباً حزينة. في بعض الأيام، يبدو لي من العبث أن أفكّر في السّعادة التي كنتُ سأمنحها إيّاها بكلمة لكنّي لم أمنحها إيّاها.

– أريد أن أقول لك شيئاً، قالت، لكن عِدْني بأن لا تغضب؟

كنّا جالِسَيْن على ضفّة «السّين»، وكانت ساقاها تتدلّيان، في تلك النّقطة من جزيرة صغيرة حيثُ مقبرة الكلاب؛ إنّه مكان تكنّ له إيلين عاطفة خاصّة.

– قولي دائماً.

ذات أحد من شهر أغسطس؛ لبست أجمل فساتينها، فستاناً عليه صورة مطبوعة من رسمها؛ كان وردِيّاً ببريق معقّد كبريق المعابد، أو القبّعات الصّينيّة. كان لون وجهها، ورقبتها، وذراعيها ذهبيّاً بفعل الشّمس. كانت ترمقني مع ابتسامة متردّدة.

- حسناً! بالأمس، عرضت عليَّ والدة «غرانجاون» الذّهاب معها إلى أمريكا. أشاحت بنظراتها عنّي: ورفضتُ.

- إيلين! وضعتُ يدي على كتفها. هذا عبث. منذ ثلاث سنين وأنت تترقّبين هذه الفرصة: ستهاتفينها هذا المساء.

- لا، قالت. نظرتْ إليَّ. أرجوك. لا يمكنني أن أقبل. عليَّ البقاء هناك سنة على الأقلّ؛ في الحقيقة، يجب أن أقضّي حياتي هناك. إنّه بشأن تأسيس فرع هناك، وتسييره. نفت برأسها: لا أريد.

- تذكّري اتّفاقنا، قلت. ينبغي ألّا تحرمك قصّتنا من أيّ فرصة. اذهبي سنة على الأقلّ. فكّري، أنتِ في حاجة إلى السّفر!

- سنة من دونِك! قالت.

- ستجدينني.

- سأكون خائفة جدّاً. خصوصاً الآن. ماذا لو انتهت المجريات إلى حرب؟

ضممتُها إليّ. كنت على يقين. لم تكن لديها رغبة في السّفر، ولا في الدرّاجة، ولا في شيء سوايَ. مدّة سنتين، وبمشاركتي، نسجت روابط متينة معي؛ كيف تقطع كلّ ذلك في لحظة؟

- خيّبتُ ظنّك؟ قالت. كانت فرصة ملائمة للتخلُّص منّي؟ ابتسمت بأسى.

- ليست لديّ أدنى رغبة في رؤيتك ترحلين، قلت. لكن يؤسفني أن تفوّتي فرصة كهذه.

كان قلبي منقبضاً. لم يكن لها غيري في العالم؛ كلّ ما تبقّى كان في نظرها بلا ألوان. وأنا، لم أكن أمنحها سوى حنان باهت، أنا أسجنها داخل حبّ فقير من طرف واحد.

– حين أفكّر! قلت. ستظلّين في باريس، وستواصلين رؤية نفس الشّوارع، نفس الوجوه، ستستمرّين في الرّسم في غرفتك، والتنزّه في لكسمبورغ؛ كلّ هذا الوجود الرّتيب الذي يثير احتقانك بسببي!

– فقط لو أنّ بقائي لا يزعجك إيجابيّاً، قالت بصوت منخفض.

– إيلين! لِمَ تقولين هذا؟ برحيلك أصبح روحاً شقيّة.

أحطتُها بذراعَيَّ؛ قبّلتُ شعرها، خدّيها، وشفتيها؛ قبّلتُها بنوع من الشّغف؛ قلتُ لها الكلمات الأكثر حنوّاً؛ لم أكن أفهم لِمَ أحجّرها على نفسي. نظرتُ إلى القبور المزخرفة بالأصداف، وكلاب الكانيش المنحوتة على الصّخر: «إلى ميدور مدى الحياة»؛ كان الحصى يصدر صوت خشخشة تحت أقدامنا؛ كنّا نمشي جنباً إلى جنب، بتأنٍّ؛ كانت جميلة.

– تعلمين، قلت، بدأتُ أتعلّق بكِ أكثر ممّا ظننتُني قادراً على فعل ذلك. أنا سعيد لأنّك لن ترحلي.

عضّت شفتها. أوجعَني ذهولها.

– صحيح؟ قالت.

– نعم، صحيح.

رمقتني بعينين لامعتين وتأمّلتُ بتأثّر تلك السّعادة التي أبدعتُها.

ما الذي كان صحيحاً؟ ثمّ ما قيمة الحقيقة؟

– لكن، لماذا لا تتزوّج بها؟ قالت أمّي.

قدّمتُ لها إيلين ومن حين إلى آخر، كانتا تحتسيان الشّاي في غرفتي.

كانت إيلين تجد أمّي مخيفة؛ وكانت أمّي تعتبر إيلين صغيرة، إلّا أنّها كانت تحترمها.

– أنا لا أحبّها بدافع الحبّ، قلت.

– ما كان عليكَ، إذًا، أن تدخُل حياتَها.

– هي من أرادتْ. قالت إنّها هي من يختار، وأنّها حُرَّة.

- نعم، جميل جدّاً أن يُتركَ النّاس أحراراً، قالت أمّي. تنهّدت؛ لقد تركت إليزابيت وسوزون تتزوّجان حسب رغبتيهما؛ حياة إليزابيت تسير بشكل سيّئ عكس سوزون؛ ولا تدري أمّي أيّ بيت بينهما يحزنها أكثر.

- هذا ما فعلتِه، قلت، ومعكِ حقّ.

- آه! أتساءل، قالت. قمتُ بالأفضل: نحنُ مسؤولون عن كلّ شيء.

عاودني الوجه الورديّ، والعينان الحازمتان. «عليكَ أن تختار». لكن أيّ اختيار ينتظرها؟ هل في إمكانها اختيار أن أحبّها؟ ألّا أوجد؟ ألّا تكون قد التَقَتني؟ حتّى تركُها حرّة، هو اتّخاذ قرار نيابة عنها؛ أمّا تركُها، إزاء إرادتها، فهو أن أجعل من نفوذي وضعاً ليس أمامها سوى أن ترضخ له. كانت هنا، مُقَيّدة بيديَّ الأليفَتين، حبيسة داخل حبّ لا سعادة فيه. رغماً عنها وعنّي.

- ماذا، إذًا؟ قلت. لم تكن لتقبَل أن أتزوّج بها عن غير حبّ. ألا بدّ أن أكذب عليها؟

- آه! ليس في وسعي أن أقدّم لك نصائح، قالت أمّي بحزن.

علّمتنا، ونحنُ صغار، ألّا نكذب؛ لكن هي نفسُها، لم تكن متأكّدة من شيء: لا من الحذر، ولا من الكرم، ولا من الحقيقة. لِمَ علينا ألّا نكذب؟ رويداً، اتّخذت الفكرة سبيلها إليَّ. إذا لم أكن قادراً على تركك حرّة، إذا كان مجرّد وجودي مأزقاً، لمَ، على الأقلّ، لا أتحوّل سيّداً للوضع الذي أفرضُه عليكِ؟ إنّهم يجبرونني على اتّخاذ قرار مكانكِ: حسناً! ليس أمامي سوى أن أقرّر حسب قلبي. أتمنّى أن أحبّك: كنتُ أحبّك؛ أريدك أن تكوني سعيدة: أن تكوني سعيدة بسببي. كان الكذب هو السّلاح الوحيد الذي سيسمح لي بتحدّي جسارة الحقيقة واستغلالها. لمَ أقف أمامكِ هامداً، أبلَهَ، جافَّ القلب، رغماً عنّي؟ يمكنني أن أصمّم عباراتي، وإيماءاتي وأن أضلّل مصيركِ.

في ذلك المساء، هبّت في باريس نسماتٌ احتفاليّة؛ كان النّاس

يغنّون ويضحكون بعضهم في وجوه بعض، هتف العشّاق: لقد رمينا تشيكوسلوفاكيا للألمان، ونقول إنّنا أقررنا السّلام في العالم.

- أنتَ سعيد؟ قال لي پول. إنّهم أناسٌ مثلك من جعل اتّفاق العار ممكناً.

كنّا في حجرة الملابس، مع لورون وجاردينات؛ كنتُ أغسلُ يديَّ؛ كان پول وماسون يرمقاننا بغضب.

- تلك المعاهدات، قال لورون، هي السّلم. سلم صنعناه بأنفسنا. الحربُ مستحيلة لأنّنا رفضنا خوضها. كان شابًا. وكان حماسُه يضايقني.

- أنتَ تلعبُ لعبة البورجوازيّة بجنوحك للسّلم، قال پول. إنّهم يجعلونكم تبتلعون أيّ سلم تحت ذريعة تجنّب الحرب.

- نحن ذريعة الثّورة، ترمون بنا في أيّ حرب، قال جاردينات.

- لأنّنا ثوريّون، قال ماسون. أنتم تخافون الثّورة.

- لا، قلت، لكنّنا لا نريد شراءها مقابل حرب عالميّة. سيكون ذلك باهظا جدّاً.

- لا أحد يدفع ثمناً باهظا. نظر إليَّ پول بازدراء. لن تبلغوا شيئاً لأنّكم تكرهون دفع الثّمن.

- من السّهل دفع الثّمن بدم الآخرين.

- دم الآخرين هو دمنا، إنّه الدّم نفسُه، قال پول.

- إذا رُمنا النّتائج فإنّ الوسائل تصير بلا قيمة، قال ماسون. نحنُ، نحنُ نعرف كيف نريد.

- ربّما تعرفون كيف تريدون، لكنّكم لا تعرفون أنّكم تريدون، قلت. إن تاجرتُم بالنّاسِ، أيّ معنى للنّضال لأجل سعادتهم وشرفهم.

- لستَ عاملاً، قال پول. لهذا غادرتَ الحزب. لهذا تخالِطُ البورجوازيين.

لم أكن عاملاً، أعرف ذلك؛ لكن هذا لا يعني أنّ پول مخطئ. لو أنّ

النّاس كانوا مجرّد مادّة للكَسر من دون حساب، لِمَ قد يشغلنا مستقبلُهم؟ إذا كانت المجازر والمآسي لا وزن لها، ما وزن العدالة والرّخاء؟ رفضتُ حربهم العمياء من أعماق قلبي. لكن لم يكن لهذه الحربِ التي بشّعنا بها وجوهنا ألوانُ الانتصار في عينَيَّ.

كانت إيلين تنتظرني أمام الورشة. كانت السّعادة تطفر من وجهها.

- صحيح؟ قالت. أكيد؟ السّلم؟

- السّلمُ، قلت، لفترة على الأقلّ.

ضحكت كما تضحكُ كلّ النّساءِ، متشبّثة بذراعي.

- سيكون منتهى الغباء الذّهاب للموت لأجل التشيكيّين.

في فيينا كان اليهود يغسلون الأرصفة بالحامض الذي يذيب أصابعهم، تحت أنظار المارّة؛ لن نذهب إلى الموت لأجل هذا؛ ولا كي نمنع انفجارات الانتحاريّين التي تهزّ ليل براغ الهادئ ولا لمنع الحرائق التي ستنشب قريباً في قرى بولونيا. أما زلنا قلقين بشأن معرفة سبب استمرارنا في الحياة، ونحنُ مشغولون بإعلان عدم رغبتنا في الموت؟

- ماذا؟ لستَ سعيداً؟ قالت لي إيلين. مع أنّك لم تكن في صفّ الحرب؟

لستُ مع الحرب؛ أنا مع السّلم. لستُ مذنباً. كنتُ وحيداً. لم أكن قادراً على الفرح ولا على أن أبدو نزيهاً. ملتصقاً بالعالم عبر جذور عنيدة تُكوّن نُسغي مع ألف سُكّرٍ مُستَعار، غيرَ قادر على الهروب للتحليق بعيداً، لكَسرِها، لإعادتها، أو للنجاة منها إلا من خلال القلق الذي يسبّبُهُ وجودي.

- لا نعرف أكثر من أن نريد، قلت بغموض.

- آه! أنا سعيدة جدّاً، قالت إيلين. أنا خائفة، أشعُرُ أنّي أُبعَثُ مرّة أخرى. داعبت أصابعي: كانوا قادرين على اختطافك، والإلقاء بك في حفرة، موجّهين البنادق والمدافع صوبَك. سيكون تخيّل الشّخص الذي نُحبُّه في خطر هو الموت بنارٍ ضعيفة، دقيقة بعد أخرى. ابتسمت لي: أنت، تشعُر بالنّدم لأجل التشيكيّين؟

– يحزّ في نفسي أن أرى هؤلاء النّاس سعداء لأنّهم نجوا بجلودهم.

– أنا أفهمهم جيّدا، قالت إيلين. حين نموت، ماذا يجدي أن نكون سخيّين، وأبطالاً وكلّ هذا؟ هوو! يرعبني الموت.

«يرعبني الموت». كنتِ تمشين بخطوات عريضة أنيقة وكان ذيلُ فستانِك يداعب ركبَتيْك السّمراويْن؛ لا أحد يخطرُ له أنّك قادرة على الموت. التَصَقتِ بي:

– يرعِبُني أكثر منكِ أن تموتي.

كانت تحبّني؛ كانت سعيدة لأنّي تُركتُ لأجلها. لم أشأ أن أفسد فرحتها. ابتسمتُ وتحدّثتُ بغبطة. قطعنا باريس وتناولنا المُثلّجات في ساحة ميديسيس. كانت اللّيلة لطيفة. جلسنا في السُلّم الصّغير الذي في زاوية من شارع سان جاك. أراحت رأسها على كتفي.

– أبدو لك صغيرة جدّاً، أليس كذلك؟ ولا أفهمُك جيّداً؟

داعبتُ شعرها. فكّرت: لا نعرف أكثر من أن نريد. كلّ ما نفعَلُه يفشَل؛ ينتهي الأمر بانعدام الجدوى من الفعل أو خلاف ذلك. ما دمتُ أرغَبُ في أن تظنَّ أنّها محبوبة، لم يظلّ سوى أن أقول لها الكلمات التي تتمنّى سماعَها.

– كبُرتِ منذ سنتيْنِ، قلت. أضفتُ: أحاسيسي ناحيتكِ كبرت أيضاً.

– صحيح؟ قالت؛ ضغطت على يدي: يظهر أنّك تعلّقتَ بي أكثر من ذي قبل.

– تعلمين، أنتِ تشتكين من أنّي لستُ في حاجة إليكِ: هذا صحيح. لكنّكِ خلقتِ هذه الحاجة. في الوقت الحاضر، أنا في حاجة إليكِ.

– أنا؟ في ماذا تحتاج إليّ؟ قالت.

– أنتِ ضروريّة بالنّسبة إليَّ لأنّي أحبُّك، قلت. كنتِ بين ذراعيّ، وكان قلبي ثقيلاً، بسبب ما يتناهى إلى مسامعي من احتفالات، ولأنّي كنتُ أكذب. كنتُ مسحوقاً بسبب الأشياء التي توجد رغماً عنّي والتي لم يكن يفصلني عنها سوى قلقي. لم يعد هناك شيء. على هذا السّرير؛ لا أحد

أمامي، هوّة عدم سحيقة. وحطّ القلق، وأنا وحدي في الفراغ، وسط أشياء فاقدة للوعي. أنا وحدي. أنا ذلك القلق الذي يوجد وحدَه، رغماً عنه؛ اتّحدتُ مع هذا الوجود الأعمى. رغماً عنّي، مع أنّه ينبع منّي. أرفُض أن توجَد: أنا أوجَد. قرّر أن توجَد: أنا أوجَد. ارفُض. قرّرْ. أنا أوجَد. سيكون هناكَ فجر.

انضم إلى مكتبة اضغط هنا

سجل على تيليجرام

@t_pdf

-VI-

كان جالساً بين أمّه وأبيه، هناك، في عمق واحد من الشّوارع المحفوفة بالكستناء والتي يحرُسها أسدٌ برونزيّ. كان حضوره يشعُّ في المفترق، في الأرض بأسرها؛ كان العالم مُشوّهاً إلى الأبد؛ كان عالَمُه. ثريّاً، متناغماً، حافلاً بالفرح من كلّ الجهات. تأبّطت إيلين كرسيّاً قابلاً للطيّ، وعُدّة الرّسم. لم يكن عليها الإسراع، لو أنّها وصلت باكراً ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع السيّد بلومار، فسيكون ذلك فظيعاً. السّاعة الثّانية. سأسمعُ صوتَها خلال ثوان. «اشتغلتَ جيّداً؟» إلى الغدِ صباحاً. أحبّ أيّام الأحد، الآن. هذه اللّيلة بين ذراعيْه. يُحبُّني. ألقت نظرة على المرآة وسوّت خصلة بتغنّج؛ بات لون شعرها وشكلُ أنفها مُهمَّيْن لأنّهما في الوجه الذي يحبُّه.

اقتربَت من المنزل. بلومار وأبناؤه، للطّباعة. ضغطت على الزرّ؛ سُمِعَ أزيز ثمَّ فُتح الباب. فوراً، تسلّلت رائحة مُغبَرّة من السُلَّم، كان يصعدُ ذلك السُلّم ويتنفّس تلك الرّائحة. كانت الرّائحة لا تزالُ هناك، السجّادُ الأزرق أيضاً؛ لكنّ الفتى الوردِيَّ لم يعد في أيّ مكان. مع ذلك، كان هناك ما يوحي بأنّ الماضي تابع مسيره، غيرَ بعيد، ليس أبعد من شنغهاي أو القسطنطينيّة. دفع باب الورشة؛ صعد إلى البيت بتقزّز. كيف أمكنه أن يفوتني! كان بالإمكان أنّنا لم نعرف بعضنا بعضاً. مرّت غيمة بقلب إيلين؛ بدت الأرضُ رخوة تحتها. وضعت إصبَعها على الجرس.

– لو أرادت الآنسة أن تدخل.

انتفت الخادمة أمامها. نزلت إيلين الدّرجات المؤدّية للصّالون. كانت النّشوة تذيب قلبها. كان هناك، بجوار أمّه أمام طاولة صغيرة مليئة بالأكواب. أزهار توليب، شمعيّة ومُهذّبة، وآنية كريستال.

- صباح الخير، سيّدتي.

- صباح الخير، إيلين.

سحبت إيلين يدها.

- لديّ طلاء تحت أظفاري. لقد اشتغلتُ طوال الصّباح. ابتسمت لـ «جون»: صباح الخير.

- قهوة جيّدة، قال جون: تريدين كأساً زجاجيّة؟

- لِمَ لا؟ قالت إيلين. جلست بمحاذاة السيّدة بلومار. أمّه. غريب هو التّفكير في أنّه يدين بحياته لشخص آخر. هل كان بالإمكان ألّا يوجَد؟ كانت السيّدة بلومار جالسة على كنبة، كانت إحدى ساقيها مثنيّة تحتها، ماسكة كاحلها. كانت تبدو شابّة بعد.

- ما الذي يثيركِ؟ قال جون.

ضحكت بقليل من الاضطراب. لم تعتد أن يقرأ أحدهم أفكارَها.

- لن أصدّق أبداً أنّكِ أمُّه، قالت للسيّدة بلومار.

- ربّما لأنّه طويلُ القامة، قالت السيّدة بلومار. رمقتها بنوع من المفاجأة السعيدة. هذا أيضاً غريب: أن يُفضى بعلامة خاصّة عنه. إنّه طويل القامة. وأشقر. وله من العمر أكثر من ثلاثين سنة. هكذا بدا لإلين للوهلة الأولى في الـ «پور- سالي».

- ماذا لديكِ اليوم، في المساء؟ قالت السيّدة بلومار.

- سنخرج في نزهة مع مارسيل ودينيس، قال جون. تريد إيلين أن تصحبنا إلى حديقة الحيوانات.

- هذا مُسلٍّ، قالت إيلين.

– الأمر الأقلّ تسلية هو ضرورة تبليغ دينيس برأيي في روايتها، قال جون.

– ماذا ستقول لها بالضّبط؟

– قرأته؛ ماذا عساي أن أفعل؟ هذا بلا أمل.

– أيَّ شيء، قالت السيّدة بلومار.

– أيَّ شيء، قال جون بصوت حنون. سمك الشبّوط المتعفّن الذي قدّمتِه لنا في ذاك اليوم، قلتِ عنه أيضاً أنّه أيّ شيء.

– مسكينة دينيس! هي المتمسّكة بحتميّة وجود عبقريّة في شؤون البيت، قالت إيلين.

– ربّما في إمكانها التطوّر، بالعمل، قالت السيّدة بلومار.

– لقد اشتغلت، قال جون. بشكل فظيع. كانت تستيقظ السّادسة من كلّ صباح، لم تكن ترى أحداً. نظر إلى أمّه بقلق: أترين من النّزاهة أن أتركها تستمرّ، فيما طلبت رأيي بصدق؟

أحسّت إيلين بلدغة في قلبها. «لن يرجع إليّ بجدّية كهذه»، فكّرت.

– ألا يمكن توجيهها إلى أمر آخر؟ قالت السيّدة بلومار.

– السّياسة، قال جون، لكنّها لن تشفي غليلها. مؤسف حقّا ألّا يكون لها موهبة. كان ذلك سيعالج كلّ شيء.

– خسارة، قالت السيّدة بلومار. إنّها شجاعة.

– لديها فضائل كثيرة، قالت إيلين، لكن المحزن هو أنّنا لا نعرف لها إرادة.

– أنا أرى أنّها رقيقة، قالت السيّدة بلومار بقليل من الحرارة.

– لكنّها رواية سيّئة، قالت إيلين.

تلك المرأة المسحوقة بشخصيّة زوجها.

عبث هي عبقريّتها في إنكار نفسها. أتساءل إن كانت ترى مارسيل كذلك أيضاً.

– مارسيل إنسانٌ مستحيل، قالت السيّدة بلومار. طريقته في الحياة. هذا طيش.

– هناك تطوّر كبير، قال جون. لقد وافق على إنجاز الديكور لفائدة شولسبرغ؛ سيكسب المال.

– ثمّ بعد كلّ شيء، كلّ ما يطلُبُه أن يُترَك بسلام، قالت إيلين. دينيس لا يمكنها أن تطلب منه ما يناقض ضميره.

– على ضميره أن يخبرَه بأنّ دينيس موجودة، قالت السيّدة بلومار. وصعد قليل من الدّم إلى وجهها: جميل أن يكون لدى المرء قلق أخلاقيّ، لكن لو اقتصر على ما يعجبه فسيكون ذلك جيّداً.

– لكنّ لِلآخرين حقّاً علينا؟ قالت إيلين. لم أفهم هذا قط.

– المسألة لا تتعلّق بالحقوق، قال جون، إنّهم هنا.

– نعم، قالت السيّدة بلومار... ينبغي أن يكون المرء مريضاً كي لا يراها.

نظرت إليها إيلين، ونظرت إلى جون. «أنا مريضة»، فكّرت باستياء.

نهض جون.

– إذًا! يجب أن أذهب.

مال على أمّه. حذاء جميل، قال وهو يرتدي خُفّيه.

– جون! صرخت السيّدة بلومار بضيق.

لمس كعب الحذاء العالي المخفيّ في الحذاء الـ «ليزار».

– لن تجدي السّلوى أبداً، لأنّك لم تكوني بدينة، وفارعة الطّول، قال.

– أنتَ بذيء، قالت السيّدة بلومار.

– خذي، قال جون، متاعُك. قبّل أمّه: إلى الأربعاء. سأطلع إيلين على مشاريعنا.

– أيّ مشاريع؟ قالت إيلين عندما التقيا في الشّارع.

– سأخبرُك. لمس جون كتفها: أنت اليوم جميلة.

- أيّ مشاريع؟ أصرّت إيلين.

- كم أنتِ فضوليّة! قال جون. حسناً! سألتني أمّي، بدوري، طرحتُه على نفسي فترة: لِمَ لا نتزوّج، أنا وأنتِ؟

- نتزوّج! قالت إيلين. مرّرت لسانها على شفتيها. بين ذراعيه كلّ ليلة؛ كلّ صباح لدى استيقاظها، وجهُه. لكن أبداً لا يمكنها أن تتخيّل سعادة سرّية كصلاة مثل هذه: لكنّك لا تحبّ أن تكون زوجاً.

- لِمَ لا؟ ابتسم جون: لن أحوّلك إلى امرأة حزينة.

- كم أنت لطيف، قالت إيلين.

- لستُ لطيفاً، أحبُّكِ.

- لطف منك أن تحبّني. رمقته بتردّد؛ كان رقيقاً، وكريماً. ألم يفكّر فيها وحدها؟

- أخشى أن أكون عبئاً، قالت.

- حمقاء! قال جون. ها قد أصبحتِ متواضعة. ضمّ يد إيلين بين يديه.

أتريدين أن نقرّر متى نتزوّج؟

- لنقرّر، قالت إيلين ببهجة.

ضحكت، رغماً عن فمها، لمعت عيناها وأحسّت غليان ذهب حارق في قلبها. ابتسم. مشيا بصمت مدّة؛ كانا يحبّان بعضهما، ما من شيء يُقال.

- سنفاجئ مارسيل، قال جون.

صعدا السُلّم. كان على الباب شارة تقول: «اطرُق بقوّة»؛ كان الجرسُ معطّلا. طرق جون وفتحت دينيس. كان على رأسها قبّعة بنفسجيّة تعطي انطباعا بأنّها امرأة مهمّة؛ كانت تمسك بقفّازيها وحقيبة يدها.

- لا تدخلا، قالت. هناك فوضى غيرُ مشرّفة. رقّ صوتُها شفقة: مستحيل أن يدخل التّرتيب ماخوراً كهذا.

كان للكلمات الكبيرة في فمها المختلف رنين خاطئ وهمجيّ.

- ألن يأتي مارسيل معنا؟ قال جون.

- سيلتحق بنا في العشاء. لم يشأ أن يقطع مباراة شطرنج.

- ألا يزالُ في تشدّده؟

- قرّر أن يكون بطلاً، قالت دينيس بجفاف.

نزلوا السُلّم ببطء الملتوي. «بداية سيّئة»، فكّرت إيلين. كان وجه دينيس موسوماً ببقعتين حمراوين على خدّيها؛ وكانت زاوية فمها متهدّلة.

- أدعوكما وأدعو نفسي إلى تاكسي، قالت دينيس. أشارت بيدها؛ توقّفت سيّارة تاكسي: من فضلك، هل تقلّنا إلى متنزّه حديقة الحيوانات في ڤانسان؟ قالت بصوتها ونبرتها الغنائيّة التي تستعملها مع سائق التّاكسي ونادل المقهى. استحال صوتُها جافّاً: لنستغلَّ الفرصة ما دام مارسيل قد قرّر أن يكسب المال.

- هل تسير الأمور جيّداً؟ قال جون.

- كأفضل ما يكون. يُلطّخ التّصاميم، تماماً كما تُطلى واجهات البنايات؛ ثمّ بعد ذلك، يدفع قطع خشبه.

- لكنّه يكسب جيّداً، قال جون.

- بما أنّني لم أشكُ قط من الفقر. قالت دينيس. خيّم صمت ثقيل. ثبّتت دينيس نظراتها بوحشيّة في الفراغ بصورة غائمة. تذكّرت إيلين: فظيع أن أكون تعيسة، كنّا وحدنا في العالم.

- سأريك بعض الأشياء، قالت إيلين وهي تتخطّى باب المدخل. الأكواريوم، الببغاوات، الضّواري، الكناغر. تريد؟

- طبعا، قال جون، أريد أن أرى هذه الحيوانات.

ابتسمت إيلين. كانت تأتي بين الحين والآخر، لترسم طيور الفلامنغو، الزّرافات، والمُدَرّع وآكل النّمل. عند منتصف النّهار، كانت تصعد إلى الأعلى حيثُ صخرة القردة لتتأمّل باريس وهي تأكل شطيرة لحم العجل. كانت أيّاماً جميلة. أيّاماً حمراء. لكن في ذلك الوقت، حتّى فترات السّعادة كان لها طعم منقوص.

- انتظري، سأشتري سمكاً لأسد البحر، قال جون. دنا من البائعة التي كانت واقفة خلف مقصف حيثُ تتركّز سلّة محتشدة؛ قال لها بعض الكلمات، وأخذت البائعة تضحك. كان النّاس يكنّون له المودّة. ربّما بسبب تلك النّظرة الأخويّة التي ينظر بها إليهم، وطريقته في التكلّم معهم.

- تريدين؟ قال لدينيس.

- لا، شكراً، قالت دينيس.

أمسك جون سمكة صغيرة من ذيلها، وانحنى على الحافّة الإسمنتيّة: انتصب أسدُ بحر كبير، الفكّان مفتوحان، وقفز في استقامة، مصدراً نباحاً نافد الصّبر. سحب جون السّمكة.

- ستمزّق أصابعَك، قالت إيلين.

- لا خطر، قال جون.

أعاد الكرّة، كان مطمئنّاً، ومبتهجاً. في ما مضى، كان دائماً مشغولاً. «يُحبُّني»، فكّرت إيلين. أفلت السّمكة فالتقطها أسد البحر بفمه.

- حيوان ظريف، قرّر جون.

- جميع الحيوانات ظريفة، قالت إيلين.

ابتسمت له. كان يحبُّها، لم تكن تشعر بالخواء في داخلها، ولم يكن يساورها الشكّ. لم تعد تتساءل أين ستذهب أو ما فائدة المكوث هنا. كما لو كان لها مكان محدّد في الأرض، وأنّها مندمجة بشكل جيّد. فقط، مكان بجواره، برأس يصل إلى كتفه، في هذا المتنزّه الكبير المليء بالصّخور حيثُ تمتزج رائحة الضّواري بعطر البراعم الجديدة. «سنتزوّج».

- إذًا! لم تهتمّي بنا! قال جون.

- لكنّكم تعرفون، الآن، الحديقة أكثر مثلما أعرفها، قالت إيلين. كانوا جالسين تحت خيمة مخطّطة باللّون البرتقاليّ، بالقرب من كشك حيثُ يحتسي عدد من الأطفال الصّودا الورديّة والخضراء. كانت إيلين تحبّ المعروضات: الملبّس اللّولبيّ، الحلوى، البسكويت، وتلك

الأواني الممتلئة بسوائل ذات ألوان متوهّجة؛ في لون الكرات المعلّقة في عصيّ خشبيّة، شبيهة بعناقيد عملاقة من الحلوى الحامضة.

- إنّها لوحة رائعة، قالت.

- نعم، قالت دينيس. مرّت بنظراتها على الأواني والكرات كما لو كانت غير مرئيّة. ألقت إيلين نظرة على جون؛ كان يحتسي كأسَه بأريحيّة، لكنّه كان يعرف، هو أيضاً، أنّ الأوان قد حان.

- هل تذكر وعدك؟ قالت دينيس.

رمقها جون بنظرة مُستفهمة.

- كان يفتَرَضُ أن أسمع رأيك في روايتي. هل أتممتها؟

- نعم، قال جون. إذًا؟

ساد صمت قصير. تشنّجت الابتسامة فوق شفتَيْ دينيس.

- مُشوّقة، قال جون. إنّها مليئة بالأشياء. كان في حديثه نبرة شاملة وصريحة قادرة على خداع إيلين نفسها: فقط، وهذا طبيعيّ، هو عمل مبتدئين. أعتقد أنّنا نتعلّم كتابة الرّواية كما نتعلّم صنع الأحذية. لا تملكين الحرفة بعد.

- ماذا تقصد تحديداً؟ قالت دينيس. كانت وجنتاها تلمعان؛ كانت تجد صعوبة في إكساب صوتها نوعاً من الوقار.

- تشرحين كثيراً، قال جون. لا تشيرين إلى شيء. لديك أشياء كثيرة تريدين قولها لكنّك لا تكترثين كثيراً بطريقة تبليغها. بدا العمل أقرب إلى مقتطفات من مذكّرات شخصيّة منه إلى رواية.

- مع أنّي أشرتُ إلى صابين، وأشرتُ إلى إلوا...

- قلتِ ما ينبغي أن نفكّر في شأنهم: أنتِ لا تظهرينهم. كانوا باهتين بشكل فظيع. ولم تحاولي حبك قصّة.

أشعلت دينيس سيجارة بتأنّق.

- إجمالاً، عليَّ البدء من جديد، قالت.

- بصراحة، نعم؛ كلّ شيء تقريباً، قال جون.
- لم يخطر لي أنّها كريهة إلى هذا الحدّ، قالت دينيس.
- كريهة... لا. عملٌ أوّل، قال جون.
- نعم.

دخّنت بصمت. مع دينيس لم يكن التّخفيف من الحقيقة ممكناً؛ كانت دائماً تواجه.

- أتعتقد أنّها تستحقّ إعادة كتابة؟ أتعتقد أنّي سأصل إلى شيء؟
- هذا ما لن أجيبك عليه، قال جون.
- أنا لا أطلب منك التنبُّؤ، قالت دينيس. انطباعك، فقط...

تردّد جون. راحت إيلين تراقب شفتيه بقلق. كان دائماً يقول الحقيقة.

- أرى أنّك أفضل في كتابة المحاولات، قال جون. القضيّة الحقيقيّة هي أن تجدي اللّون الذي يناسبك.

خفّضت دينيس خمار وجهها بحركة حادّة.

- أوه! أظنّ أنّي فهمتُ ما يناسبني، قالت. شكراً لك. نهضت: لابدّ أنّ مارسيل ينتظرنا، علينا أن نغادر.
- لا تأخذي الأمور على هذا النّحو، قال جون. من النّادر أن تنجح الضّربة الأولى. القضيّة هي أن تعرفي ما إذا كنتِ تطمحين إلى الكتابة...

لم تردّ دينيس بشيء؛ مشت بخطى حثيثة؛ اقتربت من تاكسي.

- ساحة سان-جرمان-دي پري.

انزوت داخل السيّارة وحدّقت في رقبة السّائق؛ كان وجهها متهدّلاً، لم تحاول، حتّى، أن تحافظ على مظهر محتشم. هي التي كانت دائماً مؤدّبة، ولائقة؛ ينبغي أن تكون متعبة جدّاً.

- وصلنا، قال جون.

استدارت نحوه ونظرت إليه بنوع من التعجّب.

- تفضّلي، قال جون وهو يفتح الباب.

نزلت، دفع للسّائق وأغلق الباب.

- عصفتَ برأسها! قالت إيلين.

- لكن، لِمَ طلبت رأيي؟ قال جون بنوع من الغضب. دائماً، نفس الحكاية. دائماً...

دخلوا. كان مارسيل جالساً في عمق الصّالة؛ أشرق وجهه بابتسامة.

- انتظرتُكم بفارغ الصّبر، قال. أشعر بجوع عملاق.

- نحنُ أيضاً، قال جون. جعلتنا إيلين نركُض بين القردة وبين جزر الكايمن، ومن الكايمن إلى نسور الجيف.

- مؤسف أنّك لم تأتِ معنا، قالت إيلين.

- هل لعبت جيّداً، على الأقلّ؟ هل فُزت؟ قال جون.

ضحك مارسيل بغموض.

- أنا أتطوّر، قال. ناول إيلين القائمة: ماذا تأكلين؟

- سأنزل لأغسل يديَّ، قالت دينيس.

- اطلُبي أوّلاً، قال مارسيل.

هزّت كتفيها.

- اطلُب لي أيّ شيء.

- أطلُب «پاتي»، قالت إيلين. ثمّ مازلتُ متردّدة بين اللحم المفروم والحمام.

- خذي اللّحم والحمام، قال مارسيل.

- أوه! لا، قالت مُشَوّشة.

- ولِمَ لا؟ تقتُلُكِ الرّغبة.

تناولت حقيبتها ونزلت السُلّم الذي يفضي إلى الحمّام. دفعت الباب؛ كانت دينيس أمام المرآة، كانت قد نزعت خمار وجهها، تبادلا النّظرات، بدا كأنّهما قد تحجّرتا إلى الأبد في تساؤل يائس.

- لديّ سحنة برّية، قالت إيلين.

خفقت دينيس بجفنيها؛ امتدّت يدها نحو أحمر شفاهها ومرّرته آليا على شفتيها؛ مشّطت إيلين شعرها بضيق؛ ما من كلمة تُقال، كلّ كلام سيكون شتيمة، لكن مع كلّ لحظة تمرّ، يصبح الصّمتُ خانقاً أكثر. ارتبكت إيلين فجأة. «حسناً! هذا يكفي!» صعدت السُلّم بخفّة. خلفها، كانت دينيس تمشي بخطوات رصينة.

– جاء العشاء، قال مارسيل.

كان على الطّاولة غلاف دمشقيّ؛ قارورة بعنق طويل تسبح في آنية ثلج. كان في صحن إيلين قطعة كبد ورديّة اللّون مزيّنة بالمقرمشات.

– آه! كبد دهنيّ! قالت إيلين بنشوة.

– ذلك لأنّها الحفلة هذا المساء، قال مارسيل. لقد أخبرني جون. ملأ الكؤوس: ما رأيُكِ؟ قال لدينيس. أتعتقدين أنّ جون سيكون زوجاً جيّداً؟

ندّت عن دينيس تكشيرة معبّرة.

– ربّما، قالت. سيكون ثمّة أوقاتٌ جميلة.

لم تعد أصباغها؛ كانت شفتاها فقط مطليّة بالأحمر؛ كانت عيناها تشعّان قسوة معدنيّة في وجهها الأصفر.

– أشرب في نخب عشّكما، قال مارسيل.

– في صحّة بطولة الشّطرنج، قال جون.

شربا. أطرقت إيلين. كان ثبات دينيس يشلّها.

– ألا تأكلين؟ قال مارسيل.

– هذا مؤثّر، قالت دينيس. راحت تحوّل نظراتها بشرود بين مارسيل وجون وإلين: نحن هنا نأكل الكبد، قالت.

– ليس ثمّة ما يُقال في شأن الكبد، قال جون بلباقة.

– مرّر صحنك لإيلين، إنّها تبلي جيّداً، قال مارسيل.

– ستمرض، قال جون.

- إنّها أقوى من ذلك بكثير، قال مارسيل؛ مرّر قطعة الكبد إلى صحن إيلين: أحبّ مشاهدتها تأكل.

- شكراً، قالت إيلين بتحفّظ.

كان ضحك مارسيل متناقضاً مع وجه دينيس. كان يبدو مطمئناً ورائق المزاج.

رمقت جون. هو أيضاً كان ينظر إليها بقلق.

- مكان جميل، قالت لتخرق الصّمت.

- أليس كذلك؟ الشّخص الذي أنجز الدّيكور يعرف تماماً ما يتوّجب القيام به، قال مارسيل. لم يترك مقدار بوصة للمصادفة.

كانت الجدران مكسوّة بالخزف الأزرق والأصفر: سمك، طيور، أشجار نخيل.

- قُل، ديكورك أنت، أريد أن أراه، قال جون. يبدو أنّه ناجح. ضحك مارسيل.

- بالتّأكيد. من السّهل إرضاؤهم.

- آه! تجد ذلك سهلاً! قالت دينيس؛ بدا كأنّها قدِمَت من حلم.

- أسهل بكثير من أن يصبح المرء مهمّاً، قال مارسيل.

سخرت دينيس:

- هل الشّطرنج مهمّ؟

- مهمّ بشغف، قال مارسيل. استدار ناحية جون: الخلق في أصله. أشار بإصبعه إلى رأسه: يخرج كلّ شيء من هنا. لا وجود للرّقعة، هي فقط مجرّد علامة. ابتسم بمكر: خلال فترة قصيرة سيكون في وسعي أن ألعب مغمض العينين.

ضربت دينيس الطّاولة بطرف إصبعها.

- ماذا قال شلوزبرغ تحديداً؟

- قال يمكن التعرّف على حافر رسّام، قال مارسيل وهو يبسط يده الضّخمة.

ضحكت دينيس بنزق.

- لكنّك لستَ رسّاماً، إلّا بقدر ما أنّي كاتبة.

- جميل أن يكون شلوزبرغ سعيداً، قال جون بنبرة مواساة.

حدجته دينيس بنظرة:

- نعم، أنت لا تهتمّ، قالت بصوت قويّ. لديك عملك النّقابيّ. ومارسيل لديه الشّطرنج. وإيلين لديها أنت. أمّا أنا...، قالت بنوع من البكاء، أنا، لا أملك شيئاً.

خيّم صمت قصير. استدارت دينيس بعينيها وتناولت قطعة خبز بين أصابعها.

- أيّها النّادل! قال مارسيل، الطّبق الرّئيسيّ.

«مارسيل له الشّطرنج. وأنا لي جون»، أعادت إيلين على نفسها. نظرت إلى جون. وحدَه. هل هذا يكفي؟ أحسّت بالغسق القديم حولها، برائحة العسل والكاكو؛ كان القلق القديم حاضراً، تكاد تلمسه.

- الحمام أوّلاً، قال مارسيل.

وضع النّادل على الطّاولة طبقاً مُغطّى بجرسٍ معدنيّ. رفع الغطاء واستنشقت إيلين بخار البازلاء بتلذّذ. تلاشى الماضي في لمحة خاطفة.

- كلي، قال مارسيل لدينيس. خطؤك هو أنّك لا تأكلين.

ألقت عليه نظرة انبهار. تبادل جون وإيلين نظرة توجّس.

- لكن، أنا جادّ، قال مارسيل. ليس ثمّة وسيلة لبلوغ الكينونة إلّا من خلال الأكل.

ضربت دينيس صحنها بقفا يدها؛ انقلبت البازلاء والحمام وتحطّم الصّحن الخزفيّ على البلاط واختلطت الشّظايا بالأكل.

- هذا يكفي، قالت دينيس. يكفي، يكفي! أعادت وهي تنهض. سارت صوب الباب.

- سأذهب معها، قالت إيلين.

– اذهبي، قال جون، وابقَيْ معها الوقت الذي يلزم. سأنتظرك في بيتي هذه اللّيلة وغداً صباحاً.

نظرت إليه بقلب منقبض؛ سبت واحد في الأسبوع؛ ليلة واحدة. انطلقت خلف دينيس؛ أمسكت بذراعها.

– سأرافقكِ، قالت. أترغبين؟

تقدّمت دينيس خطوات من دون إجابة.

– هذا الرّجل! قالت. توقّفت، استندت إلى جدار: لا أريد رؤيته مجدّداً، أبداً، أبداً.

أحسّت بها إيلين تترنّح.

– نبقى هنا، قالت إيلين. لنصعد إلى شقّتكِ.

غمغمت دينيس بأشياء غير مفهومة.

– ماذا؟ قالت إيلين. ألا ترغبين في العودة إلى بيتك؟

– أبداً، قالت دينيس.

كانت مسندة ظهرها إلى الجدار، بنظرات ثابتة. نظرت إليها إيلين بتردّد.

– إذًا، تعالَيْ، قالت فجأة. سنحجز لك غرفة في الفندق. أنت منهكة.

رافقت دينيس عبر الطّريق. كان هناك فندق في الجهة المقابلة؛ وكانت صالة الاستقبال مفروشة بزربية حمراء ومؤثّثة بكنبات وثيرة من الجلد؛ كانت هناك رائحة تضوع من السّكرية النّحاسيّة.

– ألديكم غرفة لليلة؟ لشخص واحد؟

– «إيما»، رافقي السيّدتين إلى الغرفة 7، قالت المالكة.

تناولت عاملة الغرف المفاتيح وصعدت الدّرجات بخطوات واسعة على الموكيت السّميك. فتحت باباً.

– رائع، قالت إيلين بحيويّة. أغلقت الباب: تمدّدي دينيس وحاولي أن ترتاحي.

نزعت دينيس خمار وجهها؛ وضعت قبّعتها على الطّاولة برفق.

- لستُ مريضة، قالت. جلست على حافّة السّرير. لو كنتُ مريضة لأمكن علاجي. لا. ولكن لديّ شيئاً سيّئاً في فمي، وهذا لا دواء له.

رمقت إيلين بنوع من الضّغينة: قولي لي ماذا بي.

- لا شيء، قالت إيلين.

هزئت دينيس.

- لا تريدين أن تقولي؟

خفق قلب إيلين؛ أحسّت بالخوف.

- سأتدبّر أمري كي أعرف، قالت دينيس بتحدٍّ.

- دينيس، هذا هراء، قالت إيلين؛ وضعت يدها على يد دينيس. سحبتها دينيس بحركة خاطفة.

- تعلمين. تعلمين لِمَ يكرهني مارسيل، قالت. أخذت ترتعش: ينام على الأرض في اللّيل لأنّ التماسّ يزعجُه؛ وهو مؤدّب دائماً، أفضّل أن يضربني. قولي: لِمَ يكرهني؟

- هو لا يكرهُكِ، قالت إيلين.

- لا تكذبي، قالت دينيس بعنف. نظرت حولها: لِمَ أتيتِ بي إلى هنا؟

- كي ترتاحي، قالت إيلين.

ومضت عينا دينيس.

- أرتاح! تراجع جبينها إلى الوراء: هل أنت صديقة أم عدُوّة؟ قالت بريبة.

- تعرفين جيّدا أنّي صديقتك، قالت إيلين.

- صديقتي! قالت دينيس. ليس لي أصدقاء. أنا أبغض نفسي. فجأة، انهارت باكية على السّرير: أنا عاجزة، قالت.

مسحت إيلين بيدها على الشّعر الأحمر الغزير.

- لا ينبغي أن تأسفي هكذا، قالت. لا أحد ينجَحُ من المرّة الأولى.

– أعلم، قالت دينيس. ليس لديّ ما أقول. علمتُ ذلك طوال الوقت. ماذا إذًا؟ صرخت بيأس. قولي لي: ماذا؟ انخرطت في البكاء، انهمرت دموعها: ندّ عنها أنين طويل؛ كانت ترتعد من رأسها إلى قدمها. ارتمت إيلين بجانبها وألصقت راحة يدها على فم دينيس.

– لا تصرخي، قالت. اهدئي.

صمتت دينيس فجأة.

– أنا متعبة جدّاً، قالت.

– حاولي أن تنامي، قالت إيلين. سأظلّ هنا.

– شكراً، قالت دينيس. اعذريني.

أغمضت عينيْها. أطفأت إيلين النّور وجلست بجانب السّرير. ظهر بصيص نور من خلال السّتائر المخمليّة. «ماذا إذًا؟» أعادت على نفسها. «ماذا؟» نظرت إلى دينيس. كان وجهها تحت الشّعر الفوضويّ أحمر بفعل الحمّى. لِمَ هذا القدر من الدّموع والكفاح والرّغبة والنّدم؟ تجمّد قلبُها. حياة دينيس. حياتي. جزر متناهية الصّغر في بحر أسود، ضائعة تحت سماء فارغة، بعد حين ستكون مغطّاة بالماء. «أنا لي جون». لكنّه سيموت يوماً؛ سيموت حُبُّهما. لن تبقى سوى هذه اللّيلة القاحلة التي لا تسمح بالتّفكير فيها. «أنا أعمي نفسي»، فكّرت إيلين. «أنا أيضاً، أعمي نفسي، عمداً». كانت لديها رغبة في الارتماء على السّرير مثل دينيس، وأن تصرخ.

فتحت دينيس عينيها وانتصبت فجأة.

– ماذا تفعلين هنا؟ قالت.

– فكّرتُ في أنّكِ قد تحتاجين إلى شيء، قالت إيلين.

– لا حاجة لي بأحد، قالت دينيس بعنف؛ مرّرت يدها على جبينها: حلُمتُ، قالت.

– تريدين أن أذهب؟ قالت.

– نعم، قالت دينيس؛ نظرت إلى إيلين بريبة: كنتِ تراقبينني وأنا نائمة.

- لا، قالت إيلين.

- بل كنتِ تراقبينني، قالت دينيس بصوت حازم. لستُ في حاجة إليكِ هنا.

- حسناً، سأذهب، قالت إيلين. نهضت: سأعود غداً صباحاً، قالت.

لم تردَّ دينيس.

- إلى الغد، كرّرت إيلين.

خرجت من الغرفة ألقت نظرة على الباب بتردّد. ثمّ استدارت ونزلت السُلّمَ أربعاً أربعاً.

- تاكسي. شارع سوفروي. اتّكأت على مقعد. بضع ثوانٍ أخرى. كان وجهها متوهّجا تحت شعرها الأحمر؛ قال الصّوت: «ماذا إذًا؟ ماذا إذًا؟» صمت الصّوتُ بعد لحظات. لا يهمّ إن عميتُ؛ لا يهمّ. هذا لا يُحتَمَل. مالت على الباب. ساحة كليشي. محطّة فورش. طرقت على الزّجاج.

- هنا.

تسلّقت السُلّم وضغطت ثلاث مرّات على زرّ الجرس. فُتِحَ الباب.

- إيه! لم أكن أطمع في أن تأتي مبكّرة! قال جون.

ارتمت بين أحضانه وظلّت ملتصقة به بصمت.

- ماذا فعلتِ معها؟ قال جون.

- تركتُها نائمة على فراش، في فندق. لم تكن ترغب في العودة إلى بيتها. ضمّت إليها جون أكثر: كان ذلك رهيباً.

- صغيرتي المسكينة! مسح على شعرها: مارسيل رهيب، قال. حاولتُ التحدّث إليه. لكنّه يقول إنّ دينيس هي الجنون الإنسانيّ؛ لا يمكن إقناعه بغير ذلك.

- أخشى أنّها حقّاً أصبحت مجنونة، قالت إيلين. لقد زاغت بشكل غريب. لقد طردتني تقريباً.

- أمر مأساويّ أن تصبح مجنونة، قال جون.

– لماذا؟ قالت إيلين. ابتعدت عنه ونزعت ملابسها. كانت في شوق لتتمدّد على السّرير بين ذراعَيْ جون، في الأمان.

– لأنّها، كما يقول مارسيل، اجتماعيّة إلى حدّ بعيد. الرّواية: لم تكن ترغب في كتابتها؛ كانت ترغب في أن تصبح كاتبة. الفرق كبير.

– اجتماعيّة... قالت إيلين. لكن، بقطع النّظر عن كلّ شيء، هي شبيهة بالآخرين: إنّها تطمح إلى أن يكون لها وجود، كما قال مارسيل.

– ربّما، قال جون. على كلّ، هي تفعل بشكل سيّئ.

– من يطمح بشكل جيّد؟ قالت إيلين. أنت، هل ترى أنّك تبحث عن وجودك بأسلوب جيّد؟

– أنتِ، على الأقلّ، سعيدة، قال جون.

– لكن لعلّها مغالطة، قالت. اندسّت تحت الغطاء البارد وابتسمت. كان هناك. كانت سعيدة. ليس مطروحاً أن تشعر بالنّدم: كانت تعرف أنّ مارسيل لا يحبّها، تابعت. تقول إنّها لا تودّ رؤيته ثانية.

– ستراه ثانية، قال جون.

– يجب ألّا تفعل، قالت إيلين.

– تحبُّه.

– سبب إضافيّ.

ابتسم جون.

– أنت من يقول هذا؟

– نعم، قالت إيلين محمرّة. أنا، حين لا تحبّني، فإنّي أتشوّق أكثر للوصول إليك. نظرت إليه: لكن لو توقّفت عن حبّي الآن، فسيكون الأمر مختلفاً.

– ماذا كنتِ ستفعلين؟ قال جون.

– آه! سترى: سأذهب.

أخذها بين ذراعيه.

- لن أرى شيئاً، قال.

قبّلته وقفزت.

- تعالَ بسرعة، قالت.

- أنا آتٍ، قال جون، اختبئي.

استدارت نحو الجدار. سمعت وقع خطواته في الغرفة، خشخشة ملابسه، الماء الذي يسيل. سيأتي. أغمضت عينيها. ضباب مُشتعل يسري في عروقها؛ ضباب مُعم، تفصلها عن ماضيها غيمة، عن المستقبل وعن الموت.

- ها أنت ذا! قالت.

عانقته؛ دافئاً، ناعماً وقويّاً: جسم. كان هناك: بأكملِه موجوداً في جسم الرّجل هذا الذي تضمّه بين ذراعيْها. كان غائباً طوال النّهار: في ماضيه، مع أفكاره، بجانب أمّه ودينيس، موزّعاً على العالم بأسره. والآن، ها هو ملتصق بلحمها، لحمها الذي بين يديه، وها هي ذي شفتاها تحت شفتيه؛ كي تلحق به، يجدر بها أن تنساق بلا ذكريات، بلا أمل، بلا أفكار، في عمق اللّحظة المتوقّفة: لا شيء عدا جسم أعمى أضيء على نحو أصمّ بقدح ألف شرارة. لا تخنّي. لا تبتعد عن هذا الجسم الذي يناديه جسمي. لا تتركني فريسة لليّل الحارق. أنّت. أنت هنا. أكثر يقيناً من كوني هنا. بالنّسبة إليّ، وليس بالنّسبة إليك، هذا اللّحم المقشعرّ؛ لحمُك. أنت هنا. أنت ترغب فيَّ وتطالب بي. أنا أيضاً هنا، امتلاء ملتهب يتحطّم الوقتُ عليه. إنّها دقيقة حقيقيّة إلى الأبد، حقيقيّة كالموت والأبديّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

-VII-

سيكون هناك فجر. أربع ضربات. دارت عقارب السّاعة في المفترق المقفر؛ دارت في الغرفة التي كان لورون ينام فيها. واتّسع جرح الرّئتين، ووهن القلب. تنفّست هواء اصطناعيّاً. هل ستموت من دون أن تعي ذلك؟ ماذا لو أيقظتُها؟ لكن، حتّى لو بقيت عيناها مفتوحتين حتّى آخر دقيقة، فإنّ موتها سيفلت منها. موتها؛ موتها الخاص، مع ذلك سينفصل عنها؛ لن تعيش موتها. لن يكون هناك فجر.

لن يكون هناك فجر. صمت. قرّر الكلام؛ قرّر الصّمت. توقّف الهمسُ الذي لا يفتر. تفجّر القلق. الصّمتُ. لا وجود لشيء.

لكنّ حلُم الموت هذا موجود. أنا أوجَد، أنا الذي أمعنتُ في الموت. إنّها هي من يموت. أنا أعيش. سيقول خلال ساعتَيْن: «كلّ شيء جاهز». سأسمَعُه. سأكون هنا، أمامه؛ بأكملي قبالته، مجمّعة في القلق الممزِّق، وفي كلّ مكان؛ عاجزة عن التنحّي عن العالم، ولا الضّياع فيه. *أن تكون ميّتا. ألّا تعرف شيئاً. ألّا أعرف وزن جثّتي.* لكنّي أعيش. أعرف. لن أتوقّف عن معرفة ذلك.

عرفتُ. في هذا البرود والرّوتين المُحبط لهذه السّنة، عرفت. أحسستُ في رأسي ثقل اللّعنة الأولى؛ لم يكن مجدياً، حتّى أن أقاوم: لم يكن هناك أيّ وسيلة لإبطالها. تركتُ نفسي أُقذَفُ، بلا مبالاة، في كلّ

نزوات المصادفة: مصادفة الرّغبة ومصادفة النّدم ومصادفة الثّورة؛ أمشي من دون هدف، أتسكّع في اللّيل؛ قدرٌ غير متوقّع كان يلهو بتشتيتنا وكنّا ننتظر طلوع النّهار كي نكتشف في أيّ وحل غرقنا من دون أمل بالخروج.

- عليك أن تتعلّم الشّطرنج، قال مارسيل.

كنّا مسندين على شرفة مرسمه؛ تطلّعنا فوقنا إلى الأسقف المتألّقة للشّمس ومن بعيد «السّاكري-كور»[16] Sacré-cœur الأبيض تماماً السابح في بخار أزرق. ابتسم:

- يبدو لي أنّ هذا هو كلّ ما بقي لك لتفعله.

- سأتزوّج، قلت.

- لم ينقذ ذلك أحداً من قبل.

ساد صمتٌ بيننا.

- كيف هي دينيس؟ قلت.

كانت دينيس قد خرجت. كانت تعالج حزنها كما يُعالَجُ المرض.

- إنّها تقوم بنزهات مشياً على الأقدام، إنّها تعود نفسَها، قال مارسيل بأسف.

- هكذا إذًا! إنّه خبرٌ سعيد. قلت.

- نعم، قال مارسيل. مسكينة دينيس! لا يمكن أن نطلب منها أن تظلّ مجنونة مدى الحياة. أومأ برأسه: لم أكن لأصدّق ذلك منها، قال بإعجاب.

- حين تعود، حاول أن تجعَلَ حياتها مُحتَمَلة، قلت. هذا ليس صعباً.

نظر إليّ باهتمام:

- لاحظ أنّ هذا هو أكثر ما أدهشني: يبدو ذلك سهلاً. ظننتُ أنّها تريد منّي أن أتغيّر حتّى نخاع العظم. هزّ كتفيه: لكن، لا. إنّها تصدّق الكلام.

- نعم، قلت. إنّها فرصة.

- ألا يزعجك أن تكذب؟ قال مارسيل.

16- السّكري-كور Sacré-Cœur: معلم سياحي ديني في مونمارتر.

- إنّها وسيلة الدّفاع الوحيدة عن النّفس بما أنّه لا يسعنا أن نكون في سلام مع ما نحن عليه من دون تعذيب أحدهم.
- كذلك تزوّجت؟ قال مارسيل.
- وجدت غاية، قلت. ما دمتُ أفكّر في إيلين، لن أفكّر في نفسي.
- وهل تفكّر فيها كثيراً؟
- أريد أن تكون سعيدة.
قد يبعِدُك ذلك، قال مارسيل.
- نعم. ماذا يهمّ. لا أدري ما أصنعُ بنفسي.
- أوه! هكذا. أنت بين أيدٍ حنونة، قال مارسيل وهو يضحك بطيبة. سيكون لديها دائماً ما تصنع بك.
هذا على الأقلّ، كانت السّعادة التي أمنحها إيّاها حقيقة ملموسة، كانت تبتسم لي وكنتُ أقول لها «أحبّك». كان الابتهاج الذي يضيء وجهها يستدعي كذباً جديداً لكن ماذا يهمّ لو توصّلتُ إلى عدم تكذيب نفسي؟ كنتُ أحبّها؛ سنتزوّج؛ إنّ الغبطة تغمُرُها وهي ترى كيف أنّي لم أعد أكترث لمرور الوقت وأنا معها.
كانت تقبّلني بشغف.
- كم أنت لطيف، كانت تقول.
- لستُ لطيفاً؛ أحبُّك.
- أنت لطيف لأنّك تحبّني.
لم تكن على علم أنّ كلّ دقيقة ضائعة هي دقيقة ظفرتُ بها؛ لم أكن أطمح في أكثر من نثر حياتي مع الرّياح الأربع من دون أن تترك أثراً.
- لقد تغيّرتَ مقارنة بالسّنة الماضية، قالت لي.
- أترين ذلك؟
- نعم. لم تعد مهموماً، صرتَ أكثر حرّية. من قبل، كنتَ تعطي الانطباع بأنّك ممزّق في كلّ الاتّجاهات؛ لم تكن كاملاً بالقرب منّي قط.
- ربّما، قلت.
أوقفنا القارب قرب ضفة النّهر؛ قوارب أخرى كانت تنزلق مع مجرى

الماء، محمّلة بشباب في مقتبل العمر بجذع برونزيّ؛ كانت الفساتين الزّاهية بالزّهور تخفق مع الرّيح. كانت هناك درّاجات تعبر بصمت على امتداد منصّة الإبحار.

- كم نحن بخير هنا، قالت إيلين. يوم جميل جدّاً.

كانت رائحة الهواء مزيجاً من الأعشاب المائيّة ورائحة قلْي عطن. كان الظلّ قد استطال. يوم جميل. غبار ذهبيّ سابحٌ في الهواء، لا نكادُ نُحسّ به في الأثير. وضعت إيلين باقة زهور أرجوانيّة كبيرة على ركبتيها.

- قطفتِ زهوراً جميلة.

ضحكت:

- عندما كنتُ مخطوبة لپول، كنتُ أتخيّلُ أيّام الأحد في الصّيف على أنّها باقات زهور أرجوانيّة كبيرة موضوعة على مقود درّاجة، وينقبض قلبي.

- بسبب الدرّاجة؟

- غبيّ فجّ. بسبب پول.

كان الفرحُ يجعلها فاتنة. نضجت قسماتها. كان وجهها أكثر إشراقاً وتعبيراً من ذي قبل.

- كان الحبّ الذي منحني إيّاه حزيناً، تابعت. داعبت الماء الهادئ بأصابعها.

- كان يحبّك بحقّ، قلت.

- نعم، لكن، بالنّسبة إليه، الحبّ أمر طبيعيّ محتوم، كالجوع والعطش. حبّنا كان حالة بين ملايين الحالات الأخرى. نظرت إليّ بتردّد: أعرف أنّ هناك أناساً آخرين يحبّون بعضهم بعضاً...

- منهم من يعيش ومنهم من يموت، قلت. هذا لا يمنع أنّ هناك من يرى في حياته وضعاً منفرداً وأنّه سيموت لفائدته. معكِ حقّ. من المضحك أن يرى المرء العالم من زاوية نظر «سيريوس»[17] Sirius؛ لسنا في سيريوس، لكن على الأرض، كلّ منّا يشغل نفسه.

17- سيريوس Sirius: النجمة الأكثر سطوعاً في السّماء.

- الحبّ ليس أمراً طبيعيّاً، استأنفت. بل من المضحك التّفكير في أنّك لي وحدي. هذا ليس وهماً، أليس كذلك؟ أنت فرد.

- من يقرّر خلافَكِ؟ قلت. هذا ما يجعل الحبّ مؤثّراً: نحن من يكسِبُه حقيقته.

رمقتني بنظرة جادّة:

- لكن عليك أن تحبّني كي أصير فرداً أنا أيضاً. أعرف أنّك تحبّني.

- إن كنتُ لا أحبّك، فعليَّ أن أتساءل ما الذي أصنعه هنا.

- هل صحيح أنّنا سنتزوّج -خلال ثلاثة أشهر؟

- صحيح تماماً.

مالت إلى الخلف، ووجهها إلى السّماء. كانت تحبّني. لم تكن تطلب أكثر من هذا. مع ذلك، كيف يمكنني أن أبرّر وجودها، أنا الذي كنتُ هناك، بلا سبب، غيرَ مُبَرّرٍ، وغير مجدٍ؟ أخذتُ المجدافين من جديد. يوم جميل حافل بالزّهور والموسيقى والقُبَل والمقليّات والخمر الأبيض وجريان الماء البارد على الأجساد المحترقة بالشّمس. بعد قليل ستموت في الأفق وتخلّف رماداً خفيفاً. انقبض قلبي. ليس خفيفاً جدّاً. كانت السّماء ناعمة، والنّور شفّافاً، مع ذلك، كان عنيداً وملحّاً، أحسستُ برائحة رتيبة تحوم حولي كما لو اللّحظات متعفّنة في قلبها تحت هذا الغشاء الضّوئيّ المبهر: كانت رائحة الإذعان.

صحّحت إيلين جلستها.

- أنت ترى أنّه من الغريب أن يكون لنا أطفال، أليس كذلك؟

نظرتُ إليها متفاجئاً.

- لديكِ الرّغبة؟

- نعم ولا. أتساءل إن كان الأطفال يثرون الحياة.

ابتسمت.

- ولا ترغبين في خسارة أيّ فرصة كي تصيري ثريّة؟

- لا تهزأ بي. ما رأيُك؟

– في ما مضى، كنتُ أرى أنّ الإلقاء بإنسان في الحياة أمر وحشيّ. ألا يرعبُك ذلك؟

تردّدت.

– لا. حتّى لو أخذنا إنساناً تعيساً، هل كان سيفضّل لو لم يوجد أصلاً؟

– بالتّأكيد، قلت. وماذا لو كان يعمل الشرّ حيثما حلّ؟

– وماذا لو فعل الخير؟

– أوه! معكِ حقّ. أن يولد أحدهم، أن نمنعه من أن يولَد... هذا أيضاً عبث. لا أهمّية لذلك.

– لكن حين نرغب في أمر، فهذا بعيد عن أن يكون بلا قيمة. أيكون، إذًا، من العبث القيام به؟

– ربّما كان خطئي هو أنّي لا أسبّق رغبَتي.

ضحكت:

– خطؤك؟ لا أظنّ أنك أخطأت كثيراً!

كنتُ أجدّف بهدوء، حتّى أنّ القارب لم يكن يترك أثراً على الماء. *ألا يكون الإنسان شيئاً، يشبه تماماً هذا الزّبد الذي يعلو ويتلاشى على سطح الماء. يجب قتلُ هذا الصّوت. يقول الصّوت: أريد أن أكون تلك الرّغوة. قالت: يجب قتل هذا الصّوت. الزّبد يولد ويموت بصمت.*

من أعلى المغطس قفز جسم أسمر في النّهر؛ عاشقان يتمشّيان على الحافّة بخطوات وئيدة. أَحَد سِلم. تسرّبت السّاعات من بين أصابعنا. هناك، استلقت على الرّمل، سائلة في الفولاذ. كانت المصانع الألمانيّة تصنع مدافع ودبّابات جديدة كلّ يوم.

– أتساءل إن كنّا قد أخطأنا الطّريق، قلتُ لغووتيي. ربّما لن نهزم الفاشيّة إلّا باعتماد وسائلها.

طويتُ عدد *الحياة النّقابيّة* على الصّفحة الأولى حيثُ مقال غوتيي الجديد عن السّلم.

– أتساءل، إذًا، كيف يكون المرء مناهضاً للفاشيّة، قال.

– أتساءل أيضاً.

رمقني بعينيه الباردتين.

- أنتَ من يقول هذا؟

هززتُ كتفَيّ. ما العمل إن كان احترام القيم التي نؤمن بها يجب أن يسبّب سقوطها؟ أيجب علينا أن نظلّ عبيداً كي نعيش أحراراً، أن نقتل لنبقِيَ أيدينا نظيفة؟ أيجب أن نفقد حرّيتنا لأنّنا رفضنا العبوديّة، وأن نلمّع ألف جريمة لأنّنا لم نرغب في القتل؟ لا أعرف.

- أنت تنصحنا بالسّلم، قلت. وهذا رائع. لكن ماذا؟ ماذا لو كنّا نحن فقط من يرغب فيه؟

- يكفي، قال غوتيي. لا يمكن أن نقاوم بمفردنا.

- ستتركُ أوروبا تتحوّل إلى الفاشيّة من دون تحريك ساكن؟

- كلّ شيء أفضل من الحرب، قال غوتيي.

- هناك ما هو أشرُّ من الحرب.

بالنّسبة إليّ لم تكن الحرب كارثة لا شبيه لها. كانت شكلاً من أشكال الاختلاف أُلقِيَ بي فيها رغماً عنّي لأنّي على سطح الأرض.

لأنّنا نوجد بعضنا لأجل بعض، مع أنّ كلّا منّا عليه بنفسه؛ لأنّي كنتُ لنفسي مع أنّي لغيري، للآخرين. ابن بلومار. غريم پول. كنت اجتماعيّاً خائناً، فرنسيّاً وغداً. عدوّاً. الخبز الذي آكلُه كان دائماً خبزَ الآخرين.

- حتّى أنتَ صرتَ داعياً للحرب؟ قال غوتيي.

- بالتّأكيد لا، قلت. لا تقلق، لن أكتب سطراً واحداً، ولن أقول كلمة واحدة قد تدفع باتّجاه الحرب.

كان الطّقسُ جميلاً؛ كنّا متّكئين على نافذة غرفتي؛ أضاء عمود إنارة في زاوية الشّارع الهادئ حيثُ كان أطفالٌ يلعبون الحجْلَة.

- لستُ بوق حرب، ولا أنا مع السّلم. أنا لا شيء.

كان غوتيي مع السّلم. وكان پول اشتراكيّاً. وكانت إيلين مُغرَمَة. وكان لورون عاملاً. وأنا، لم أكن شيئاً. رحتُ أتأمّل غرفتي، كانت جدرانها مطليّة بالجير، لكن رويداً، جلبت أمّها الوسائد، والزّرابي، علّقت

لوحات مارسيل؛ كنتُ أعمل في الورشة ثمانيَ ساعات في اليوم، لكن، كان لديّ أصدقاء بورجوازيّون؛ وأقطن في كليشي، ومع إيلين كنتُ أتنزّه في شارع سان ميشال وفي الأحياء الرّاقية. يقول پول إنّي لا شيء لأنّي لستُ بورجوازيّاً ولستُ عاملاً؛ لكنّي أفكّرُ في أنّي لستُ بورجوازيّاً ولا عاملاً لأنّي لا أقدر على أن أكون شيئاً: لا بورجوازيّاً ولا عاملاً؛ لا داعياً للحرب ولا للسّلم؛ لا مُغرَماً، ولا غير مكترث.

- فيمَ تُفكّر؟ قالت إيلين.

كنّا جالسَيْن على درجات سُلّم متجر الحلويات؛ وضعت رأسها على كتفي، لزمنا الصّمت. هناك، خلف الأبواب الزّجاجيّة كان هناك شوارعُ صاخبة مفتوحة على السّماء؛ هنا، خيّم الصّمتُ والظلّ. داعبت يدي شعرَ إيلين. خطيبتي، زوجتي. رائحة حساء ممتزجة بعطر العسل والشّوكولاتة؛ المُلبّس يملأ القوارير الزّجاجيّة، كحصى في قاع سيل. أشكال من الحلوى، حافلة بالذّكريات والعطر، هادئة وغامضة كبطن. ستتناثر غداً في لمح البصر. سيكون النّاسُ عراة وسط حلوى اللّوز والزّهور المُداسة، عراة وعُزّلاً تحت سماء فولاذيّة.

- فيمَ تُفكّر؟ كرّرت.

- أفكّر في الحرب، قلت.

رفعت رأسها وأفلتت يدها من يدي.

- ثانية؟ قالت. ابتسمت بتحفّظ: ألا تفكّر بي أبداً؟

- حين أفكّر في الحرب، أفكّر فيك. أمسكتُ يدها: أنتِ تخيفينني قليلاً.

- أنا؟ قالت إيلين.

- لا تريدين مواجهة الأوضاع. أظنّ أنّك ستؤخذين على حين غرّة يوم تندلع الحرب.

- لكن، هذا مستحيل، قالت. أيّ حماقة هذه! أتصدّق، أنت؟

- تعرفين رأيي جيّداً؛ قلتُه لكِ مئة مرّة.

-نعم، قلت لي، قالت. نظرت إليّ بقلق مفاجئ: لكن، أخيراً، لن تسمح بذلك!

- ماذا بأيدينا؟

- ألن ترفضوا الالتحاق بالحرب؟

كنتَ تقول إنّ كلّ ما عليك فعلُه هو أن تظلّ مكتوف اليدين؛ لا يمكن فعلُ شيء من دونك.

- لكنّي غير متأكّد من أنّ علينا رفضها!

- كيف؟ قالت.

- أتريدين أن تغزو الفاشيّة أوروبا بأسرها؟ أتريدين أن يكون لنا في فرنسا قائد يأمرُ تحت لواء هتلر.

- أنت تتحدّث مثل دينيس، قالت. لا أريدك أن تموت في الحرب.

- يخيفك أن تكوني نملة في مملكة نمل؛ لو أنّ الفاشيّة انتصرت فهذا ما سيحدث، لن يكون هناك بشر، سيكون هناك نمل.

- لا يهمّني، قالت. نملة حيّة أفضل من إنسان ميّت.

- هناك أمر لأجله يمكن أن نقبل بالموت، قلت. أن يكون للحياة معنى.

لم ترُدّ؛ حدّقت في الفراغ بانشغال. ارتخى وجهها.

- لدى والدك علاقات كثيرة، قالت. سيكون من السّهل عليه تأهيلك.

- تمزحين.

- نعم، ما دام لا فرق لديك، قالت بعنف. سترحل عنّي غير آسف. رمقتني: أحياناً أتساءل إن كنتَ تحبّني حقّاً، ما إذا كان هذا كلّه مجرّد كوميديا.

- أتعتقدين أنّي كنتُ سأقبل أن أقابل على العشاء السيّد والسيّدة برتران لو لم أكن أحبّكِ؟

هزّت كتفيها:

- لو كنتَ تحبُّني، ما تعجّلتَ هكذا على كسر وجهك.

- أحبُّك، إيلين؛ لكن افهمي...

أعرف أنّها لا تودّ أن تفهم؛ ووجدتُ مشقّة في استحضار كلمات رقيقة. «لا تريد أن تحبّها»، قالت دينيس؛ الآن؛ أنا على استعداد لأريد ذلك؛ لكن في هذه الحرارة القاسية لشهر أغسطس، إيلين هي التي جعلت بيننا حاجزاً. أحياناً، كنتُ أستديرُ ناحيتها على أمل أن أشاركها تردّدها، وقلقي؛ لكنّي كنتُ وحدي؛ نظرت إليَّ بريبة: كانت، تقريباً، عدوّة تمشي بجانبي. وحيداً في السّلم الحاني الذي كان يموت، وحيداً في عذاب الانتظار، لكوني شربتُ إلى حدّ مخجل، متمنّياً انفجاراً ينتزعني، أخيراً، من نفسي.

فجأة حدث ذلك. أن تشاء الحرب، ألّا تشاء الحرب. لا قيمة للإجابة: لقد حلّت الحرب. تقرّرت ساعة رحيلي: لم يكن أمامي سوى الصّعود إلى القطار المخصوص، أن أتوسّد البدلة «الكاكي»، أن أطيعَ الأوامر. لم تكن أفكاري ورغباتي أكثر من فقاعات فارغة تتلاشى من دون أن تؤثّر في العالم، من دون أن يكون لها وزن في روحي. متخفّفاً من نفسي. متحرّراً من الدّور المرهق للإنسان. مجرّد جنديّ خاضع للرّوتين اليوميّ بلامبالاة. هيّا. لا تذهب. لم يكن أنا من يتكلّم: هناك من يتكلّم بدلاً عنّي. هذا الصّمت اللاّإنسانيّ. تلك الرّاحة القاتلة بعيداً عن القبول والثّورة. كان من السّهل أن يكون المرء ميّتاً. سيكون ذلك سهلا دائماً. لكن كيف يصير المرء ميّتاً! كيف يقتل أحدنا نفسَه حيّاً. قال الصّوت: أريد أن أكون ميّتاً؛ وهذا الصّوت هو الحياة. أغمضتُ عينيَّ، لكن عبثاً. لم يعد هناك صمت: لا يمكنني القيام بالصّمت. هيّا. لا تذهب. أنا من عليه أن يتكلّم.

- جون.

شخصٌ آخر تكلّم. نادى صوتٌ بلطف من الجهة الأخرى للباب: «جون». إنّه أنا. مازال لديّ اسمٌ، إذًا؟ أدار مقبض الباب.

- پول هنا، قالت دينيس.

غمز بعينه. كان هناك حاضر. غشّاه النّور السّاقط من المصباح.

- پول، قال.

تقدّم. كان پول واقفاً بجانب كنبة مادلين، قبّعته بين يديه. وشعرُه حليق؛ لونُه كان داكناً وجلدُه ملتصقاً بعظمه. صافحه.

- المسكين! قالت مادلين. إنّه في حاجة إلى استعادة نفسه.

ابتسم پول لبلومار؛ كانت عيناه لا تزالان زرقاء وشابّة.

- أشكرك لأنّك انتشلتني من هذا، قال.

- لم أكن أنا، قال بلومار.

نظر پول إلى الباب. كيف هي؟

- أصيبت الرّئتان، قال بلومار.

كانت مادلين تدخّن أمام الموقد. مرّت دينيس إلى المطبخ؛ سُمِعَ صوتُ غسيل أوان، ضجيج يوميّ وحقيقيّ. بدت عقارب المنبّه متوقّفة.

- ماذا قال الطّبيب؟

- قال إنّها لن تتمّ ليلتها.

أطرق پول.

- أيمكنني أن أراها؟

- ادخُل، قال بلومار. إنّها نائمة.

جلس. دخلت دينيس الغرفة ووضعت أمامها كأس قهوة.

- اشربي، قالت.

- شكراً. لا رغبة لديَّ.

- يجب أن تشربي. لم تأكلي شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة.

شرب. «يجب أن تشربي». هل كانوا ينتظرون منه شيئاً آخر؟ هل يدين لهم بشيء؟ أربعٌ وعشرون ساعة. كم أنّ السّاعات قصيرة. جاء الفجر. ثمّ سيأتي اللّيل. سيولد الفجر. فجأة، أحسّ بجسمه؛ كانت أطرافُه مرهقة، ورأسه ثقيلاً. كان يشعرُ بالبرد.

- إنّها نائمة، قال پول. نظر إلى بلومار: بسببي.

- إن كان خطأ أحدهم فهو خطئي، قال بلومار. كان عليّ الذّهاب بنفسي.

– لا، ليس عليك أن تفعل، قالت دينيس بحيويّة. أنت لا تملك الحقّ.
– وهل كنتُ أملك حقّ قتلها. قال بلومار.
– خلال المرّتَيْنِ الأوليْن كنتُ متسمّراً، قال پول. لم أستطع الرّحيل. مع أنّي ظللتُ مستعدّاً في كلّ مساء، منذ وصلتني رسالتك.
– ليس خطأك، قال بلومار. أدخل يده في جيبه وأخرج سيجارة. كانت يده ترتعش. كان للتّبغ طعم لاذع وحُلو.
– بقيتَ ساكناً عند «لورو»؟
– نعم. دخلتُ باريس من دون مشقّة، لا أحد طلب منّي شيئاً. ثمّ إنّ أوراقي جيّدة للغاية. لقد استقبلني كأخ. أعطاني تذكرة إلى «سوڤتير»[18] Sauveterre. وكلّ ما يتعلّق بالرّحلة من توصيات.
– لا تخشَ شيئاً، قال بلومار. اجتياز الحدود هو لعب أطفال.
ابتسم پول.
– ظننتُ أنّي لن ألتَقِيَ صديقاً، قال.
– لم نرَ بعضنا منذ سنتين، قال بلومار.
–ألم تجد إزعاجاً؟
– على العكس. بل لقد لمّحوا لي عن تعاون مُحتَمَل. لم يكن ماضِيَّ مُهدّداً.
– والآن؟ قال پول. نظر حوله بريبة.
لمعت عينا پول:
– كم يسعدني ذلك!
– هل تفاجأت؟ قال بلومار. كنتَ تظنّ أنّي خائن؟
– من قبل، لم يكن للكلمات المعنى الذي لها اليوم، قال پول. ربّت على كتف بلومار. لا، كنتُ على يقين أنّك لن تمدّ لهم يدكَ. فقط، لم أصدّق أنّ... تردّد: يرعبُك العنف كثيراً.
– مازال يرعبني العنف، قال بلومار.

18– سوڤتير Sauveterre: مدينة فرنسيّة.

خيّم صمت.

– لا يمكن تجنّبه، قال پول. لو رأيت أيّ وقع على أنفسنا كلّما تناهى إلينا خبرُ عمليّة جديدة! هذا فقط يمنح الثّقة: ليس أقوالاً بل أفعال. ليس هناك شكل آخر للمقاومة.

– أعرف، قال بلومار.

– أتعمل بتوافق مع الحزب؟

– نحن منظّمة مستقلّة لكنّنا نسير في نفس الاتّجاه. ماذا تنوي أن تفعل هناك؟

– العثور على القادة والخضوع لأوامرهم.

– حاول إقناعهم بالاتّصال بنا وبتشكيل جبهة موحّدة مثلما هو الحال هنا. لاحقاً ربّما واجه بعضُنا بعضاً. لكن ليس الآن.

– لا، قال پول. ليس الآن.

– خُذ، قال بلومار؛ مدّ پول بورقة: هنا، بعض العناوين؛ احفظها. هؤلاء هم رفاق من الجهة الأخرى. وهم مستعدّون لتقديم المساعدة.

أخذ پول الورقة.

– هل تلقّيتَ ضربات قاسية؟

– لا، نحن حذرون. أترى، هنا، إنّها عائلة واحدة. الأعضاء النّشطاء في الحركة مسجّلون بأسماء مستعارة. محافظون على وضعهم المدني بطبيعة الحال. هذا يشوّش الرّؤية.

– أنا المسؤولة عن الإقامة، قالت مادلين.

– خلال الأشهر الستّة الأخيرة، قالت دينيس، انقلبت أربعة قطارات جنود؛ قفز منهم ثلاثة جنود. وتمّ الاستيلاء على أربعة فنادق. نظرت إلى بلومار: بعد قليل سيضع أحد الرّفاق قنبلة موقوتة في رواق عرض مناهض للبولشيفية.

– عمل ممتاز، قال پول. تسمّرت عيناه على الباب: إذًا، هل تعملُ معكم إيلين؟

– نعم، قال بلومار.

- تغيّرت، إذًا؟
- فهمتْ.
- جيّد، قال پول.

نهض بلومار. تحدّثنا. دينيس. مادلين. پول. حضورنا وحده كان كافياً. كما لو كانت لا توجد. *غداً. دائماً. كما لو أنّها لم توجد يوماً.* كلمات فقط على شفاهنا، وصورة في القلب. أسطورة.

- ستبقى هنا، أليس كذلك؟
- سيبقى حتّى موعد القطار، قالت دينيس.
- عند التّاسعة، قال پول.
- نلتقي لاحقاً، إذًا، قال بلومار. خطا نحو الباب: إلى اللّقاء.

كما لو أنّها لم توجد يوماً. الغريب أنّ هذا الفراش يشي بأحدهم. شخص لا يوجد، لكنّه هناك. اقترب. جيّد. *حكاية رائعة. موت رائع.* لقد روينا قصّة موتك. وأنتِ تموتين. إيلين. أنتِ المتفرّدة. إنّه أنا من ظلّ هنا. في الغرفة المضاءة قال رجلٌ بعض الكلمات؛ رجلٌ بوجه واسم كان يقول كلمات النّاس جميعاً. إنّه أنا. لقد جاء بي. كلّ الطّرقات مسدودة.

لا أقدر على فعل شيء لأجلك. لم يفكّر فينا، كان يقول كلمات، ويقوم بإيماءات؛ لقد قتلكِ، يا حبيبتي. هل أسمحُ له بأن يستمرّ في القتل؟

-VIII-

قفزت إيلين على الجادّة وركضت نحو أحد الموظّفين.

- الإكسبرس في اتّجاه بيكنيي[19] Picquigny؟

- آه! خرج منذ ساعة! قال الرّجل.

- متى ينطلق الآخر؟

- غداً، قال الموظّف. ابتعد. طفرت الدّموع من عينَيْ إيلين؛ كان جون هناك مع الدرّاجتَيْن، يراقب الإكسبرس وهو يدخُل المحطّة؛ ثمّ جمدَت ابتسامتُه. انطلقت خلف الموظّف.

- ألا يوجد أوتوبيس؟

- لا أدري. نظر إلى إيلين: ما يمكنك فعلُه هو أن تأخذي اكسبرس السّاعة الـ19 في اتّجاه روفينيي. من هناك، ستكونين على بعد 15 كيلومتراً. أحياناً تمرّ سيّارات من هناك.

- شُكراً، قالت إيلين.

خمسة عشر كيلومتراً بهذه الحقيبة الثّقيلة في ذراعها. ضغطت على أسنانها. «أريد أن أراه هذا المساء. ليس غداً، هذا المساء». غداً، ربّما سيكون قد تأخّر الوقت؛ ربّما قالت لها السيّدة العجوز لدى وصولها: «لقد غادروا للتوّ!» سأتبعُه. سأتعقّب فيلَقَه. سأندسُّ في معسكرهم ليلاً.. سلّمت حقيبتها لموظّف أمانة الأمتعة. ماذا لو كان في الأعلى؟

19- بيكنيي Picquigny: مدينة شمال فرنسا.

متسلّلاً في عمق حفرة مع كلّ تلك القذائف التي تنفجر حولَه؟ ليس غداً. هذا المساء.

كانت السّماءُ رماديّة فوق الشّوارع الرّماديّة؛ أوغلت إيلين في شارع طويل مستقيم. كلّ المحال كانت مُغلقة؛ لا أحد يمشي على الرّصيف؛ ما من سيّارة في الطّريق. كانت المدينة تبدو كأنّها أُخلِيَت من سُكّانها. كلّ الطّرقات تتقاطع عموديّاً، والمنازل تشبه الثّكنات. واحدة من مدن الشّرق، مملّة وقذرة كالسّهول التي مرّ بها القطار. في الأفق، كان في الإمكان أن يحدس المرء بوجود أسلاك شائكة وحصون ومدافِع. قفزت إيلين. كانت صفّارات الإنذار تمزّق الفضاء. فجأة، ظهر مشاة وجنود وسيّارات. تابعت إيلين بدهشة ذلك التّفقيس المباغت.

- عذراً، سيّدتي. أين يمكنني إيجاد مطعم؟

- كلّ المطاعم مقفلة في هذه السّاعة، قالت المرأة؛ وأشارت في الفضاء إلى نقطة لا تدلّ على أيّ مكان محدّد: ربّما حالَفَك الحظّ مع الحانة العصريّة.

- هناك طوارئ؟ قالت إيلين.

- كلّ يوم، قالت المرأة وهي تهزّ كتفيْها.

عبرت إيلين السّاحة. كان النّادلُ يتوسّطُ طاولات في الشّرفة التي تحميها شجيرات في صناديق خشبيّة خضراء. في الدّاخل، كانت الحانة مقفرة. جلست إيلين إلى طاولة من مرمر مزيّف.

- هل هناك شيء للأكل؟

رمقها النّادلُ بنظرة توبيخ.

- في هذه السّاعة؟

- بيض؟ أو لحم بارد؟

- ليس في هذه السّاعة، قال النّادل.

نهضت.

- حسناً، سأرى في مكان آخر.

عبرت السّاحة؛ كانت تمطر قليلاً؛ دخلت مقهى تجاريّاً. كانت الصّالة فسيحة وفارغة كالصّالة التي في الجهة المقابلة. كانت المقاعد المحشُوّة بالشّعر مثقوبة وكانت تسمح برؤية أحشائها.

- هلّا قدّمتم لي شيئاً؟ قالت إيلين. بيضاً؟ خبزاً وشوكولاتة؟

- البيض؟ قال النّادل. ليس هناك بيضة واحدة في المدينة بأسرها.

- أليس لديكم شيء؟

- لدينا الجعة والقهوة.

- أريد قهوة، قالت إيلين.

جلست وأخرجت سجائر من حقيبتها. كان يتسكّع في أزقّة القرية بقلب يفيض قلقاً، وكانت هي هناك في تلك المدينة الرّصاصيّة اللّون حيثُ لا مكان لها فيها. لم يكن هناك وسيلة لتحذيرها. «لن يكون هناك أيّ إشارة، عدا الغياب اللّانهائيّ». شربت قهوتها بحركة واحدة وألقت بثلاثة فرنكات على الطّاولة. كانت تمطر بغزارة في الخارج؛ لكن لا يهمّ، كان عليها أن تمشي، أن تمشي بسرعة، وبسرعة كان عليها أن تنتقل من دقيقة إلى أخرى كي لا يتمكّن منها القلق. «سيوقّع الطّلب منذ الغد. يجب أن يُوقّع». خفّ ضغط القبضة، برهة: سيكون في «شارتر»، سيقوم بتشحيم الطّائرات، لن يكون مُعرّضا للخطر. سأتمكّن من رؤيته. كرّرت: «سيُوقّع». أبطأت في مشيتها. كان ثمّة جنود يطوفون في مجموعات في انتظار السّماح لهم بارتياد المقاهي؛ كان هناك بينهم من اصطفّ أمام قاعات السّينما. سيرقدون في الوحل بثقب في الرّأس، وحيدين. في هذه الدّقيقة بالذّات، ربّما في هذه الدّقيقة. عضّت على شفتيها؛ أحسّت بعينيها قاسيتين في محجريهما كالحجارة، قاسيتين إلى درجة الألم: إذا حافظنا على العينين ثابتتين، فلن يكون من السّهل على الصّور أن تتشكّل.

«عليَّ العثور على شيء آكُلُه» فكّرت. صعدت إلى الشّارع الكبير. ما

من بقالة واحدة. ما من محلّ فواكه. دفعت باب محلّ مرطّبات؛ كانت الصّحون فارغة، لقد افترس الجنود كلَّ شيء؛ ظلّ هناك فوق اللّوح المعدنيّ ثلاث تُرتاتٍ بائسات. التهمتها إيلين وشربت كأس ماء. اتّخذت طريق المحطّة. لم يكن عليها غير الجلوس في ركن والانتظار؛ لم تنم طوال اللّيل، وكانت متعبة إلى درجة أنّها لم تشعر بساقيها تحملانها.

دخلت قاعة الانتظار. كان النّاسُ جالسين على المقاعد، على الطّاولات وعلى الأرض، وسط الرّزم المهولة. لاجئون قادمون من الشّرق. كانت الأيدي موضوعة على الرّكب وكانت العيون منطفئة، كانوا ينتظرون. منذ بدأت الحربُ والنّاسُ ينتظرون من دون توقّف، من دون معرفة ما الذي ينتظرونه. جلست إيلين على الأرض، متّكئة على أحد الأبواب، متقوقعة على نفسها. كانت الرّائحة وحرارة الأجساد تخنقانها.

- لا يريدون الإفصاح، قالت امرأة. لكن عندنا، هناك الكثيرون ممنّ لقوا مصرعهم.

- وعندنا، عدد البرقيّات كبير، حتّى أنّ رئيس البلديّة وجد صعوبة في إيصالها إلى العائلات، قالت أخرى.

مرّ قطارٌ يُصفّر. كان هناك رجالٌ في القاطرات الأماميّة؛ جنود جالسون على الدّرجات بقبّعات على الرّؤوس، وإلى جانبهم بندقيّاتهم وحقائبهم؛ كان في القاطرات الأخيرة مدافع مموّهة بألوان الخريف، كانت الفوّهات مفتوحة إلى السّماء. كان القطارُ متّجها نحو الشّرق. هناك، في نهاية السكّة، كانت الحربُ في انتظار المدافع والرّجال. هناك، كان كلُّ شيء جاهزاً. إنّها هنا، مرتسمة في العيون اليائسة، بين الرّزم المتسرّعة، وصافرات القطارات. أغمضت إيلين عينيها، وأسندت رأسها على ركبتيها وامتلأ رأسُها باللّيل.

عندما ستجد نفسها داخل قطار الرّيف في المعسكرات الخشبيّة، ستكون متيبّسة وعظامها باردة. كان المطر ينزل بقطرات كبيرة على سقف القاطرة. لكن الأمل عاد: «سأراه». كانت كلّ دورة تقوم بها

العجلات تقرّبها منه. «سأجد سيّارة. بعد ساعات قليلة سأكون بين ذراعيه. سيوافق. لا يستطيع عدم الموافقة»، فكّرت بحبّ.

كانت محطّة روڤينيي مظلمة بالكامل.

- أين مكتب الأمتعة؟ سألت إيلين.

- اتركي حقيبتك هنا، قال الموظّف وهو يشير إلى مخفر الحراسة أمام الباب. سنحرسها.

- حسناً، قالت إيلين؛ وضعت حقيبتها ومشت نحو المخرج.

- الأوراق، قال الحارس.

أخرجت إيلين وثيقة السّماح بالعبور وهويّتها. كان جواز العبور نظاميّاً؛ ما من علامة مميّزة عليه.

- پيكينيي. لستِ في پيكينيي هنا.

- سأحاول إيجاد سيّارة تقلّني إلى هناك.

- حسناً. يمكنك المرور، قال الجنديّ.

أعادت إيلين ورقتها النّفيسة.

«إن لم يحدث شيء، ولم يستوقفني أحد». فكّرت بقلق. كانت اللّيلة سميكة كالقطران؛ كانت لا تزالُ تمطر. ترنّحت في بركة سوداء، ثمّ في أخرى، كان الماء قد غمرها حتّى كاحلها. أين أذهب؟ أخافها رجل البوليس في المفترق، لم تجرؤ على سؤاله عن وجهتها. قطعت جسراً ثمّ اتّبعت طريقاً كما اتّفق. مستودَع.

- هل تُؤجّر السيّارات هنا؟

- لا، قال الرّجل.

- هل لديكَ فكرة، أين يمكنني إيجاد سيّارات للإيجار؟

- يمكنك رؤية «مالار»، في ساحة المحطّة.

عادت أدراجها. مرّت مجموعة من الجنود بخطوات ثملة؛ كانت

المقاهي مليئة بالجنود، وكان في الإمكان سماعُ ضحكهم من خلف الأبواب المُقفلة. طرقت باباً بمحاذاة المستودع.

- من فضلك، قالوا لي إنّه في إمكاني استئجار سيّارة؟

نظرت إليها المرأة بكآبة.

- زوجي غيرُ موجود.

- ألا تعرفين ساعة عودته؟

- لن يُخرج السيّارة في هذه السّاعة.

الشّوارع السّوداء من جديد، الماء المتدفّق تحت الأقدام، الماء الذي يثقل المعطف. باب. لا. باب آخر. لا. باب آخر، أيضاً.

- اذهبي إلى مقهى الرّياضة، في آخر شارع نانسي.

فتحت إيلين باب المقهى؛ خانها قلبُها؛ كانت القاعة مكتظّة بجنود جالسين إلى طاولات ليس عليها سوى كؤوس النّبيذ الأحمر؛ الضّحك... تلك النّظرات... استجمعت شجاعتها واتّجهت نحو الكنتوار. كان الشّركاء يأكلون طبق فاصولياء منتشين بالكامل.

- من فضلِكَ سيّدي، قالت؛ كان صوتُها مرتعشاً: كانت ستنفجر بالبكاء من لحظة إلى أخرى: قيل لي إنّ لديك سيّارة.

واصل الرّجل أكله؛ كان يشعر بالحرارة داخل معطفه الصّوفيّ الجافّ؛ في انتظاره سرير جيّد.

عضّت إيلين على شفتيها؛ لقد غُلِبَت. لم يعد هناك غير النّوم ونسيان كلّ شيء.

- هل لديكم غرف هنا؟

- غرف؟ سيّدتي المسكينة! لكنّكِ، لن تجدي مقعداً واحداً في المدينة. لدينا الفِرَقُ هنا.

- شكراً، قالت إيلين.

تخدّرت ساقاها. ليس هذا المساء. انهمرت الدّموع على خدّها. مرّت

من أمام نزل الأسد الذّهبيّ. لم يكن ثمّة فائدة من الدّخول والسّؤال. لا. دائماً لا. أصبحت الإيماءة البسيطة صعبة للغاية. كان يبدو أنّ الجميع يقاتلون في الأدغال الخانقة. جون. لن تلتحق به أبداً. لن تنتهي هذه اللّيلة. هذه اللّيلة، هذه الحرب، هذا الغياب الصّامت والقاتل.

***

- أخيراً، عدتُ إلى المحطّة، قالت إيلين. دلّني موظّف طيّب على قاطرة يمكنني قضاء اللّيلة فيها. تثاءبت: لكنّي لم أنم. أكاد أسقط من النّعاس.

- مخلوق صغير مسكين، قال جون. كنتُ قلقاً بشأنك! خشيتُ أن تحاولي المجيء من دون أوراق، وأن يسبّبوا لك المتاعب.

- أتظنّ أن في وسع أحدهم أن يسبّب لي المتاعب؟

- هناك عدد كبير من الضبّاط ومن مساعدي ضبّاط استقدموا نساءهم، قال جون. كانوا سيغضّون الطّرف عنك، وفي أسوأ الأحوال، كانوا سيعيدونك إلى باريس.

- لكنّي لا أريد أن أُطرَد، قالت إيلين. نظرت إلى الأرضيّة المبلّطة بالأحمر، السّرير الريفيّ الكبير بلحاف الرّيش، الموقد الحديديّ: كم كان جميلاً أن نعيش هنا. فتحت حقيبتها: انظُر: كلّ هذا لكَ. وضعت على الطّاولة قارورة نبيذ معتّق، علب پاتي، تبغاً، وجوارب قطنيّة: إنّها هدايا من أمّك. أنا اشتريتُ لك كتباً. أشارت إلى خمسة دفاتر مغطّاة بالفرو الأسود: هذه مذكّرات الحرب خاصّتي. فيها قصاصات جرائد، حوارات مختصرة، مقالات؛ سجّلتُ فيها أفكاري أيضاً. هل يهمّك؟

- بالتّأكيد، قال جون. كم أنتِ رائعة!

تفحّصته؛ كان معطفه الكاكي الذي ينحصر على جذعه لائقاً به جدّاً؛ لم يتغيّر. مع ذلك، امتلأ رأسه بأفكار لا دراية لها بها خلال الشّهرين الماضيين. كان يخيفها.

– لديّ الكثير لأرويه لك، قالت.

– أتمنّى. لبس بدلته ومعطفه الواقي. أعود عند الحادية عشرة والنّصف. سأتناول الغداء معكِ. ثمّ بعد ذلك، بدءًا من السّاعة الخامسة حتّى اليوم التالي صباحاً، لن أبرحك أبداً.

– جميل، قالت إيلين. ارتمت بين أحضانه: عُد بسرعة.

– لا تخافي. سآتي بالطّعام. لا تظهري كثيراً في القرية؛ الطّريق الذي يمرّ من أمام البيت، يؤدّي مباشرة إلى الرّيف. قبّلها وخطا نحو الباب: إلى اللّقاء بعد قليل.

جرت نحو النّافذة. كانت هناك دجاجتان تنقران في الطّريق؛ مرّ جنديّ من السّاحة. تركت السّتارة تنزل. خلال ثمانية أيّام، عشرة أيّام، ستعيش معه كما لو كانا متزوّجين. «فعلا، ينبغي أن يكون زواجنا خلال هذه الأيّام.»، فكّرت. تمطّت. كانت تشعر بالنّعاس والجوع، إلّا أنّها كانت سعيدة جدّاً. تناولت كتاباً، لبست معطفها الواقي. كانت السّماء زرقاء؛ والحديقة تفوح برائحة الخشب المبتّل.

– صباح الخير، سيّدتي.

كانت العجوز تملأ الماء بالمضخّة، رفعت رأسها.

– وجدتِ زوجَكِ، إذًا؟ هل سُرَّ برؤيتك؟

– نعم، وجدتُه. إنّه نائم، قالت إيلين.

توغّلت في الدّرب الموحِل مبتسمة بغبطة. كانت البلاد بشعة، بلونها الرّماديّ الأصفر وكانت مُسطّحة، إضافة إلى كلّ ذلك هذه الرّبوة العارية؛ كانت تحبّ العشب، السّماء، الشّمس، الأفق الطّلق. صعدت فوق أكمة ووضعت الكتاب بجانبها. كان يوماً خريفيّاً جميلاً. وخزها قلق في قلبها. «يجب أن أحدّثه»، بدا كلّ شيء سهلاً من بعيد؛ لن تتركه يركبُ هواه كالعادة، هو من سيكون هو من عليه الإجابة في حوارهما. «لا يمكنه أن يرفض، لو كان يحبّني فلن يرفض». أدارت رأسها. دنا

أحدُهم. ضابطان يمسكُ كل منهما بخيزرانة في يده. مرّا أمامها ثمّ عادا على عقبيهما بقلّة اهتمام واضحة.

- تتنزّهين؟

- نعم، قالت إيلين.

تقطنين پيكينيي؟

- لا، أنا من باريس. جئتُ هذا الصّباح.

- لديكِ أوراق؟

- ها هي! قالت إيلين وهي تظهر جواز العبور.

داعب الضّابطُ جزمته الجلديّة الجميلة بالخيزرانة برفق.

- يجب أن يكون ممهوراً من قبل النّقيب، قال.

- آه! لم أكن أعرف، سأذهب بعد قليل، قالت إيلين.

- كان عليك القيام بذلك لدى قدومك مباشرة. تعالَيْ معنا، سنصحبك.

- حسناً، قالت إيلين. مشت خلفَهُما. أحدهما كان طويلاً وأبيض والآخر قصيراً ولديه شاربان. ركبت السيّارة.

- يوم جميل، قالت.

لم يبدر عنهما أيّ ردّ. دخلت السيّارة إلى القرية، تجاوزت منزل السيّدة «مولان» وتوقّفت في الشّارع الرّئيس.

- من هنا.

تنحّى الملازمان ودخلت إيلين بمفردها غرفة صغيرة حيثُ تشخُرُ مقلاة. كان قلبُها ينبض بدقّات متسارعة؛ إنّه الإجراء الأخير، بعد ذلك ستكون مطمئنّة تماما؛ لكنّها متشوّقة لأن يكون قد سُوِّيَ كلُّ شيء.

رفع النّقيب رأسَه؛ كان جالساً خلف طاولة مغطّاة بالأوراق.

- أنتِ الوافدة إلى پيكينيي هذا الصّباح؟

- نعم، قالت إيلين.

- لديكِ أوراق؟

سلّمته جواز العبور والهويّة. تفحّصهما النّقيب بصمت.

- ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

- جئتُ لزيارة قريبتي السيّدة «مولان».

نظر إليها النّقيب.

- لا، آنستي، السيّدة مولان، ليست قريبتك.

- ليس تماماً، قالت إيلين.

- لا تعرفينها، قال النّقيب.

عندما وصلتِ هذا الصّباح، لم تكوني قد رأيتِها من قبل.

أطرقت إيلين. لقد توقّفت حياتُها للتوّ.

- نحنُ نعرف كلّ شيء، قال النّقيب. نعرف اسم الجنديّ الذي حجز لكِ غرفة.

- في الواقع! نعم، قالت إيلين بتحدٍّ. جئتُ لرؤية خطيبي. لستُ الوحيدة في ذلك؛ أنتم تعرفون هذا جيّداً.

- يمكننا أن نغمض أعيُننا ما داموا لم يجبرونا على فتحها، قال النّقيب.

- من يجبركم؟ قالت إيلين. نظرت إليه برجاء: أتوسّل إليك، دعني أيّاماً على الأقل...

- لم تعد المسألة بأيدينا، قال النّقيب. لقد تمّ إعلام السّلطات المختصّة عنك.

- أعلموا عنّي؟ قالت إيلين.

- آه! شرطتنا تقوم بعمل متقن، قال النّقيب. نهض: سنقتادُكِ إلى المحطّة فوراً، سترحلين في أوّل قطار.

- دعوني أودّع خطيبي على الأقلّ، قالت إيلين. غرزت أظفارها في راحة يدها؛ لم تكن تريد أن تبكي أمام هذا الرّجل.

تردّد النّقيب.

- انتظري هنا، قال.

وقف وخرج من الغرفة. أعلموا عنّي. من؟ كيف؟ ظلّت جالسة على الكرسيّ مُصابة بالدّوار. لا بكاء. كانت جائعة. وتشعر بنعاس كبير. اهتزاز القطار مرّة أخرى، بمعدة خاوية وحنجرة جافّة، ومقصورة مزدحمة. سيأخذني القطار، سيأخذني بعيداً عن جون. «لا علاج لذلك»، فكّرت بغثيان اليأس.

دفع الملازم الطّويل الشّاحب الباب؛ ابتسم بغبطة.

- يمكنك تناول الغداء مع خطيبك، لقد أقنعتُه بأنّك لستِ جاسوسة.

- أنا، جاسوسة؟ قالت إيلين.

- لم يكن عليك حمل حقيبة مليئة بالأوراق، قال النّقيب. لقد فتحها رئيس محطّة روڤينيي، وظنّ أنّها مناشير تحريضيّة. أعلم عنكِ عن طريق السّائق الذي أقلّكِ إلى هنا هذا الصّباح.

- أنا التي اعتقدتُ أنّكم التقيتموني مصادفة! قالت إيلين.

- لحسن الحظّ، لم يتطلّب منّي الأمرُ الكثير كي أتأكّد من أنّك لستِ عميلة بروباغندا خطيرة، قال النّقيب.

- أخذتم أوراقي؟

- لقد حجزناها في بيتِك عندما كنتِ في الرّيف، قال النّقيب. سنعيدُ إليكِ كلَّ شيء. مال على إيلين: سنأتي لأخذك بعد قليل.

- أما من أمل كي أبقى؟ قالت إيلين.

- مستحيل في الوقت الحاضر، قال النّقيب.

هرعت إيلين نحو البيت. ارتمت على السّرير وانفجرت باكية. كان ذلك كما في طفولتها؛ يدٌ كبيرة تتحكّم في سعادتها وحياتها. ما الضّرر في أن تبقى؟ منافقون! كلمات، تعليمات تافهة؛ بعد كلّ هذه الرّحلة المُرعبة، سيكون عليها أن ترحل تاركة جون من دون رؤيته. التفتت. دخلت المرأة العجوز، بسحنة حذرة.

- هناك عسكريّون يطلبونك، قالت.

- أعلم، قالت إيلين.

- يقولون إنه لا يجدر بك البقاء هنا، قالت العجوز.

- سأغادر بعد قليل، قالت إيلين.

رمقتها المرأة بنظرة خالية من الحنان.

- نقدّم الخدمات للنّاس، ثمّ لا نجني سوى الإزعاج، غمغمت وخرجت من الغرفة.

- مسمار قديم! همست إيلين بحقد. تضاعف تساقُطُ دمعها: لقد قرأوا مذكّراتي، أنا تحت رحمتهم الآن.

قفزت على قدميها. دفع جون الباب وابتسم ببراءة. كان يحمل بين يديه علبة وضمّت قارورة نبيذ أبيض إلى قلبها برفق.

- لم أجد الأحمر، قال. لكنّي جلبتُ شرائح عجل رائعة.

- لا أملك من الوقت سوى ما يسمح لي أن آكل منها. ألا تعرف ما الذي حدث لي؟

- ماذا، إذًا؟ قال جون.

- لقد أعلموا عنّي، قالت.

- غيرُ صحيح!

ضحكت إيلين بعصبيّة.

- لقد قطفوني في الرّيف، واقتادوني إلى النّقيب. يبدو أنّ رئيس محطّة روڤينيي قد أخذ الحقيبة وفتحها. ظنّ أنّ دفاتري مناشير داعية للسّلم وأعلم عنّي كما لو أنّي جاسوسة.

- من السّهل الدّفاعُ عنكِ، قال جون.

- نعم. المُشكلة هي أنّ الشّرطة تعلم بالأمر. كبحت إيلين رغبة في البكاء: سيجبروونني على الرّحيل. لكنّي لن أرحل، قالت بيأس. سأتظاهر بذلك؛ سأختبئ وأعود في اللّيل...

- كلبتي المسكينة! قال جون وهو يأخذُها بين ذراعيه.

- لا أريد الابتعاد عنك! قالت إيلين.

- أعتقد أنّ عليكِ العودة إلى باريس، قال جون. هناك لن يكون عليكِ سوى طلب جواز عبور جديد؛ وتأتين للاستقرار على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات من هنا.

- لا أريد! كرّرت إيلين. من هنا إلى ذلك الوقت، تكون أنتَ قد التحقت بالجبهة، ولن أراكَ أبداً.

- ليس أكيداً أن نذهب بهذه السّرعة، قال جون. وتعلمين، في هذا الوقت، الجوّ هادئ هناك في الأعلى: سأنزل...

- لا! لا يمكنني تخيُّلُ ذلك! قالت إيلين. سأُجَنّ... رمقته بنظرات قلق. لابدّ من الكلام. اللّحظات تهرب: في كلّ دقيقة، أقول لنفسي إنّك تركُض نحو الموت في الأسلاك الشّائكة؛ أنت لا تعي... تقطّع صوتُها.

- أعلم، قال جون. مكانُكِ أصعبُ من مكاني. أشاحت بعينيها.

- ماذا تقول لو عرضوا عليك الارتداد للخلف؟ قالت.

- كيف؟

- يجب عليك أن تتقدّم بطلب كي تُنتَدَبَ في الطّيران، قالت إيلين. السيّدة «غراندجوان» تعرف، بشكل حميميّ، جنرالاً يمكنه نقلك، بسرعة، إلى معسكر «شارتر».

- أنت من طلب منها ذلك؟ قال جون.

صعد الدّم إلى خدَّيْ إيلين.

- نعم، قالت.

جلس جون وملأ كأسيْ نبيذ.

- تعلمين، الطيّارون معرّضون للخطر أكثر من غيرهم في الحرب.

- لكنّك لن تطير، قالت إيلين. الجنود لا يطيرون. سيخصّصون

لك ركناً في مكتب، وسيعهدون لك بتشحيم المحرّكات. لمست يده: يمكنني الاستقرار إلى جانبك؛ سنرى بعضنا كلَّ يوم...

حدّق جون في قاع كأسِه من دون إجابة.

سحبتْ إيلين يدها.

- ماذا؟ ما الذي يزعجُك؟ قالت إيلين.

- لا أريدُ أن أكون متوارِياً، قال جون.

تجمّد قلبُ إيلين.

- لن ترفُض؟ قالت. نظرت إليه برعب. تردّد جون.

- اسمعي، لا يمكنني الردّ هكذا. يجب أن أفكّر.

- تفكّر في ماذا؟ قالت إيلين. يُعرَضُ عليك وجود بشريّ؛ سنكون معاً من جديد! أوتتردّد خوفاً من وسم؟

- تعرفين أنّه ليس مجرّد وسم! قال جون.

عضّت إيلين على شفتيها.

- سيفوزون في الحرب من دونك، قالت.

- من دون شكّ، قال جون. إنّما، بالنّسبة إليّ، تختلف المسألَةُ!

- نعم، قالت إيلين بسخط. وأن أرتعد بسبب الحزن من الصّباح حتّى المساء، لا يعنيك...

- عزيزتي الصّغيرة، قال جون. حاولي أن تفهمي.

نفت إيلين برأسها.

- لا، أنا لا أفهم، قالت بصوت مختنق. عندما تموت، ستكون قد ابتعدت.

- لو أنّي موجود كي أنجو، فسأكون قد ابتعدتُ أيضاً، قال جون بلطف.

أدمجت إيلين أصابعها في شعرها.

- ليست الرّصاصات الأربع التي ستطلقها هي ما سيغيّر شيئاً من شيء!

– اسمعي، إيلين! هل بإمكانك الظّهور أمام النّاس وأنا محشور في ركن هادئ فيما أصدقائي يواجهون الموت؟

– لا يعنيني الآخـرون، قالت إيلين بيأس. لا أدين بشيء لأحد. انفجرت بالبكاء: أقتلُ نفسي إن متَّ أنتَ، وأنا لا أريد أن أموت.

– ألا تحاولين، مرّة واحدة، أن تفكّري في شيء آخر سواكِ؟ قال جون.

كان صوتُه قاسياً.

– وأنت؟ ألست تفكّر في نفسِك؟ قالت بعنف. هل أشغلُك في شيء؟

– المسألة ليست متعلّقة بنا، قال جون.

– بلى، قالت إيلين. ضغطت بقبضتها على غطاء الطّاولة: نحن نقاوم لأجل أنفسنا.

– إيلين! لا ينبغي أن تُطرَح مسألة المقاومة بيننا.

– أفعلُ أيَّ شيء لأجلِك، قالت بضغينة. أسرق، وأقتل وأخون...

– ولستِ قادرة على قبول احتمال موتي!

– لا، قالت إيلين. لا. لن تحصُلَ على ذلك منّي. ترى جيّداً أنّنا في معركة.

– لو كان بيننا القليل من الصّداقة...

– صداقة... قالت إيلين. الحبّ ما أكنُّه لك.

– لا أفهم طريقتك في الحبّ، قال جون.

أصدر في شأنها حكماً؛ أصدر حكماً في شأن هذه العاصفة الملتهبة التي كانت تجفّف الدّم في عروقه.

– ليس ثمة طريقة أخرى، قالت إيلين. أنتَ لا تحبّني. حقيقة عمياء مزّقتها فجأة: لم أعن لك شيئاً، في يوم من الأيّام.

– أحبُّكِ، قال جون، لكن ثمّة أشياء أخرى إلى جانب الحبّ...

كان هناك، جامداً، غامضاً، ممتلئاً بالأفكار القاسية كالفولاذ؛ كلُّ طيّة في جبينه وكلّ وميض في عينيه كان يصرُخ بأنّه ليس في حاجة إلى أحد.

- جيّد، قالت. سأتدبّر أمري كي أجعلَكَ تعود من دون أن أسألك رأيَك.

- إيلين! أمنعُكِ، قال جون.

- آه! تمنعني! أتعتقد أنّ ذلك قد يثنيني؟ ليفعل كل منّا ما يشاء. قالت ساخرة: يوماً ما، ستجد نفسك مُعيَّنا في باريس بصورة مخصوصة.

- أرجوكِ، قال جون. ليس أمامنا سوى دقائق قليلة: لا يجب أن نفترق على هذا النّحو.

- ليكن، قالت إيلين. هذا لا يعني شيئاً ما دمتَ ستعود إلى «كليشي» من الآن حتّى شهر على أقصى تقدير.

- لو فعلتِ ذلك... قال جون.

- هل ستقطَع معي؟ اقطَع الآن ما دام الأمرُ بهذه البساطة!

- ليكن في علمِك: ستقتلين كلّ مشاعري ناحيتَك. لا أستطيع أن أحبّ من دون احترام.

- إذًا! لن تحبّني. لا فرق!

- إيلين! قال جون.

قفزت. خطوات ثقيلة رجّت أرضيّة المطبخ. طرق أحدهم.

- ادخل، قالت.

دخل الملازمان. نهض جون وعالج حزامَه.

- لا تخف، قال الطّويل الشّاحب.

ابتسم جون:

- ممَّ الخوف؟

- يودّ الضّابط «ماسكاراي» رؤيَتَك.

- سأذهب، قال جون. تناول قبّعته ونظر إلى إيلين بتردّد. لم تتحرّك.

- إلى اللّقاء، قال.

- إلى اللّقاء، قالت من دون أن تمدّ إليه يدها.

- لن نضايقه، لا تقلقي، قال الملازم القصير. إنّه من أفضل الجنود.

نهضت إيلين.

- أظنّ أنّ عليَّ إعداد حقيبتي؟

- لو سمحتِ. السيّارة في انتظارك. ابتسم الملازم الطّويل: أقدّم نفسي: الملازم «ميلي» Mulet.

- الملازم «بورلا» Bourlat، قال الآخر.

ألقى الملازم «ميلي» الدّفاتر السّوداء على الطّاولة.

- ها هو موضوع التّهمة.

تناولت الدّفتر. كانوا قد قرأوه، بعيون الرّجال. دار رأسُها. فرغت الغرفة في لمح البصر؛ كان اللّحم بجانب القارورة نصف الممتلئة. كان ذلك شبيهاً بذكريات من حياة أخرى.

- أنا مستعدّة، قالت.

خرجوا وركبوا السيّارة. جلس الملازم «ميلي» بجانبها.

- تطردونني؟ قالت.

- أتظنّين أنّنا قد نندمُ على ذلك، قال «ميلي». ابتسم بلطف عسكريّ. وفي منتصف وجهه الطّباشيريّ انفتح ثقبان أزرقان على مآزق مُخبّأة.

- حاولي الحصول على جواز عبور آخر والعودة من دون إثارة الانتباه، قال «بورلا».

- وسنحاول ألّا نصادفكِ، قال «ميلي».

- شكراً، قالت.

- أوه! نحن نتفهم الأشياء، قال «ميلي». نحن متزوّجان.

ابتسمت إيلين بجُبن. التّفكير الرّجاليّ القذر. أنا تحت رحمتهم. لا يجب التوغّل في شيء.

– ألا تتركانني الآن؟ قالت وهي تنزل من السيّارة؛ رمقت «ميلي» بنظرة توسّل.

– علينا أن نتأكّد بأعيننا من أنّك ركبتِ القطار، قال «ميلي» بابتسامة جذّابة.

أشاحت برأسِها. انتهى الأمر. لم يعد هناك أمل. تمشٍّ آخر: شهرٌ آخر على الأقلّ؛ ولن ينجح الأمر مرّة أخرى. انتهى. تأمّلت نهاية السكّة في الأفق. كانت متعجّلة كي تكون هناك، كي تكون وحدها، لتبكي، لتكرههم، لتكرهه.

– سفرة موفّقة، قال «ميلي».

صعدت الدّرجات من دون إجابة ودخلت أوّل مقصورة. ظلّا على الرّصيف يراقبانها. رتّبت حقيبتها وجلست في زاوية بالقرب من الممرّ. كانت مقصورة جيّدة، مجهّزة بمقاعد جلديّة خضراء. كان الجوّ حارّاً. كان هناك ثلاثة جنود في إجازة، يحتسون مشروباً روحيّاً أبيض؛ كانوا يضحكون.

– القليل من المارك الألزاسي؟ قال أحدهم. إنّه من الجيّد.

– أريد، قالت.

مسح الجنديّ فم القارورة بمنديله وسكب رشفة من المارك.

– ما رأيُكِ؟

– شهير، قالت إيلين. أفرغت الرّبع. أحسّت في رأسها نوعاً من الصّرير: كلّ شيء يحترق، كلُّ شيء يشتعل؛ في لحظة، تحوّل قلبُها إلى كومة رماد.

– تشربه مركّزا، قال جنديّ بإعجاب.

«سيرى، لا فرق لديَّ، سيرى»، قالت في نفسها. نزعت معطفها، طوته وأسندت عليه رأسها وتمدّدت على طولها. كان الجنود يضحكون، كان القطارُ يسيرُ مؤرجِحاً إيّاها، وانتهى كلّ شيء بالنّسبة إلى اليوم.

-IX-

أقلّني إلى هان. بدا لي غيرَ مؤذٍ ببدلته الكاكي والقبّعة على رأسِه. لاح أنّ اللّعنة الأصلية قد انزاحت، لعنة أن يوجَد المرء: هل هو موجود حقّا؟ لم يكن هناك في حضائر پيكينيي وكومون وفي القاطرات والشّاحنات وعلى الطّرقات في أعماق الخندق المتجمّد حيُث يضربون الحراسة، لم يكن هناك غير جنديّ مجهول، جنديّ مطمئنّ غير نادم على شيء. كان ذاك سهلاً للغاية. لم يكن معنيّاً بالإرادة: كان يريد. كان متّحداً مع نفسِه. لم تكن هناك أيّ مسألة مطروحة. كان هدفه أمامه بكلّ بساطة: الانتصار على الفاشيّة. كانت هناك ضرورة رحيمة توّجه حركاته.

فجأة، وسط الغضب والعار، ها هو يقف من جديد أمام نفسه. خرج من المبنى الكبير ذي الزّجاج الأزرق وكان الملازم يبتسم بشماتة خلفه؛ عبر السّاحة الصّغيرة، وانصبّت عليه نظرات الجنود تحرق خدّيه. لقد فعلتها، لقد تجرّأت على فعلها. لم يكونوا يعرفون، لم يكونوا قد عرفوا بعد، يجب إخبارهم. يجب إخبار «بوشي» و«ديبوا» و«ريفيار». سيعرفون. سيعرفون أنّ كلّ شيء كان كذبة: الزيّ والجفنة وضحكاتنا الثّملة، وفي تبن الاسطبلات تلك الحرارة الحيوانيّة حيثُ تخدّرت أصابع أقدامنا من البرد. بهذه النّشوة العارمة ارتدى معطفه الذي كان في لون الأرض، وحلق شعره الغزير، والكثيف الذي ورثه عن أمّه! لكنّها مجرّد خدعة، لم أكن يوماً واحداً منهم؛ لن أكون أبداً كالبقيّة رجلاً عارياً وفرداً، بلا حماية بلا حظوة... «منقول بصفة خاصّة إلى المطبعة الرّسميّة

كمُدقّق». كان دائما يكره وجهه، لكن هذا كان الأكثر بشاعة: مُجنّداً في الخلفيّة.

- أقسم أنّي لن أظلّ هناك طويلاً!

- ستكون أحمق لو عُدت، قال ريفيار.

كان على الطّاولة ستّ زجاجات فارغة وكلّ صحن كان عبارة عن حفنة عظام؛ لم يتغيّر طعم الخمر، ولا رائحة الحساء ولا ضحكهم. لكن كلّ شيء كان مختلفاً. «لم أطلب شيئاً». قلتُ، وربّتوا على كتفي يشجّعونني: «اذهب، كنّا سنفعلُ مثلك لو كنّا مكانَك». لكنّهم لم يكونوا مكاني، وهم يعرفون ذلك جيّداً؛ أنا وحدي من عليه الذّهاب، الآن، لكلّ منّا مكانه؛ كنتُ وحدي تماماً. أنا من صعد القطار وهرب بعيداً عن الحرب، مَن خرج مِن المحطّة بظاهر مزيّف لجنديّ مُسَرّح ومَن رمقته النّساء بابتسامة على وجوههنّ. في كومون، كان الشّتاء لا يزال مخيّماً؛ بدأ الرّبيعُ يولد هنا، والنّساء كنّ مبتسمات. نساء باريس ذوات الشّعر الأشقر جدّاً، أو الأسود جدّاً، ذوات الشّفاه الحمراء. كنّ جميعهنّ يبتسمن للمُحتال. عامل مزيّف، وجنديّ مُزيّف. سيركبون الخطّ معي، أنا الذي سينام في غرفته، وسآكُل في المطاعم ذات الأغطية الورقيّة على الطّاولات بين المُسنّين والنّساء؛ وسأكون وحيداً. كنتُ أسيرُ لصقَ الجدران خوفاً من أن ألتقي غوتيي أو بيريي أو لورون؛ سيعلَمُ الرّفاق، وسيقولون: «عمِلَ بلومار على أن يُنقَلَ إلى باريس»؛ وحتّى لو صرختُ: «هذا غيرُ صحيح، ليس أنا»، فسينظرون إليّ ببرود: «أنتَ هنا، على أيّ حال». إنّه أنا فعلاً. انعقدت حنجرتي من الغضب؛ تمنّيتُ لو أمكنني أن أضغط بكلتا يديّ على رقبتها إلى أن أفقد الشعور بأنّ تحتهما شيئاً.

- آلو. أريد التحدّث مع إيلين.

- آلو. معكَ إيلين.

- أنا جون.

ندّ عنها تعجّب مكبوت في الجانب الآخر من الخطّ.

- أنتَ في باريس!
- هل لديكِ شكّ؟
- أنتَ غاضب منّي؟
- لديَّ ما أقولُه لك. متى آتي؟
- أفضّل أن آتي أنا الآن فوراً؟ قالت إيلين.
- لو أردتِ. لنقل بعد ساعة.
- جون!
- ماذا؟
- اسمع جون...
- ستقولين لي ذلك بعد قليل.

قفلتُ الخطّ. سترى. بدأتُ أشعر بتحسّن في التنفّس. نزلتُ شارع كليشي. ها أنذا أعود إلى بيتي، كما في السّابق تماماً. نفس المقاهي، ونفس المحال. رغم ذلك، هناك شيء تغيّر منذ شهر سبتمبر. قبل ذلك، كانت حياتي تبدو حبيسة بين هذه المنازل العالية؛ كانت دائماً هنا، ستظلّ هنا دائماً؛ أنا مجرّد عابر؛ سأكون قد اختفيتُ عندما تتقارب وتتشابه أكثر. رحتُ أتأمّلها؛ كانت مختلفة. لم تعد قوالب صمّاء، بل أكواماً من الحجارة حيثُ توازنها المؤقّت يوشك على الانهيار في كلّ لحظة. في الماضي، كان لكلّ واجهة وجه مميّز؛ لم تعد اليوم سوى طلاء من موادّ قابلة للتّفتيت، تمسكها فيما بينها هياكل معدنيّة عظيمة. هياكل من حديد معقوف، جدران متداعية، فضلات جبس، حجارة متفحّمة: تقريباً، هذا ما سيظلّ غداً؛ وأنا، قد أكون هنا بعد، أنا نفسي، وسط الأنقاض. لن يتّحد مستقبلي مع ما ينتظر الشّوارع. مستقبلي لي وحدي. لا شيء يحاصرني. كنتُ في اللّامكان؛ كنتُ بعيداً عن المنال. فجأة، أصبح العشوائيُّ ممكناً.

«سأقطعُ مع إيلين».

فكّرتُ في ضربها، في خنقها، لكنّي كنتُ بعيداً عنها إلى درجة أنّه

لم يخطر لي أن أقطع معها. سأراها الآن، وسأحدّثها: ماذا سأقول لها؟ نظرتُ إلى الشّارع الطّويل المستقيم. وحيداً، حرّاً، بلا ماضٍ. لم يعد الكذب القديم لم يعد موجوداً. لو كذبتُ عليها بعد قليل فسيكون كذباً جديداً. خفّ غضبي؛ فكّرتُ بنوع من الاندهاش: يجب أن أقطع بجدّية.

هل في وسعي أن أستمرّ في الكذب، بما أنّي أعرف أنّ كلّ إيماءة منّي تدحض قَسَمي؟ سأواجه الموتَ غداً، المنفى أو الثّورة؛ سأواجههم وحدي، وبكلّ حرّية، سأتّخذ قراراتي من دون اعتبار لإيلين. ستكرهني في كلّ مرّة وفي كلّ مرّة ستكافحني: سنكون عدُوّين. لا، مستحيل، لا يمكن أن يدوم ذلك. مع ذلك، هل في استطاعتي تركها؟ ظلّت أمّي وحيدة في المنزل النّاعم، وستصبح إيلين وحدها.

آه! كان من السّهل التحوّل إلى جنديّ؛ كان ذلك أسهل من التحوّل إلى رجل ثانية. بدا كلّ شيء مستحيلاً، إلّا أنّي سأتكلّم. *شيء ما سيوجد، لم يكن بعدُ موجوداً في أيّ مكان.* صعدت السُلّم ببطء. عادة، لا أشعر بأنّي مجرم إلّا بعد الجريمة؛ هذه المرّة كنتُ مذنباً سلفاً. الكذب أو الشّقاء؟ يجب أن أختار خطئي بنفسي. «ما كان عليّ أن ألتقيها. ما كان عليَّ أن أولَد». لكنّي وُلدتُ.

صافحتني مُتجنّبة النّظر في وجهي.

- أهلاً.

- أهلاً، اجلسي.

قابلتني بسحنة خجولة وتعيسة وأحسستُ بأنّي غارق في الحزن.

- إيلين! لماذا فعلتِ ذلك؟

- لم أشأ أن يقتلوك. رمقتني بتحدٍّ: يمكنك أن تقطع معي، يمكنك أن تضربني، يمكنك فعل ما يحلو لك: أفضّل هذا مئات المرّات على أن تفصل رأسك قذيفة.

- لا تظنّي أنّي سأظلّ هنا طويلاً. هذه المرّة، أعتقد أنّي سأستغلّ علاقات أبي.

- لا بأس، سيسعدني ذلك، قالت.

شعرتُ بالسّعادة لوميض الغرور في عينيها.

- هل تعني أنّك حوّلت كلّ ما بيننا إلى علاقة مستحيلة؟

صعد الدّم إلى وجنتيها:

- أنت الذي قرّر ذلك، قالت.

- ليس لديّ ما أقرّره. لقد أفسدتِ كلَّ شيء.

- أوه! أنت سعيد جدّاً، لأنّك تخلّصت منّي، قد تركب أوّل ذريعة.

- ليست ذريعة. لقد عاملتني كعدُوّ.

انهمرت دموعها: «نعم، لقد عاملتُكَ كعَدُوّ»، قالت. «أكرهُك، لم تحبَّني يوماً. لا تخف! سأرحل، لم يعد لديّ فرق!»

بكت بشهقات كبيرة. احمرّ وجهها وأنفها وانتفخا بسرعة. أحسستُ في فمي طعم ماء ملوّث وانتابتني رغبة في أن أقول لها: حسناً، لننسَ الأمر.

لكن، قريباً، سيحتدّ الخلافُ بيننا. رمقتني من خلف دموعها:

- صحيح؟ أتريدني أن أخرج؟

- أنا متعلّق بكِ كما لم أفعل مع أحد، قلت. لكنَ هناك سوء تفاهم جوهريّاً وخطيراً بيننا. لم تهتمّي يوماً باقتسام الحياة معي، أحببتِني فقط لأجل نفسِكِ.

- أردتُ أن أكون حياتَك، قالت بيأس.

- هذا مستحيل. لا يمكنني أن أحبّك كما ترغبين.

تغيّر وجهها: «لا تحبّني!» قالت. نظرت إليّ صامتة بعينين شاخصتين؛ مرّرت لسانها على شفتيها: «لماذا، إذاً، قلتَ لي إنّكَ تحبّني؟»

- أكنّ لك حناناً بلا حدود. أردتُ أن أحبّك. تردّدتُ: كان عليّ أن أفهم أنّنا مختلفان كثيراً؛ هذا ليس خطأكِ، لكن ليس لدينا ما نصنَعُه معاً.

- لا تحبّني، قالت ببطء. غريب. أنا التي تحبُّك بجنون.

حدّقت في الفراغ. بدت كأنّها تفكّ شفرة نصّ صعب. انقبض قلبي. ألم أكن أحبّها؟ بدت لي قريبة جدّاً، كم وودتُ لو أمكنني أن أواسيها.

– غريب، قالت، بعد كلّ شيء، ما الدّافع الذي سيجعلُكَ تحبّني؟

– إيلين!

كانت وحيدة، نائية جدّاً عنّي. وشعرتُ بها بين ذراعيّ حميمة وساخنة.

– ماذا؟

أطرقتُ. ليس لديّ ما أقوله لها. هذا القلق العقيم الذي يغرق قلبي والذي له طعمُ المستنقع.

– سامحيني.

– أوه! أنا لا ألومكَ، قالت. هكذا أفضل. هكذا سيكون في وسعي ألّا أكذب على نفسي. نهضت: أريد أن أذهب.

– لن تذهبي هكذا!

– لِمَ لا؟ جاست بعينيها في الغرفة لتتوقّف نظراتها على وجهي بنوع من الاندهاش:

– ليس لديكَ فكرة عن الأشياء التي عِشتُها خلال هذا الشّهر، لن تتخيّل. كان... كان حقيراً.

– كما تشائين، قلت. لو لم أدافع عن نفسي، فإنّ دموعاً كانت ستنزل من عينيَّ: لستُ أنا من يبكي.

– أفضّل ألّا أراكَ ثانية، قالت. حاولت الابتسام: «إلى اللّقاء».

بدا ذلك مستحيلاً. نظرتُ إليها من دون أن أستوعب تماماً ما دار بيننا، كما لو أنّ أحدهم جعلني أرى يدي، ندباتها وشكل أظفارها، من خلال قنّينة زجاجيّة.

– إلى اللّقاء، كرّرت. خطت نحو الباب. اندفاع غريب ألقى بي نحوها: أحبّها. لكنّ الباب كان قد أُطبِقَ، نزلت السُلّم. أحبّها لأجل نزاهتها

وشجاعتها، أحبّها لأنّها غادرت: لم يكن في وسعي أن أناديها: إيلين! أحكمتُ قبضة يدي على ذراع الكنبة، كاتماً صرخة لا غَدَ لها. لقد قُضي الأمر. دموعها ومعاناتها لم تكن توجد من قبل والآن، هي حاضرة. بسببي.

فعلتُها. لماذا يحدث هذا، لماذا تحديداً؟ تبكين. لا جدوى من ذلك، ما دمتُ سأحبُّكِ غداً. ربّما أنت تموت لأجل لا شيء. لأجل لا شيء، اللّافتات الصّفراء والأبواب التي تُفتَحُ وتوصَد. وطقطقة الرّصاص في الصّباح الباكر. لأجل لا شيء. لقد أوصلني إلى هنا، لأجل لا شيء. سنُهزَم. أو أنّهم سينتصرون من دوننا. كلّ هذه الجرائم لأجل لا شيء. لم يفكّر في هذا. كان يقول: يجب أن نفعل شيئاً. ماذا فعل؟ موتُك، وهذه اللّيلة هما وحدَهما الأمر الأكيد.

«لن أراها مجدّداً. انتهى»، فكّرَ وهو في القطار الذي أقلّه بعيداً عن باريس. مع مرور الوقت، سيلتئم الماضي كالجرح تماماً. الآن، كان قرارُه خلفَه، تماماً كالأشياء التي لم يختَرْها لكنّها موجودة. *أن يكون قد قرّرَ*. لم يكن ذلك أكثر إجراماً من مجرّد أنّه حيّ. لم يكن لقطيعته مع إيلين وزن أكبر أو أقلّ على قلبه من عشاء الـ«بور سالو». *أن يكون قد قرّر القتل؛ أن يكون قد قتل؛ أن يكون ميّتاً*. ثمّ إنّه لم يعد يلتفتُ خلفَه. كان يراقب المستقبل، هناك، في آخر الخطّ الحديديّ. هدف واحد، طريق واحد. عاد جنديّاً. الإجازات الجميلة! ها هو وحده، مثلما كان في طفولته يجري في البراري حيثُ كان يقضم التفّاح بلا أسف، بلا ندم، حيثُ كان كلُّ شيء مباحاً: بإمكانه أن يتمطّى، أن يستلقي، أن يأخُذ، أن يكسِر؛ لن تؤذي حركاته أحداً؛ لن يكون هناك أحد قبالته؛ لم يكن الرّجالُ سوى أدوات، أو عراقيل، أو ديكور، وكلُّ الأصوات قد خرست، الأصوات الهامسة، الأصواتُ المُهدّدة، أصواتُ القلق والنّدم. لم يكن يُسمَع سوى دويّ المدافع، الطّائرات، صفير الرّصاص. كان يلقي بالقنابل ويشحنُ بندقيّته بهدوء كما تؤكلُ التفّاحة. كانت المدافع تطلق القذائف على الدبّابات والشّاحنات المُصفّحة؛ كان عمُلُه هو أن يطلق

الرّصاص على الرّجال. لكن الإسمنت والفولاذ واللّحم، جميعها كانت مادّة. لم يكن سوى ترسٍ في ماكينة الحديد والنّار التي تقطعُ الطّريق على ماكينة أخرى. «إنّه أنا»، فكّرَ يوماً، بذهول، ممدّداً في تخوم الغابة، ماسكاً بندقيّة رشّاشة بين يديه؛ وانتابته رغبة في الضّحك؛ هناك، في الحقل المحروث، كان الرّجالُ يسقطون تحت الرّصاص وكان قلبُه خفيفاً. «أنا من يقتُلُهم». حتّى هذا كان مسموحاً. فقط، لأنّه يعرف ماذا يريد. كان مجرّد جنديّ يضحكُ لأنّه لم يعد قادراً على إلحاق الضّرر. عندما أحسّ بالألم في جانبه الأيسر، عرفَ أنّه لن يسعه القيام بشيء. كان ضائعاً تماماً، ناجياً، وأحسّ السّلم يجتاحُه كالحُمّى.

ضائعاً في رائحة الكلوروفورم، وبياض الأغطية وصمت القاعة المُضاءة الفسيحة: لا شيء غير آلام بلا اسم. لم يكن الوقت يمرّ. هي دائماً لحظة واحدة، نفسُ اللّحظة: هذا الألم المحض. كان طافياً وحدَه مع جسمه، لم يكن على الأرض. كان يكفي أن ينفُخ أحدهم عليه كي ينطفئ ولم يكن ليغيّر شيئاً لأحد؛ لا ضوء ولا حرارة: نارٌ لعوب.

تشكّل العالم من حوله شيئاً فشيئاً، ورويداً عاد إلى العالم؛ التأم الجرح: «ماذا يحدث؟» مشى حافياً في المُشَمّع، من خلال النّافذة، رأى السّهل الأحمر، حقول الخزامى الزّرقاء. تراجع الجيشُ الفرنسيّ نحو الـ «سين»؛ يُقال إنّ الألمان وصلوا إلى «روان». لكنّه يشعر بالنّعاس.

يا لها من يقظة! تسلّل إلى المكتب، أدار زرّ الرّاديو وتكلّم صوت، بالفرنسيّة، بنبرة مبحوحة. «دخلنا إلى أورليون. دخل نقيب مع بعض الرّجال إلى ڤردوم وسقطت ڤردوم. هربت الفرقُ الفرنسيّة وتمزّقت إلى خمس مجموعات؛ اللّاجئون يملأون الطّرقات بالملايين؛ فرنسا تتفتّت». هذا الصّوتُ المتعجرف، المحتفِل الذي يهتف بانتصارهم. هزيمتنا. هزيمتي. أطرق، ظلّ هامداً بلا حركة وقتاً طويلاً، وفي فمه طعمُ مرارة لا يُحتَمَلُ، هو طعمُ الحياة نفسها. لأنّنا لم نجرؤ أن نريد. سمع صوت پول. لاحت له عينا بلومنفيلد. كم كانت مساءات الرّبيع وديعة،

كالأعلام التي تصفّق باللوّن الأحمر وبالألوان الثّلاثة تحت شمس 14 يوليو! «ما من إضراب سياسيّ». ذلك الحذر، ذلك الحذر المفرَّغ من المعنى! «لن أدفع ببلدي إلى الحرب». وإنّها الحرب، الحرب الخاسرة. لم نجرؤ على القتل، لم نشأ أن نموت، لقد التهمتنا الدّودة الخضراء أحياء. كانت النّساء والأطفال يموتون في الخنادق؛ على هذه الأرض التي لم تعد لنا والتي باتت لا أكثر من شبكة خطوط حديديّة، خانقة الملايين من رجال فرنسا. بسببي. كلّ منّا مسؤول عن كلّ شيء. ذات ليلة، كان تحت البيانو يخدش السجّاد وكان ذلك الشّيء المرّ في حلقه؛ لكنّه طفل، بكى ليلتها ونام. في ليلة، كان يمشي في الطّرقات مثل مجنون، عيناه شاخصتان وسط وجه نازف؛ لكنّه كان يافعاً، والحياة كانت أمامه، وكان من السّهل أن ينسى جريمته. صارت حياته خلفه، الآن، حياته الضّائعة. لقد تأخّر الوقت، لقد انتهى كلُّ شيء. لأنّي أردتُ الحفاظ على صفائي، فيما كانت قد استقرّت في داخلي، ممتزجة مع لحمي، مع أنفاسي، القذارة الأصليّة. لقد هُزمنا؛ لقد هُزِم الرّجال. سيتكاثر مكانهم جنس حيوانيّ جديد: لن يكون هناك فرق بين الخفقان الأعمى للحياة وبين عفونة الموت: ستنتفخ الحياة وتتقلّص على إيقاع واحد، عضلات، دم، مَنِيّ، واضطرابُ دود شبعان. من دون شهود. لن يكون هناك رجال.

كانت الشّوارع في ضواحي باريس مضاءة وخالية؛ بدت شاسعة بلا حدود؛ فقط، بعض الدرّاجات كانت تكسر الصّمت. بدا المارّة القليلون وحيدين؛ في منفاهم، في مأساتهم وخوفهم. كانوا يمارسون وحدتهم وكانوا منكفئين على أنفسهم في جزع، مغمّسين في النّكبة، ضائعين كأنّهم في صحراء. كان وحدَه هو أيضاً. كان يتسكّع في باريس منذ الصّباح حاملاً معه منحة التسريح في جيبه؛ كانت المطبعة مُغلقة، وأمّه بعيدة عن باريس. لم يكن يعرف شيئاً عن إيلين الوحيدة. لكنّه كان هنا. رجلاً كاملاً. مشى تحت الشّمس الكئيبة. كانت المغازات نائمة نوم الحديد: كان بالإمكان رؤية الرّخام العاري من خلف القضبان المشبّكة

المُقشّرة لقصّابي اللّحوم الحمراء، طابور أسود طويل يمتدّ أمام بقالة. «سيأتي دورُ فرنسا». فيينا. براغ. باريس. على واجهة زجاجيّة لصانع قبّعات ألصقت ورقة صفراء كبيرة كُتب عليها: «منزل يهودي». كان يمشي. «أنا هنا. لكن ماذا بإمكاني أن أصنع؟» وحيداً كالآخرين. كانوا يتقدّمون في صفوف طويلة على امتداد الشّوارع المقفرة، محوَّطين مثل السّرب برائحة جزمهم؛ كانت الشّاحنات تنقلهم إلى أعلى مونمارتر، متقدّمين بخطواتهم النّمطيّة حول ساحة «تارتر» وعندما تقطعُ صافرةٌ نظامهم، يظلّون متخثّرين دزّينات لالتقاط صور فوتوغرافيّة لـ «ساكري-كور» (القلب المُقَدّس). ضجيج خطواتهم، طقطقة أقدامهم، أغانيهم، كان زيّهم ينسج فيما بينهم شبكة عظيمة خضراء رماديّة، سميكة، متداخلة إلى درجة يستحيل معها تمييز الوجوه منفردة. اشترى دفتراً وغضّنه بغضب. أسيادُنا. وأحنينا رؤوسنا، من دون كلام، من دون حركة. كانت النّساءُ في بولونيا تطلق النّار عبر النّوافذ وتسمّم الآبار.

– تكاتف عادل واحدٌ في إمكانه تجنيبنا مصائب جديدة، قال غوتيي. لماذا ترفُض؟ لم تُتَح لنا فرصة منح *الحياة النّقابيّة* ألقها مثلما هو الحالُ الآن. ولن تكون مُجبراً على كتابة أشياء لا علاقة لها بأفكارك.

– أريد أن أكتب كلّ ما أفكّر فيه أو لا شيء.

– يمكنك أن تكتب كلّ شيء، قال غوتيي. ألسنا نتمنّى منظّمة أوروبيّة عادلة؟

ضرب لي موعداً في شرفة أحد المقاهي؛ مقهى بورجوازي، بدا أنّه يرتاده بأريحيّة. لابدّ أنّها الأماكن التي بات يرتادُها في الوقت الحاضر. كان كلّ شيء حولنا عبارة عن امتداد أزياء خضراء حيثُ محفظة المنظار الصّفراء تضفي عليه لمسة سياحيّة. مرّت امرأة بين الطّاولات، حاملة حول عنقها سلّة مليئة بالصّور الفوتوغرافيّة والصّحف المصوّرة، و«ذكريات من باريس». كما في زمن الأمريكان. أمطرت في السلّة أوراقاً نقديّة جديدة برسوم مجهولة. جميعهم، تقريباً، طلبوا الشّمبانيا. كان قد

وضع علباً أنيقة بجانب دلو الثّلج: عطوراً، وشوكولاتة، وغسيلاً حريريّاً. لقد انتهى للتوّ من سرقة آخر محال باريس الفاخرة.

رمقتُ غوتيي بغضب:

- هل يفكّر كثير من الرّفاق مثلك؟

- بعضُهم. تحاشى النّظر في عينَيّ: لا أحدَ بيننا يريدُ هذه الحرب.

- ليس هذا السِّلمَ ما نريد، قلت.

- إنّه السّلم، قال.

فيينا: السّلم. براغ: السّلم. باريس: هل نقول السّلم أيضاً؟

نظرتُ إلى فتاة ألمانيّة جالسة إلى طاولة مجاورة وهي تعهد بعلبة شاي للنّادل مع ألف توصية؛ وضعت على الطّاولة علبة معجون، زبدة، سكّراً. كنّا نشرب قهوة شعير بالسَّكّرين[20]. كانوا بيننا كشعب مستعمِرٍ وسط حشد من السكّان المحلّيين؛ عالمان ينزلق أحدهما فوق الآخر من دون أن يندمجا. كانوا يعيشون في مستوى السّيارة والطّائرة ولم نكن لنا نحنُ غير أقدامنا، وفي أفضل الأحوال درّاجات هوائيّة. لم تكن المسافات نفسها بالنّسبة إلينا وبالنّسبة إليهم، ولا ثمن كأس نبيذ.

- هل ستقبل أن تبيع لهم الجريدة؟ قلت.

ابتسم غوتيي بجفاف: لماذا لا نعمل ونشتغل تحت لوائهم؟ لا يزعجك حكم «دالاديي»[21] Daladier. هزّ كتفيه. كنتُ أظنّ أنّك أكثر واقعيّة.

- أنا واقعي. أنتَ أيضاً. تعلم جيّداً ما تفعله. نهضتُ: إن كنتَ، بعد هذا، قادراً على رؤية نفسك في المرآة، فهذا أفضل لك.

جعلني الغضب أرتعش. غضبي إزاء غوتيي؛ إزاء نفسي. هل كان پول على حقّ؟ هل كنّا خونة؟ حاولتُ توحيد الماضي بقلق: لا، لم

20- السَّكَرين Saccarine: مادّة تستخدم كمعوّض للسكّر.

21- دالاديي Daladier: رجل دولة فرنسي وقيادي بارز في الحزب الراديكالي.

نكن جبناء؛ لم نخن أنفسنا. *برهن على ذلك. برهن على ذلك. عليكَ أنت أن تبرهن على ذلك.* لكن ألم أكن بصدد ارتكاب خيانة؟ ما الفرق بيني وبين غوتيي؟ إنّه يقطع أمام الجميع، كان صادقاً أكثر منّي. أنا أيضاً شريك. رحتُ أمشي في باريس وكلّ خطوة أخطوها كانت تفنّد شراكتي: آكُل الخبز الذي يمدّونني به، الخبز الذي يمنعونه عن لينا بلومنفيلد، ومارسيل، وبولونيا المجوّعة؛ كان قفصي واسعاً، أتسلّق قفصي بطاعة. لا، قال، لا. نظر إلى يديه المرتعشتين. لا فائدة؛ لا طائل من الغضب؛ لا طائل من الأسئلة؛ لقد مضى الماضي: عليّ وحدي أن أقرّر ما إذا كان ماضيَ عبوديّة أو ماضي رجال. *برهن على ذلك.* سأفعل.

«ماذا يمكن أن نفعل؟» لكنّه يعرف أنّ كلّ شيء يحدث بالرّجال وأنّ كلّ واحد كان رجلاً كاملاً. راح يبحث عن رفاقه واحداً بعد آخر. لسنا وحدنا، لو اتّحدنا، قال. لسنا مهزومين، لو قاومنا. سنكون حيثُ يكون الرّجال. تكلّم، وراح رفاقه يبحثون عن رفاق وتكلّموا. ولأنّهم تحدّثوا فيما بينهم فقد اتّحدوا، كانوا في مقاومة، لم يُهزَم الرّجال.

– لا يكفي أن نتحدّث، قال.

رمقه السيّدان بقلق. كلاهما حاجج جيّداً؛ كانت عينا لوكلارك زرقاوين ووديعتين وسط وجه ودود؛ وكانت قسمات پارمونتيي جافّة؛ كان لديه سحنة ثائر.

– أعلم، قال پارمونتيي. ثمّة خطر يتربّص بنا؛ ولأنّنا لا نملك رؤية واضحة فإنّ اجتماعاتنا سرعان ما تنحطّ وتتحوّل إلى حلقات دراسة أو نقاش صالونات.

– لهذا نحن نقبل، طوعاً، التّعاون معكم لبعث جريدة، قال لوكلارك، ولنحرّر مناشير ونوزّعها.

– هذا لا يكفي أيضاً، قال.

داعب لوكلارك ذقنه بانشغال. لم نسمع أيّ ضجيج. ستائر، سجّاد سميك، وأبواب جلديّة تكتم صوت العالم. كان على الطّاولة الثّقيلة

ثلاثة أكواب من القهوة وكؤوس ملآنة بالنّبيذ. كانت الكتب تغطّي الجدران.

– ما العمل؟ قال لوكلارك. أضاف بحيويّة كما ليتجنّب إجابة: يمكننا أن نؤسّس شبكة استعلامات.

– كلّ هذا ادّعاء أفعال، قال بلومار.

خيّم الصّمت. خرج تهديد في هذه الغرفة المتحضّرة والأنيقة. لم يكن هؤلاء الرّجال جبناء؛ إنّهم يعرفون كيف يجرؤون، الإرادة، ما يكفي ليبقوا على سلامهم الدّاخليّ. إنّها تلك السّكينة ما يوضع على المحكّ: إنّهم قد يفضّلون أيّ مخاطرة أخرى.

استجمع پارمونتيي شجاعته:

– ماذا ترون؟ قال.

– أفعالاً ملموسة، قال بلومار.

– أفعالاً، قال لوكلارك. لم ينظر إلى بلومار. كان ينظر داخل نفسِه. تلك العقبة المنتصبة في طريقه، لم يشأ أن يتساءل أيّ أيدٍ أقامتها. يداه. يمكنه تدميرهما. إنّه يخاف من نفسه.

– بالأموال يمكننا شراء الأسلحة بسهولة، قال بلومار. ولديّ رفاق قادرون على صنع المتفجّرات. نحن على استعداد للمخاطرة.

– أوه! الأموال، لا ينقص المال، قال لوكلارك.

– ليس لأنّي أدعم العنف من حيث المبدأ، قال پارمونتيي، لكنّي لا أرى موجباً لقتل جنود غير مسؤولين.

– إذا أردنا تأسيس قوّة قادرة على ضمّ الحشود، قادرة على التحمّل حتّى نهاية الحرب وبناء المستقبل، فعلينا التحرّك، قال بلومار. لا وجود لنا خارج الفعل.

– ربّما جرّبنا العرقلة، قال لوكلارك.

– يجب أن تكون هناك أفعال مرئيّة من قبل الجميع، قال بلومار. قطارات مؤن تتفجّر، فنادق محجوزة تحترق. يجب أن يشعر الفرنسيّون

بأنّهم يخوضون حرباً. هل تؤسّسون منظّمة؟ نعم أم لا؟ ليس بإشارات النّصر V، أو الصّليب البطريركي، أو سنّارات صيد، ستجعلون الاضطراب يستمرّ في البلاد.

– هل فكّرتُم أنّه سيكون هناك عمليّات انتقام رهيبة؟ قال پارمونتيي.

– وهو المطلوب، قال بلومار.

– المطلوب؟

نظر پارمونتي إلى بلومار بسخط. «أعلم»، فكّر بلومار. من يعرف أكثر منه؟ كانت هناك، في يده كأس، وينطق بكلمات لا تحفّزُ قلبَه هوَ. لكن، لم تكن المسألة متعلّقة به.

– إنّها تلك الأعمال الانتقاميّة ما أتوقّع، قال. حتّى تبطل كلّ مساعي الاتّفاق، وحتّى لا تنام فرنسا بسلام، على الدّم الفرنسيّ أن يسيل.

– هكذا، بلا ندم، تسمَحُ بقتل الأبرياء؟ قال پارمونتيي.

– تعلّمتُ من هذه الحرب أنّ الدّم الذي ندَّخره، مستعصٍ مثلَه مثل الدّم الذي نريقُه، قال بلومار. *لا إضرابات سياسيّة. لن أدفع بلدي إلى الحرب. وها نحنُ ذا. كفى. كفى حذراً بلا معنى.* فكّروا في كلّ الأرواح التي سينقذها نضالُنا.

صمتوا طويلاً.

– لكن لو أنّ جهودنا أُجهِضت فسنجد أنفسنا مسؤولين عن جرائم مجانيّة.

– من دون شكّ، قال بلومار. نحنُ مجرمون دائماً، لكنّ هذين لا يعيان ذلك، تخيفهم الجريمة: لكن علينا أن نضع احتمال النّجاح. على أيّ حال، زملاؤكم مهدّدون بالسّجن والموت. الجريدة والمناشير ليست في مأمن.

– الأمر مختلف، قال پارمونتيي. الأعضاء قبلوا المخاطرة.

– قبلوا بها لأجل نوع من النّتائج. إذا ما عرّضناهم للخطر من دون فائدة فنحنُ مذنبون. لا، قال بلومار. لا يجبُ أن نهتمّ إلّا بالهدف وأن نفعل أيّ شيء لأجل بلوغه.

– أتعتقد أنّ كلّ الوسائل جيّدة؟ قال لوكلارك بريبة.

– بالعكس. كلّ الوسائل سيّئة، قال بلومار.

فيما مضى، كان هو أيضاً يحلُم بدعم أفعاله بحجج قويّة؛ لكنّ ذلك أسهل بالتّأكيد. يجب أن يتحرّك من دون ضمانات. إحصاء الأرواح البشريّة، مقارنة وزن الدّمعة بقطرة الدّم، إنّها مسألة مستحيلة، إلّا أنّه ليس عليه أن يحصي شيئاً، وأيّ الأثمان مناسب حتّى هذا: دم الآخرين. لا أحد يدفعُ الثّمن باهظاً.

– هكذا. لدينا المال، قال لرفاقه.

– أنتَ الأفضل! قال لورون.

– أخيراً، يمكننا العمل بحقّ! قال «برتيي».

ضحك الجميع. لكنّ القلق كان جاثماً على بعض الصّدور.

– فقط، لو علمنا لمصلحة من سنعمَل، قال لونفون. إن كان لإعلاء راينو ودالاديي...

– لا، قال بلومار. أنت تعرف جيّداً. نحن نعمل لنصبح أقوياء، ولأجل أن نحكم نحن غداً.

– هل سنصبح أقوياء بما يكفي؟ قال لونفون.

«صحيح»، قال برتيي. «كيف نكون واثقين من أنّنا لسنا نناضل ضد الرّأسماليّة البورجوازيّة، لمصلحة الإمبرياليّة الأنكلو سكسونية، لمصلحة مجد القوى الرّجعيّة؟»

تردّد. كان ذلك صائباً. لا يمكن، سلفاً، أن نعرف ما نحنُ بصدد تحقيقه. تردّد؛ لكنّه أجاب بثقة: «كلّ شيء أفضل من الفاشيّة». وقال في نفسه: في وسعنا أن نعرف ما نريد، على الأقلّ؛ علينا أن نتحرّك لأجل ما نريد. ما يبقى، لا يعنينا.

كان يريد. مضى في قضيّته، عارفاً بما يريد. *غير مدرك ما يفعل.* متخطّيا الكمائن القديمة للحذر. مقذوفاً بشكل أعمى في المستقبل رافضاً الشكّ: *ربّما كان هذا كلّه بلا طائل؛ لعلّي قتلتُك لأجل لا شيء.*

-X-

أغلقت إيلين كتابها: لم تعد ترغب في القراءة. نظرت إلى السّماء السّوداء فوق الـ «پونتيون»[22] Panthéon. كان الجوّ غائماً، لكنَّ الغيوم لم تكن تحجب الشّمس؛ كان ثمّة رماد أسود رقيق يسبح في الهواء السّميك. كما لو كان هناك خزّانات بنزين تحترق حول باريس. ومض البرق في الأفق وتكوّنت سحب بخار أبيض في الخلفيّة الدّاكنة للسّماء. اقتربت؛ تهديد رصاصيّ يسحق المدينة؛ قريباً تُغلق كلّ المعابر، سيمرّون في الشّوارع. كانت شرفة «ماهيو» مقفرة حول إيلين. شارع «سوفلو» مقفر. ما من تاكسي واحدة. كانت بعض السيّارات تعبر مسرعة شارع «سان ميشال»، في اتّجاه واحد، صوب باب الـ «أورليون». أصبح الشّارع طريقاً عامّاً يقطعُ المدينة من الطّرف إلى الطّرف؛ طريقاً للهروب، حيُث تتدفّق الحياة. مع ذلك كان هناك رجل يرتدي زيّاً أزرق، في أعلى سلّم، ينظّف كرة مصباح إنارة.

«غداً، سيكونون هنا». نظرت إيلين إلى البعيد بعينين قلقتين. ينبغي أن تصل السيّارة عند العاشرة. لا تريد أن تعلق في شرك هذه المدينة المقفلة. كان الصّمتُ يخيّم على الشّوارع الجامدة بين الواجهات العمياء؛ سيكون كلّ ساكن أكثر وحدة من مكروب تائه في ريف مُغرَق. كان من الصّعب التّصديق أنّ المنازل ستظلّ متماسكة واقفة بثبات على الأرض، وأنّ الكستناء ستلقي بظلالها على حدائق اللكسمبورغ.

22- پونتيون Panthéon: معلم كلاسيكي يقع في قلب الحيّ اللّاتيني.

بين المدّ المتغطرس للسيّارات، كانت عربات اللّاجئين تمرّ ببطء، محمّلة بقرى بأسرها. كانت عربات عريضة تسحبها أربعة خيول أو خمسة، شُحن عليها تبن يغطّيه مُشمّع أخضر؛ على الجانبين كُوّمت الحشايا، الدرّاجات، وفي الوسط العائلة من دون حراك كأنّها من جصّ، مجتمعة تحت مطريّة كبيرة. بدا ذلك مثل لوحة حيّة رُسمت بمناسبة موكب احتفالي. صعد الدّمعُ إلى عيني إيلين.

«سأنفي نفسي أيضاً».

نظرت حولها. كان ماضيها هنا، بين هذه الجزر الحجريّة. فوق هذا الرّصيف لعبت المربّعات مع إيفون، تحت عينَي الله الرّاعية. بمحاذاة هذا العمود قبّلها پول. في الأعلى هناك، حيُث ينتهي الشّارع، قال لها جون «أحبُّكِ». مسحت عينيها. لا وجود لله. لم تعد تحبّ پول. جون لا يحبّها. كلّ الوعود زائفة. سال المستقبل قطرة، قطرة، خارج المدينة، وأُفرِغَ الماضي تماماً؛ مصادفة بلا حياة أمر لا يستحقّ الأسف؛ إنّه غبار؛ لم يعد هناك ماض؛ ليس ثمّة منفى. باتت الأرضُ منفى كبيراً لا عودة منه.

خرجت سيّدة المغسل من المقهى، كانت في يدها حقيبة كبيرة. في تلك اللّحظة توقّفت سيّارة السيّد «تليي» بجانب الجادة وظهر رأس دينيس من الباب: «ألم تعلمي، صرخت. قالوا لنا للتوّ إنّ الرّوس والبريطانيين وصلوا إلى هومبورغ!» أمسكت بحقيبة إيلين. داخل السيّارة، في السّقف، كانت هناك كومة حقائب؛ وأمام الأضواء، رُبِطَت درّاجة هوائيّة. جلست إيلين بجانب دينيس وانطلقت السيّارة. كان صاحب البقالة الكبيرة بصدد سحب الشّبكة المعدنيّة التي تخفي وراءها عصير الغلال.

كلّ المحال كانت مقفلة.

- ألن يرحل أهلُكِ؟ قالت دينيس.

- يخافون من أن تُسرَق المغازة، قالت إيلين.

وأضافت بصوتٍ قويّ: والدُك طيّب لأنّه قبل بي معكم!

- هذا طبيعيّ، قال السيّد تيليي. البيتُ كبير. إنّه يسعُ الجميع.

تجاوزت السيّارة بوّابة أورليون وأوغلت في الطّريق. كانت السّماءُ زرقاء فوق الفيلات المغلقة وبدا كأنّها رحلة نهاية أسبوع. «انتهى، فكّرت إيلين، إلى الأبد». إلى الأبد، لكنّها ظلّت هناك، تحت ظلّ الكستناء، وسط رائحة العسل والكاكاو؛ إلى الأبد، في المدينة المُجتاحَة، مُجتاحة هي أيضاً بشبح حبّها الضّائع. تلك التي مالت برأسها من النّافذة، لم تكن سوى لاجئة بين ملايين اللّاجئين.

لاحت في الطّريق عربات مجرورة تشبه تلك التي عبرت الشّوارع منذ قليل؛ لكنّها بدت معطّلة: كان القرويّون يسيرون مشياً على الأقدام بجانب الخيول، وكان نصف مؤن التّبن قد استُهلِك؛ لابدّ أنّهم قدموا من بعيد وأنّهم مشوا مسافة طويلة. كانت الخصومات تقطع الطّريق من حين إلى آخر فتتوقّف السيّارات ثمّ تستأنف سيرها ببطء وسط جوّ مُغبّر كأنّها سلسلة مفكّكة الحلقات.

- لن يكون في وسعنا السّير غداً، قال السيّد تاليي؛ استدار: هل تشعرون بالجوع؟

- يمكننا التوقّف في القرية القادمة، قالت دينيس.

- لنتوقّف.

كان القرويّون يراقبون أمام منازلهم المزيّنة بالورود والسّوسن:

- إذًا؟ افتُكّت باريس؟ راحت؟

- باريس ليست فرنسا، قال السيّد تاليي.

دخلوا أحد المقاهي. رتّبت دينيس سندويتشات، بسكويت، غلالاً وطلبت القهوة. كانت هناك امرأة تسمع الرّاديو. تجمّع الدّمع في عينَيْ إيلين؛ دموع لا تعرفها. لقد عرفت فيها، من قبلُ، طعم اليأس والغضب لأشهر خلت؛ بينما هذه الدّموع دافئة، بالكاد مالحة، تسيل على الخدود بلا ألم.

توقّفت أمام الباب سيّارة مغطّاة بالأغصان كأنّها معدّة لمسرحيّة هزليّة ريفيّة؛ كانت قد وصلت من «ايفرو» Evreux: احترقت إيفرو، واحترقت لوفيي واحترقت رووان. خلال فترة بعد الظّهيرة كانت السيّارات القادمة من النورمندي مموّهة بالأغصان على نحو أكسبها جوّاً احتفاليّاً. «شيء ما يحدث»، فكّرت إيلين. «ليس لي. أنا لستُ موجودة. شيء ما يحدث للعالم». ليس مجرّد تراجع أو تقهقر. كانت الهزيمة مرسومة في العيون القلقة التي تتابع مرور السيّارات، وعلى الوجوه المغبرّة للفارّين، من خلال الأغطية والأباريق والكراسي المكدّسة بعضها فوق بعض أعلى الشّاحنات.

حلّ المساء. توقّفت العربات في المنحدرات المكشوفة؛ أشعل النّاس النّيران لتحضير الحساء والتّخييم لقضاء اللّيلة. فكّرت إيلين في جنود الحفر في أفلام الغرب الأمريكيّة. أحسّت بأنّها غريبة كأنّهم عثروا عليها في أرض بعيدة. كما لو كان الزّمن قد أصبح فضاءً بِكراً.

– سنتوقّف برهة في لافال لنُجرِيَ مكالمة. سنتّصل بالماما لنقول لها إنّنا وصلنا، قال السيّد تاليي.

نشب شجارٌ في المدينة الصّغيرة أثناء النّهار. كانت الأرصفة مزدحمة بالسيّارات، كانت الأماكن مأهولة باللّاجئين؛ كان الأكثر ثراء جالسين بكسل على كراسي أمام طاولات المقاهي التي كانت احتلّت ساحات بأكملها؛ آخرون كانوا ممدّدين على الأرض.

– انتظر في السيّارة. سأصعد إلى مكتب البريد بصحبة إيلين، قالت دينيس.

أخذت إيلين من ذراعها وما إن صارتا بمفردهما، تعكّر وجهها.

– سنُقطَعُ عن كلّ شيء، قالت. لن أعرف شيئاً عن مارسيل. كيف سأعيش من دون معرفة شيء؟

لم ترُدَّ إيلين. ليس ثمّة ما يُقال. من دون معرفة. ليس ثمّة ما يُعرَف. ما عدا هذا الجسم المتعب، وهذا القلب الذي ينبض، الذي لم يعد يخفق

لأحد، هذا القلب النّكرة. تدور الحكاية من دون أن تكون لي حكاية. ما عادت هناك حياة. ما عاد هناك حبّ.

- بلومار محظوظ لأنّه جُرِح، قالت دينيس. مؤكّد أنّه سيتمّ نقلُه إلى «ميدي» Midi.

- من دون شكّ، قالت إيلين. عرفت بخبر إصابته من السيّدة بلومار.

اقتربا من الشبّاك؛ كان حشدٌ يتدافع وسط رائحة العرق والغبار. رفعت امرأة ترتدي السّواد، قصيرة، وبائسة المظهر، وجهاً متوسّلاً:

«أرجوكِ سيّدتي، هل تجرين لي مكالمة؟» هزّت الموظّفة كتفيها. «أرجوكِ، سيّدتي؟» كرّرت المرأة.

لمست إيلين كتفها: «أين المكالمة؟»

- إلى القرية، لأعلم زوجي.

- أيّ قرية؟

- روجيي، قالت المرأة.

- انتظري، سأرى ما يمكن فعلُه، قالت إيلين.

تصفّحت الدّليل. روجيي: «مين» و«لوار» أيّهما؟

- لا أعرف، قالت المرأة.

هناك عشرة مشتركين في روجيي. «في بوسّاد Boussade؟»

- أوه! لا هذا ليس في القرية.

- «فيلون»؟

- هل تظنّين! لا، لابدّ أنّه في الحقل الآن!

- «مرسيي»؟

- أوه! لا! قالت المرأة بفزع.

كانت ضائعة بلا أمل في هذا العالم الشّاسع. كلّنا ضائعون. هل سأعثُر على نفسي يوماً؟ فكّرت إيلين. لماذا؟ لِمَ قد أتشبّث بالأظفار

مع هذا القلب الذي يريد ألّا يريد المزيد. ألّا يعرف شيئاً. أن أكون هنا، ببساطة، مشغولة تماماً بالإصغاء إلى هذا الصّخب الهادئ للحياة التي ما تنفكّ تهرب نحو العدم.

نزلا نحو السيّارة، كان السيّد تاليي يلفّ سيجارة على غطاء المحرّك.

- لم يتمركز الرّوس، قال. والإيطاليّون أعلنوا علينا الحرب.

***

كانت الشّاحنات المكتظّة بالنّساء والأطفال والأواني تعبرُ القرية كلَّ يوم. جاؤوا من «ألونسون»، من «ليغل». ذات مساء، صرخ السّائق: «إنّهم في مون[23] Mans». تبادل سكّان البيت النّظرات. والدا دينيس، جدّتها، عمّة وزوجات إخوتها. كانت سيّارة السيّد تاليي أصغر من أن تقلّ العائلة بأكملها. ولا أحد كان مهتمّاً بإيواء اللّاجئين المنهكين الذين لا يطلبون سوى سقف لقضاء اللّيل.

- علينا أن نُعطي المثال للمتساكنين، قالت السيّدة تاليي. سنبقى هنا.

في اليوم التّالي، رحل القرويّون في السيّارات والعربات والدّراجات. والذين لم يقدروا على الرّحيل أغلقوا محالهم، منازلهم، وهرعوا للاختباء في البراري. كانت المدافع تدوّي من بعيد وكان يُسمع من حين إلى آخر صوت انفجار مكتوم: إنّها خزّانات البنزين في «أونجي» Anger.

- سننصب الخيمة في عمق المرعى الكبير، قالت السيّدة تاليي.

- لماذا؟ قالت دينيس. كانت في الحديقة مع إيلين؛ كانت تراقب مرور الشّاحنات القادمة من لافال على الطّريق المُشمسة. ثلاثون كيلومتراً. بالكاد ساعات قليلة. إنّهم بصدد إمضاء معاهدة وقف إطلاق النّار. سنكون في سلام. لن نقاتل.

- عدم الخروج أكثر أماناً، قال الهولنديّ الذي يسكن جناحاً في الحديقة هو وزوجته.

23- مون Mans: مدينة كبيرة تقع في الشرق الفرنسيّ الكبير.

ابتعدت السيّدة تاليي، كان ذراعُها مُحمّلاً بالأغطية؛ كان الهولنديّ يمشي خلفها، حاملاً بين يديه سلّة مليئة بالمؤن. اتّكأت دينيس بمرفقها على الحاجز.

– أنا متأكّدة من أنّ مارسيل مسجون، قالت بصوت مكتوم. لقد كمنوا لهم من الخلف.

– قد يكون الرّفاق قد هرّبوه في الوقت المناسب، قالت إيلين.

عضّت إيلين شفتيها: «لن أراهُ قبل سنوات!» مرّت شاحنة. شاحنة عسكريّة مزدحمة بجنود فرنسيّين يغنّون. مرّت شاحنة أخرى. كانوا يحرّكون ويلوّحون بأيديهم ضاحكين.

– يغنّون! قالت دينيس.

– انتهت الحربُ ونجوا بجلودهم، قالت إيلين.

توقّفت سيّارة؛ نزل منها أربعة ضبّاط. يشبهون الذين في پيكينيي، أنيقين، متهوّرين، بثقبين سائلين في الوجه. «هذا طريق «شولي»، أليس كذلك؟» سأل نقيب شابّ.

– نعم، قالت دينيس.

– ما يجب معرفته هو هل الألمان في أونجي نعم أم لا. رمق دينيس بنظرة تقريريّة: أين مكتب البريد؟

– سأصحبكم، قالت دينيس. دفعت الحاجز. عبرَ جنديّان بلا خوذ وبلا بنادق، يعتمد كل منهما على عصا غليظة: مساجين، هربوا من قبضة الألمان. لا أحد في الطّريق. لقد تبخّرت الحراسة من بين جنود النّخبة المعتزّين ببنادقهم وزيّهم، والذين كانوا يذرعون الطّريق جيئة وذهاباً.

كان الهاتف يرنّ في مكتب البريد. وكان المكتب مغلقاً بالمفتاح.

– أين المسؤولون؟ قال الكولونيل مغتاظاً.

– في مكان ما من الحقول، قالت دينيس.

– لا معنى لهذا! قال الكولونيل. أشار إلى النقيب: اخلعوا هذا!

دفع النّقيب الباب بكتفه بعنف.

- لا جدوى من هذا، قال، نحتاج إلى فأس.

- سأجلب واحداً، قالت دينيس.

في تلك اللّحظة، كانت الدبّابات والمدافع تعبرُ القرية.

- سيأتون؟ قالت إيلين.

- خلال ساعة. لكن لا تخافوا. لن يحدث شيء، قال النّقيب؛ ابتسم بجدّية: «سنتّجه إلى «لوار» في محاولة للقيام بعمليّة شلّ حركة».

- إليك الفأس، قالت دينيس. كسر النّقيب المزلاج. دخل الكولونيل وعاد خلال لحظة.

- هيّا! قال. اصطفّوا في اتّجاه السيّارة.

- عودوا إلى منازلكم، قال النّقيب.

- سنعود، قالت دينيس. رأت السيّارة تنعطف في اتّجاه «لوار». واصلت الدبّابات استعراضها، كانت رشّاشاتُها مصوّبة في اتّجاه الجنوب، والظّهر للعدُوّ.

- دينيس! نادت السيّدة تاليي. تعالَيْ فوراً أنتِ وإيلين!

- سأبقى في البيت، قالت دينيس. أريد أن أتفرّج.

- والدك لا يريد أحداً قرب النّافذة؛ هكذا تحصُل الحوادث، قالت السيّدة تاليي باضطراب. لبست عقد اللّؤلؤ وخواتمها وتورّم بطنُها بشكل غريب.

- لكني، لن أفتح النّوافذ، قالت دينيس؛ ضحكت... تظنّين أنّ جواهرك في الحفظ بهذا الشّكل؟

- لن يجرؤوا على انتزاعها منّي، قالت السيّدة تاليي.

صعدت إلين إلى غرفة دينيس؛ اقتربتا من النّافذة ودفعتا الجزء الخشبيّ. مرّت دبّابة تحت النّافذة. ثمّ أقفر الطّريق. انقبض قلب إيلين. بدت القرية مهملة بين فرنسا وألمانيا، بلا قادة، بلا قانون، بلا دفاع. كلّ

النّوافذ كانت مغلقة؛ في المنازل المُبيَّضة بفعل الشّمس لا توجد حياة. بدا أنّ الجميع يعيش خارج العالم؛ معلّقين، متدلّين في قلب وهم سحريّ لا بداية له ولا نهاية.

- آه! قالت دينيس. أمسكت يدَ إيلين. انفجر شيء ما في إحدى زوايا الطّريق وتطايرت الشّظايا زجاج المطعم. ثمّ خيّم الصّمتُ وفجأة صرخ صوتٌ مريض بكلمات غير مفهومة. ظهروا. كانوا كلّهم فارعي القامة بوجوه ورديّة؛ كانوا يسيرون بوقار، من دون النّظر حولهم، بخطوات قاسية كالفولاذ. منتصرين. «لقد هُزِمنا. من نحن؟» تجمّع الدّمعُ في مُقلَتَيْ دينيس. «وأنا؟» فكّرت إيلين. «لقد هزِمت فرنسا. انتصرت ألمانيا. وأنا، أين أنا؟ ما من مكان لي!» بعينين جافّتين راحت تراقب مرور الرّجال والخيول، الدبّابات، المدافع الأجنبيّة، تابعت بعينيها التّاريخ الذي هو ليس تاريخها، التّأريخ الذي لا ينتمي إلى أحد.

***

وقف الهولنديّ أمام النّساء الثّلاث اللّاتي كنّ جالسات على الرّصيف؛ أرجح دناً فارغاً كان في يده.

- ليس لدينا بنزين، قال.

هزّت الأمّ كتفيها: «بطبيعة الحال».

يقول النّاسُ إنّهم أعلنوا منذ ثمانية أيّام عن قاطرة بنزين في طريقها إلينا. لا أحد يُصدّق.

وضع الهولنديّ الدنّ: «أريد أن آكل».

- أنا أيضاً. جائعة، ـــــــــــــ جائعة، قالت المرأة الشابّة بصوت طفوليّ.

«لن يأكلوا قبل وقت طويل»، فكّرت إيلين. كانت مغازات «مان» مُجتاحة كحقل هجم عليه الجراد. لم يكن هناك قطعة خبز واحدة، ما من حبّة غلال واحدة؛ ليس ثمّة مكان في المطاعم الممتلئة بالجنود

الخضر والرّماديّين. لم تعد إيلين تشعر بالجوع؛ لم تعد بها حاجة إلى شيء؛ كان في وسعها أن تظلّ قاعدة فوق صخرة إلى ما لا نهاية، تحت شريط الظلّ الضّئيل التي بدأت الشّمسُ تفرضه على امتداد الطّريق، كان النّاسُ يتجوّلون، من ساحة المفوّضيّة حتّى السّاحة الكبيرة حيثُ تنتصب الإدارة الألمانيّة، حاملين الدّنان بين أيديهم، مرشّات فارغة؛ كانوا من وقت إلى آخر يضعون الأوانيَ على الأرض، يجلسون للرّاحة قبل أن يستأنفوا المسير؛ لاحقاً، سيشاهدون عائدين، مطرودين من الإدارة الألمانيّة إلى المفوّضيّة، بدنانهم ومرشّاتهم الفارغة بين أيديهم. من دون كلل. مثل سيزيف، مثل الملك دنايدس[24] Danaïdes. كانت الحياة تدور حول نفسها أسرع فأسرع وسط حرارة جهنّميّة، مثل دوّامة مجنونة. كانت آلاف السيّارات رابضة، محوطة بالنّساء والأطفال ذوي العيون الكئيبة، جالسين في ظلّها، على أمتعتهم، على الحشايا وعلى الأرض مباشرة. سيّارات أخرى رماديّة لامعة، وأخرى مُصفّحة تمرّ في الشّارع الكبير؛ كانت الدرّاجات تحوم حول السّاحة. كانت المقاهي غاصّة بآلاف الجنود الشّبان حتّى الأرصفة بزيّهم الموحّد الجديد؛ صفوف من الجنود يشقّون بوقع أقدام قاسٍ تجمّع النّاس المسحوق بالشّمس والجوع. كان مكبّرُ الصّوت يذيع موسيقى عسكريّة. وهذا الصّوتُ النّاري، هذا النّور الخالي من الحياة، هذا المنظر الدّاكن، كان دائماً موجوداً منذ الأزل، وإلى الأبد. أصبحت إيلين أبديّة؛ جفّ الدّم في عروقها؛ كانت هناك بلا ذكريات، بلا رغبات، إلى الأبد.

- اجلسي، قالت الأمّ. لا تظلّي هكذا تؤرجحين يديك!

ابتسم الهولنديّ. كان أشقرَ ووردياً، تقدّمت أسنانه شفته السّفليّة في ابتسامة جامدة شبيهة بطفل أو جثّة.

- احذري الشّمس، قالت المرأة الشّابّة. تقادمت قبّعتها وتغضّن

24- دنايدس Danaïdes: في الميثولوجيا الإغريقية الدنايدس هنّ بنات الملك داناووس الخمسون اللّاتي هربن معه فراراً من أبناء إخوته.

فستانها منذ الأمس. مدّت إلى زوجها كيساً مخروطيّاً كبيراً. ضع هذا على رأسِك.

أطاع بإذعان وجلس مبتسماً على مدرج السيّارة.

- الحرارة كبيرة، قال.

نظرت إليه الأمّ بغضب.

- بالأمس في «أونجي»، كان في وسعك أن تحصل على خمسة وعشرين ليتراً.

- كان الطّابور طويلاً، قال بنبرة اعتذار. ظننتُ أنّ الألمان سيزوّدوننا في الطّريق.

ظنّت إيلين أنّ الخزّان ممتلئ وهي تقبل بمكان في السيّارة. على أيّ حالٍ، لم تندم لأنّها رحلت معهم؛ أحسّت بأنّها غيرُ مرغوب فيها في هذا البيت المكتظّ، رغم طيبة دينيس.

- مازال هناك أناس أمام المفوّضيّة، قالت.

- يجب أن نذهب لنلقِيَ نظرة، قالت الأمّ.

- سيكون الحالُ مثل هذا الصّباح، قال الهولنديّ.

- لنذهب لنلقي نظرة. لن نقضّي ليلة أخرى في السيّارة، قالت المرأة.

وقفت على كعب حذائها الرّقيق (لويس XV). لحقت بها إيلين. كان مئتان أو ثلاثمئة شخص يتدافعون على القضبان، متشبّثين بدنانهم وأوانيهم الفارغة. كانت بعض النّساء يحركّن قدوراً تغلي تحت نصبٍ تقليديّ يلبسُ قبّعة كبيرة من الرّيش. فيما ينامُ آخرون على الحشايا.

- هناك عدد كبير من النّاس، قال الهولنديّ.

- صبراً، عزيزي، قالت المرأة.

مسحت أنفها بمنديل من الدانتيل:

- الرّائحة ليست جيّدة جدّاً.

التفتت إيلين إلى واحدة من النّساء:

- ماذا ننتظر تحديداً؟
- رقماً رتبيّاً. كي نحصُل على وصلِ بنزين.
- وبالوصلِ، هل سنحصُل على بنزين؟
- يوم يصلُ البنزين.

فتِحت بوّابة القضبان، وحدث التّطاحُن. وجدت إيلين نفسها مدفوعة إلى آخر ممرّ كبير. كان هناك رجلٌ يوزّع قصاصات مربّعة صغيرة يختطفها النّاس بغيرة واضحة. أخذت إيلين قصاصتها وركضت نحو الهولنديّ الذي بقيَ في الخلف.

- حصلتُ على رقم!
- يبدو أنّ هناك مستودعاً على حدود المدينة، يوزّع البنزين بخمسة ليترات، قالت الأمّ.
- نعم، قال الهولنديّ. نظر بغباء إلى الورقة الصّغيرة في كفّ يده.
- هيّا نلقي نظرة، إذًا، قالت الأمّ وهي تدفع من كتفه.
- أنا سأقوم بجولة، قالت إيلين.

اتّجهت من جهتها إلى المحطّة. خمسة ليترات من البنزين كانت كفيلة بإخراجها من تلك المدينة الحارقة والمُدَمّرة. إلى الجحيم الهولنديّون. ربّما استطاعت التسلّل إلى القطار. هناك، على الطّرف الآخر من الخطّ الحديديّ، سرير وخبز مُعَطّر وشاي ساخن. دخلت القاعة.

- متى ينطلق أوّل قطار إلى باريس؟ قالت.
- لا نقبلُ مسافرين إلى باريس، إلى «شارتر» فقط، قال الموظّف.

تردّدت إيلين. كان هناك حشد باهت ينام على الأرض، وسط الأمتعة، ينتظرون لا أحد يدري ماذا. كلّ شيء أهونُ من هذا الخنوع الأحمق.

- أعطِني تذكرة إلى «شارتر».
- هل لديكِ وثيقة تثبتُ أنّك تسكنين في شارتر؟

استدارت إيلين على عقبيها.

لماذا يطلبون منّا العودة إلى ديارنا ما داموا يمنعوننا من الحركة؟ قالت امرأة على ركبتيها طفل.

- يبدو أنّها المجاعة في باريس، قال رجل.

- وهنا؟ قالت المرأة. أم أنّهم يفضّلون أن نموت حيث نحن؟

رمقتها إيلين. بدا لها لحظة أنّها تشعُر بوزن الطّفل على ركبتيها، ونداء عينيها المليئتين باللّوم. سمعت باستغراب صوتاً من الماضي: «إنّ الآخرين موجودون، ومن العماء ألّا نراهم».

وقفت أمام المرأة.

- هل أنتِ من باريس؟ قالت.

- أنا من «سان دينيس»، قالت المرأة.

- أنا مع أناسٍ يملكون سيّارة، قالت إيلين. ربّما وجدوا البنزين قريباً، كي يستأنفوا السّفر. هل تريدين أن تذهبي معهم؟

- أذهب معهم؟ قالت المرأة غير مستوعبة تماماً ما سمعت.

- تعالَيْ معي، قالت إيلين. لا أعدُكِ بشيء. لكن هناك فرصة.

تبعتها المرأة. حظيرة للنّوم. الهواء الرّيفيّ المنعش. الحليب. البيض. غداً، باريس. «لماذا أنا بدلاً عنها؟» فكّرت إيلين. دار رأسُها بفعل الشّمس والجوع لكنّها لم تكن ترغب في الأكل والظلّ. كان ذلك غريباً. فيما مضى كانت ترغب في ذلك بشدّة.

كانت المرأتان جالستين على مُدرّج السيّارة، بشعرهما الأحمر ولباسهما الفاتح.

- لم يعد موريس، قالت الأمّ. المسكين.

- الألمان القبيحون، قالت الفتاة. إنّه خطؤهم.

رجعت إيلين إلى المرأة.

- علينا الانتظار قليلاً. استندت إلى الجدار. لم يكن انتظاراً؛ لم يكن

هناك ما يُنتَظَر. لم تعد لي حياة. فقط، مجرّد مستنقع راكد صغير يعكسُ مكر العالم.

- حصلتُ على عشرة ليترات، قال الهولنديّ.

انتفضت المرأتان.

- آه! قالت الشابّة، سيكون بإمكاننا الخروج من هنا!

- يبدو أنّه سيكون من السّهل الحصول على مؤن بعيداً عن هنا، قال الهولنديّ. رفع غطاء السيّارة واقتربت إيلين.

- هل تمانع إن تركتُ مكاني لهذه المرأة التي هناك مع طفلها؟ يمكنني أن أتصرّف لو تركت حقيبتي معك.

- تلك المرأة الشابّة؟ قال الهولنديّ بغموض. كانت المرأة بائسة وشعثاء؛ نظر إليها من دون فهم.

- نعم. سيموت صغيرها إن لم تحمله معها، قالت إيلين بنبرة تهديد.

- لكن، وأنتِ؟ قالت الأمّ الكبيرة، مستحيل أن تسع خمسة في الدّاخل.

- أعرف، قالت إيلين، قلتُ لكِ إنّي سأتصرّف.

- لتركبْ، إذًا، قال الهولنديّ.

تردّدت المرأة.

- اصعدي، قالت إيلين.

ركبت بجانب الأمّ الكبيرة التي راحت تنظر إليها بمرارة.

- ألن تأتي؟ قالت المرأة.

- لا، قالت إيلين. ابتسمت للهولنديّ: إلى اللّقاء. شكراً.

ابتعدت في اتّجاه السّاحة الكبيرة. صُفق باب السيّارة خلفها؛ اشتغل المحرّك. أوغلت في الطّرقات الكئيبة، نحو الظلّ الدّافئ ورائحة التّبن المحصود. ظلّت إيلين وحيدة وسط سحابة متوهّجة من الغبار. «هنا أفضل من أيّ مكان آخر»، فكّرَتْ بلا مبالاة.

في السّاحة، انشغل بعضُ الجنود الألمان حول شاحنة؛ نظر إليهم

اللّاجئون بوجوه مليئة بالخشية والأمل. المنتصرون. الأسياد. كانوا شباباً وغالباً على درجة من الوسامة؛ بدت أعناقُهم المفتولة من أزيائهم النّظيفة؛ مالوا على القطيع باستعلاء. مدّ أحدهم يده إلى امرأة كي تصعد سيّارة.

- أين يمضون؟ قالت إيلين.

- إلى باريس، قالت امرأة عجوز. يأخذون معهم أناسا كلّما كان هناك مكان.

امتلأت السّاحنة بالنّساء والأطفال، خلال لحظات.

- هل هناك آخرون؟

- لا أحد يعلم. علينا الانتظار.

جلست إيلين على الأرض، بين امرأة عجوز وفتاة سوداء بشعر مُشوّش.

- سأنتظر! قالت. أسندت رأسها إلى ركبتيها وأغمضت عينيها.

عندما استيقظت كانت الفتاة السّمراء إلى جانبها تقضم قطعة خبز. كانت الحرارة قد تلطّفت.

- يبدو أنّك نمتِ جيّداً! قالت الفتاة.

- أشعرُ بالنّعاس، قالت إيلين.

- ليس لديكِ ما تأكلين؟

- لا، لم أجد شيئاً.

- خذي، قالت بغرابة. قدّمت لها قطعة خبز.

- أوه! شكراً، قالت إيلين. عضّت على الخبز بنهم. كان مكثّفاً ومالحاً جدّاً. وكان تقريباً من الصّعب أكلُه.

- احذَري! قالت الشابّة السّمراء. توقّفت شاحنة في السّاحة: هيّا تعالَي جدّتي، قالت وهي تمسكُ العجوز من ذراعها؛ أشارت إلى إيلين: تعالَيْ أنتِ أيضاً. أسرعوا.

- اثنانِ فقط **Nur Zwei**، قال الألمانيّ وهو يرفع إصبعَين في الهواء.

ساعد العجوز على الصّعود. وضعت الفتاة ساقاً في السيّارة وسحبت إيلين من يدها.

- إنّها أختي، قالت للجنديّ. اركبي، إذًا. تشبّثت إيلين بالشّاحنة. ضحك الجنديّ ومدّ لها يده.

جلست إيلين في الأخير على دنّ فارغ. كانت العربة مليئة بالنّاس. كانت السيّارة مُغطّاة بأكملها بمُشمّع أخضر. أحسّت بالاختناق جرّاء رائحة البنزين والحرارة. أحسّت إيلين بالغثيان. نظرت حولها. كان من المستحيل التحرّك. اقشعرّ بدنها. تصبب جبينها عرقاً. كانت هناك امرأة تتقيّأ من الجانب الآخر، من دون اكتراث. «لا يهمّ»، فكّرت إيلين. انسحبت أكثر ما يمكنها، انحنت وتقيّأت بين الدّنين. مسحت فمها ووجهها. شعرت بالرّاحة؛ كان بين قدميها ما يوحي بأنّها عجينة بيضاء، لكنّ أحداً لا يهتمّ. «كما لو أنّنا لم نعد نخجل بأجسامنا»، فكّرت. «حتّى جسمي كأنّه لم يعد لي».

كانت الشّاحنة تقطع المسافة من دون عناء في الطّريق الذي يلوح من بعيد أنّ قذيفة قد أصابته. أثناء المسير شوهدت سيّارات مقلوبة في المنحدرات، سيّارات أخرى محروقة وقبور عليها صلبان. تابع الموكب مسيره: العربات المحمّلة بالتّبن، الدرّاجات، المشاة. تجاوزوا مدينة: كانت الأسقف محفورة بالقنابل، منزلان محترقان، امتدّت كومة مائلة من الخردوات أمام أجزاء الجدران. الهجرة، البؤس، الموت. مع ذلك كان هناك رجال شباب أقوياء يغنّون في سيّاراتهم الرّماديّة الجميلة.

«تحيّة **Heil**» صرخ أحدهم وهو يلوّح بيده. كان يرتدي الرّماديّ هو ورفاقُه وكانوا كلّهم يحملون ورداً أحمرَ على قلوبهم.

توقّفت الشّاحنة في باب باريس. قفزت إيلين؛ كانت تجد مشقّة في الوقوف على قدميها. ألفت وجهها مُلطّخا بالغبار وهي ترى نفسها في المرآة. كان شارع العسكريّة الكبير مُقفراً. كلّ المحال كانت مُقفلة.

ظلّت برهة، مُتسمّرة وسط الصّمت، ثمّ مشت في اتّجاه النّجمة[25] L'Etoile. كان كلّ شيء في مكانه: المنازل والمغازات والأشجار. لكنّ النّاس كانوا مُحطّمين: لا أحد ليفتح المحال المُغلقة، لا أحد ليتجوّل في الشّوارع، ليبني القادِمَ، ليتذكّر الماضي. وحدها نجت بمعجزة، سليمة، غريبة وسط هذا العالم المُفرَغ من الحياة. لا جسم لها ولا روح. فقط، ذاك الصّوتُ الذي يقول: «لم أعد أنا».

***

وضعت دينيس الدّفتر على ركبتيها وكتبت بخطّها الصّغير الوفير.

- أنهيتُ، قالت. نرحلُ متى شئتِ.

نهضت إيلين على مرفقها. كان الطّريق أبيَضَ لشدّة الحرارة. خمسُ ساعات. كانت الثّالثة بتوقيت فرنسا. كان الهواء سميكاً وكان السين يجري ببطء تحت السّماء الجامدة.

- لا يُصدّق أنّه الأحد، قالت إيلين. أوقفت درّاجتها الملقاة على المنحدر. لا سيّارات، ولا درّاجات ناريّة، لا عُشّاق، لا ضحكات: كان الرّيف مُقفراً. من بعيد، لاح رجال عراة الجذع برونزيّو اللّون وجالسون في الظلّ: يُعرفون بأعناقهم الحليقة. كانوا وحيدين يعيشون ذاك الأحد الفرنسيّ؛ أحد منفى. وسط الماء، تحت الشّمس السّاطعة، كان هناك شخص وحيد في زورق، يعزف الأكورديون. وقفت خطوات إيلين؛ انفجر الفضاءُ والوقتُ حولها، فجأة، قُذف بها في بعد سحريّ، في قلب حقبة، في عالم لا شيء يربطها به؛ تائهة تحت سماء غريبة، كانت تشاهد حضورها المنفيّ. «تماماً كما لو أنّي لستُ هنا، تماماً كما أنّي لستُ هنا إلّا لأقول: لستُ هنا». مالت على مقودِها. كانت الفيلات كلّها مغلَقَة؛ كانت لافتات النّزل قد بدأت تنطفئ وتتقشّر. أحياناً، خلف بوّابة مفتوحة، كانت تُشاهَدُ سيّارات رماديّة رابضة على الحصى، وصدح صوتٌ أجشّ في الحديقة.

25- النّجمة L'Etoile: ساحة في باريس كانت تُسمّى ساحة شارل ديغول.

- إيلين!

أسرعت إيلين. لحظة، وجدت متعة سحريّة في هذه المغامرة الخارقة؛ لكن في أوقات أخرى أحسّت بالخوف؛ لقد فقدت مفتاح طريق العودة. «لن أحصل على آخر!»

- هل يقدر الألمانيّ خاصّتك على شيء لمارسيل؟ قالت دينيس.

- سأحدّثه في العشاء، قالت إيلين. لديه علاقات كثيرة. على أيّ حال، يوم أجد نفسي في برلين، سأحرص على إقامة علاقات مهمّة.

- يجب أن يتدخّل الآن، قالت دينيس.

لقد سرّحوا ثلاثة أرباع المساجين في ألمانيا. نظرت إلى إيلين: ستذهبين حقّا؟

- لمَ لا؟ قالت إيلين؛ تصلّبت؛ تعرف جيّداً بما كانت دينيس تُفكّر؛ حدّقت بتحدٍّ في الأفق: «معكِ حقّ، ليس لدينا ما نصنَعُهُ معاً»

- لا فرق لديكِ إن عملتِ لمصلحتهم؟

- ما الذي قد يتغيّر؟ قالت إيلين.

- ليس هذا هو السّؤال، قالت دينيس بنوع من التّأنيب. أنا لا أفعل، احتراماً لنفسي.

- أنا أيضاً، قالت إيلين. نظرت إلى يدها على المقود. أنا. إيلين... فقد النّاسُ سيّاراتهم وخزاناتهم وكلابهم وأطفالهم على الطّريق: تاهت هي عن نفسها.

- إجمالاً، اتّخذتِ موقفاً من الوضع؟ قالت دينيس.

- أوه! لم أعتنق الفاشيّة، قالت إيلين. لكن ماذا؟ هذا موجود. وبعد ذلك سيكون هناك أشياء أخرى، وأخرى. هزّت كتفيها: إذًا، ماذا قد يغيّر ذلك؟

- ما يعنينا، هو الوقت الحاضر الذي نحن فيه، قالت دينيس.

- يعني إذا عملنا لأجل أن يعني، قالت إيلين. وتذكّرت. كان جون

يقول: «نحنُ من يقرّر». صحيح. لماذا عليّ أن أقرّر إن كان مصيري هو ما يعنيني فعلاً، أم مصير فرنسا، أم القرن الذي رميتُ فيه مصادفة؟ تجوّلت على امتداد الشّارع الممَهّد تحت الشّمس الكسولة والوحيدة، عابرة كشهاب يشقّ السّماء بلا مبالاة.

تخطّوا باب فرنسا.

- يجب أن أضع رسالتي في الصّليب الأحمر، قالت دينيس.

- سأرافقك، قالت إيلين.

كانت السّماء مُغشّاة. كانتا ترزحان تحت حرارة رطبة. كانت عشرات النّساء بنظراتهنّ الميّتة يذرعن المكان أمام باب المناوبة. سيّارات رماديّة كانت مركونة على طول الجادة. في عمق الشّارع، بدت الأوبرا، بقبّتها الخضراء كالغيمة الدّاكنة، معلَماً شعبيّاً، شاهداً على زمن الثّورة.

ألقت الموظّفة نظرة على الظّرف ودفعت به ثانية إلى دينيس:

- لم نعد نقبل مراسلات نحو «باكارا»[26] Baccarat، قالت، لقد انتقل المعسكر إلى ألمانيا.

- «باكارا» أيضاً! قالت دينيس.

- نعم، سيّدتي، باكارا أيضاً، قالت الموظّفة بنوع من نفاد الصّبر. أخذت إيلين دينيس من ذراعها وأخرجتها. بدت دينيس شاحبة كأنّها توشك على الإغماء.

- يعرفون كلّ المعلومات الجديدة، عادة، قالت إيلين.

- ألمانيا! قالت دينيس.

تصلّبت حنجرة إيلين؛ عرفت الظلّ المقيت للشرّ في الحرارة الرّماديّة لنهاية الأحد وعلى وجه دينيس.

- عُدنا للتوّ من ألمانيا، قالت. سنجد سبيلاً. تنفسّت بعمق. لحسن الحظّ، لم تكن مأساتها؛ بالنّسبة إليها، لقد حسمت: لا حبّ، لا حياة، لا مآسي.

26- باكارا Baccarat: ماركة عالميّة مشهورة في صنع البلّور.

– تخيّلي ذلك التّرحيل، قالت دينيس. انقطع صوتُها.

– أنا على يقين أنّ مارسيل سيعمل ما في وسعه كي لا يكون حزيناً، قالت إيلين.

– هو، ربّما، قالت دينيس. أفلتت ذراعها من يد إيلين: عفواً. أحتاج إلى أن أبقى وحدي.

– أفهم، قالت إيلين. ضغطت على يد دينيس: سأهاتفك غداً كي أطلعك على إجابة «برغمان».

– شكرا. اتّصلي، قالت دينيس.

ابتسمت لها إيلين وركبت درّاجتها. أن يتعذّب المرء لأجل شخص آخر: يا لها من خدعة! لا يكترثون، إنّهم يضعون قلوبهم في مطبخهم الخاص الصّغير. انتهى. انتهى حقّاً. تجاوزت شارع «سان جرمان». مرّت شاحنات مصفّحة مُصدرة ضجيجاً، تبعتها دبّابات انقضاض يظهر منها جنود يلبسون قبّعات عسكريّة واسعة ترفرف في الرّيح. كانوا مبتسمين. في كامل شبابهم المرح وهم يحتفلون بنصرهم. النّصر. الهزيمة. لقد خسِرَ حربَه. ضغطت أكثر على المقود. ليس هناك لا نصرٌ ولا هزيمة؛ ليس ثمّة ما هو لكَ وما هو لي: إنّها، فقط، إحدى فترات التّاريخ.

توقّفت إيلين أمام معمل المرطّبات، ركنت درّاجتها وصعدت إلى غرفتها. لبست الفستان الجميل الذي رسمت بنفسها على قماشه. كان في الخزانة معطف جديد يتدلّى من المشجب بجانب بدلة رياضيّة جميلة.

الحريف الألمانيّ يدفعُ جيّداً.

– مساء الخير أمّي، مساء الخير أبي.

– مساء الخير، قالت السيّدة برتران ببرود؛ لم يرفع السيّد برتران عينيه عن الجريدة. كانا متحمّسين للوضع المشرق الذي يُعرَضُ على ابنتهما، لكنّهما يوبّخانها على تعاونها مع المُحتَلّ. فتحت إيلين باب المعمَل وصلصلت السّلاسل المعدنيّة المتدلّية من الباب بمرح.

كما في الماضي، عندما كانت تلتقي پول، أو جون؛ ودّت لو أمكنها اقتلاعها.

عبرت الدرّاجة شارع سان ميشال مسرعة. كانت متّسخة وصدئة؛ اختفى اللون الأخضر والأزرق تحت الطّلاء الأسود؛ لكنّها لا تزال آلة جميلة. «سأذهب إلى هناك»، فكّرت إيلين. أمسكت الفرامل؛ كان هناك أسفل الشّارع تجمّع أمام سياج خشبيّ. قفزت على الأرض. كانت هناك لافتة صفراء مُلصقة على اللّوح: «روبير جارديي، مهندس في لوريون، حُكم بالإعدام لأعمال عرقلة؛ رُميَ بالرّصاص هذا الصّباح». ظلّ النّاسُ مذهولين أمام قطعة الورق تلك. رُميَ بالرّصاص. كانت تلك الحروف السّميكة الموزّعة على الورقة الصّفراء، فاتنة. رُمِيَ بالرّصاص. ابتعدت إيلين، فجأة: «إذًا! يجب أن نمرّ بهذا»، فكّرت. راحت تدوسُ بسُخط. «لا قيمة لكلّ هذا. لا شيء مهمّ. لا شيء!»

دفعت باب المطعم؛ كان بين الأواني النّحاسيّة وقلائد البصل، عدد مبالغ فيه من السّجق والجمبون المُتدلّي من عارضة في السّقف؛ كان في كلّ ناحية من الممرّ طاولات منصوبة. نهض «هير برغمان»، صفّق بقدمه وانحنى ليُقبّل يد إيلين.

– تماماً، مثل رجل، قال مبتسماً.

كان يرتدي بدلة داكنة أنيقة، بياقة قاسية؛ بدا وجهه أليفاً ومهيباً تحت شعره الكستنائيّ. قام بإشارة؛ قام رئيس الخدم بمئزره الرّيفيّ الغريب بإشارة بدوره إلى نادل.

– طبقنا المخصوص، قال عندما همّ النّادل بوضع طبق من الخبز واللّحم والجمبون والسّجق.

– أظنّ أنّ النّاس يأكلون جيّداً هنا، قال هير برغمان.

– يُقال، قالت إيلين. أخذت الكثير أمامها. كان في الطّاولة المجاورة امرأة محتقنة، تلبس صدريّة من السّاتان، وتلتهم شريحة مشويّة بشراهة؛

كان أغلب الزّبائن من الضبّاط الألمان الذين كانوا يتناولون العشاء فيما بينهم أو مع سيّدات شابّات في غاية الأناقة؛ وكانت بعض المحال مُقفلة بمشابك حديديّة سميكة وحمراء.

– تحدّثتُ طويلاً مع السيّد كراندجوان، قال هير برغمان. لقد اتّفقنا في النّهاية: ثمّ إنّك غير مرتبطة بأيّ عقد.

– لا. لكنّي تعلمتُ عندها. ليس لائقاً أن أتركها الآن.

– كان عليها أن تجعلكِ شريكة، قال هير برغمان. مازالت تعاملك مثل عاملة عاديّة، إنّه الاستغلال بعينِه.

– اقترحت عليَّ فيما مضى تسيير نقطة بيع للحلويّات في أمريكا، قالت إيلين. لكنّي رفضتُ.

– لماذا رفضتِ؟

– في ذلك الوقت، كنتُ أريد البقاء في باريس.

– لن تندمي، قال هير برغمان. لا مستقبلَ لديكِ في فرنسا. قريباً ستختفي «ليون». نحنُ أسياد الحرير.

كان يتحدّث برضا يتناهى إليها ما يشبهه من الطّاولات المجاورة.

– انتظر قليلاً، قالت إيلين وهي تضحك. لم ينتهِ كلُّ شيء.

– لا. لقد بدأ كلُّ شيء، قال هير برغمان. صبّ لإيلين كأس «بوردو» مُحلّى بالسُكّر: فرنسا وألمانيا متّفقتان. انظري، أنا وأنتِ كم سيكون تعاوننا مثمراً. أنا آتيكِ بالقماش وأنت تحملين إليَّ ما اختصّت به بلادُك: الذّوق الفرنسيّ، أضاف مادحاً.

– نعم، قالت إيلين.

– الأوراق نظاميّة، أضاف هير برغمان. لقد حجزتُ أماكن لنا ليوم الإثنين.

– الإثنين... قالت إيلين.

– وددتُ لو أنّي بقيتُ أكثر. تردّد: باريس ليست أكثر حزناً ممّا هي عليه الآن. لم تعد عاصمة، إنّها حامية.

– تأتي دائماً إلى باريس؟

– أقمتُ سنة قرب متنزّه مونسو، قال هير برغمان. أخرج للنّزهة في الصّباح، كنتُ أشاهد الأطفال يلعبون.

– أفضّلُ اللكسمبورغ، قالت إيلين.

– اللكسمبورغ أيضاً، قال. الحيّ اللّاتيني. الممشى بمحاذاة السّين. كنتُ آكل الحساء بالبصل في الأسواق، عند الخامسة صباحاً بصحبة رفاقي الفرنسيّين. تنهّد. كان هذا المطعم مُهمّاً: يعجّ بوجوه فرنسيّة صرفة. الآن، في مونمارتر ومونبارناس لم تعد تُسمع سوى اللّغة الألمانيّة. ملأ كأس إيلين بالشمبانيا: ربّما من الأجدر العودة لاحقاً.

– لن يولد الماضي ثانية، قالت إيلين.

– لا. لكن سيكون هناك أشياء أخرى. أليس لديكِ فضول لرؤية أوروبا الجديدة؟

– بلى، لديّ فضول، قالت إيلين. أحبّ التّجديد. ابتسمت له. لن يولد الماضي من جديد، لقد انتهى الأمر؛ شردَت. لن يكون هناك عشاء في الـ «پور سالي»، لن يعود هناك ضحك في الثّلج ولا دموع في الأصيل الدّافئ المُعطّر بالبنفسج. مُستقبل واحد للجميع: سيتشابه الألمان والفرنسيّون والرّجال والنّساء. لن يكون لكلّ منهم وجه مميّز، نظرة يتفرّد بها. كان هذا الرّجل رجلاً بيدين وقلبٍ ورأس، مثل جون تماماً.

– أريد أن أطلب منك خدمة، قالت إيلين.

– بكلّ سرور.

– هل ثمّة طريقة لتهريب سجين أرسلوه إلى ألمانيا؟ إنّه زوج صديقتي المُقرّبة.

– لديّ أصدقاء في السّفارة، قال هير برغمان. أعطني الاسم والعنوان

وسأرى ماذا بإمكاني أن أفعل. تردّد: وإن كنتُ لا أظنّ أنّ هذا سيكون مجدياً، قال.

انقبض قلبُ إيلين. كم من الوقت سيكون على مارسيل أن يقضّي هناك؟ أربعة أعوام؟ خمسة؟

– مؤسف أمر السّجناء، قال هير برغمان. ستكون الصّداقة بيننا أسهل لو استطعتُ أن أساعده.

قرّب من فمه شريحة بقر كبيرة، كان يأكُلُ بسرعة. نظرت إيلين بنوع من الحذر إلى يديه الأنيقتين، الخاتم الكبير الذي يزيّن أصابعه البيضاء. لن يكون في وسعنا أن نعيدهم إليكم. كان يكذب؛ كانت تكذب على نفسها؛ كلاهما يعرف ذلك؛ لم تجمع بين ماضيهما دقيقة واحدة.

– يمكنك لو أردتَ، قالت.

– ليس الفرنسيّون جميعهم أصدقاء جديرين بالثّقة، قال بأدب. ماذا تعتقدين؟ إنّها ضرورة التّاريخ.

وضعت إيلين شوكتها فوق صحنها. لم تعد تشعر بالجوع. رمقت الضبّاط ذوي النظّارات يلتهمون كمّاً هائلاً من الطّعام الفرنسيّ. في حين كان السيّد برتران يُسخّن طبق كرّاث، وكانت دينيس تقشّر حبّة بطاطا مطبوخة. بقيَ مارسيل من دون طعام مدّة ثمانية أيّام. وغداً، لن يكون لإيفون اليهوديّة عمل، ثمّ لن يكون لها بيت. إنّها، من دون شكّ، ضرورة التّاريخ. لكن أنا؟ لِمَ أنا هنا؟

ناولها هير برغمان القائمة: جبن؟ فاكهة؟

– شكراً، لا أريد شيئاً، قالت.

– نبيذ؟

– لا، شكراً.

طلب هير برغمان فراولة بالقشدة؛ سحق الفراولة في الكريم بملعقته.

– هل تعرفين مكاناً لطيفاً لبقيّة الأمسية؟ قال. علبة فرنسيّة بحقّ، لا تكون مفتوحة للسياح، أضاف بنوع من الشّراكة.

– لا أعرف الكثير، قالت إيلين؛ قامت بمجهود: حدّثوني عن مكان في الحيّ اللّاتيني حيثُ يمكننا أن نرقص.

– إذًا! لنذهب، قال. لديّ سيّارتي.

– وماذا نصنعُ بدرّاجتي؟ قالت إيلين.

– لا تقلقي، قال. الأمر بسيط للغاية. سأطلُب أن تُنقَل إلى بيتِك. إنّهم جميعاً يعملون على إرضائك هنا.

تناولت إيلين علبة البودرة من حقيبتها. الأمر في غاية البساطة، طبعاً، كلّ شيء يبدو لهم سهلاً. تحدّث مع رئيس الخدم بتأنّ وبدقّة ثمّ أخرج من حافظة أوراقه أوراقاً نقديّة. انحنى رئيس الخدم وابتسم. ابتسم، ابتسم. الذين لا يبتسمون يُطلَق عليهم الرّصاص. لقد رُمِيَ بالرّصاص في الصّباح الباكر، وحيداً، من دون ابتسامة. ضرورة التّاريخ: لكن من يقرّر ما إذا كنتُ سأستمرّ في الابتسام أم أنّي سأحجم عنه نهائيّاً؟

ركبت السيّارة. كان النّهارُ لا يزالُ مضيئاً.

– أين يجب أن نتوقّف؟

– في ساحة ميديسيس. إنّها في شارع صغير في الجوار. كانت السّاحة ميديسيس هادئة حتّى أنّه بالإمكان سماع الضجّة في شرفات المقاهي الكبيرة. كان كلّ شيء في مكانه: الحوض، أشجار الكستناء، مصباح الشّارع الذي كان الرّجل ينظّفه بعناية عند صباح العاشر من يونيو. يذهب في الظنّ أنّ كلّ شيء تغيّر، المنازل والوجوه، حتّى لون الأرضيّات. لكن لم يكن يخيّم سوى ذلك الصّمت، الصّفاء اللّافت للسّماء وحول إيلين وهذا الرّجل المحترم والذوّاق.

– هنا، قالت. دفعت الباب. دخلا إلى قاعة صغيرة جدّا مُبطّنة بالأحمر ومزيّنة بالنّباتات الخضراء. كان العازفون على منصّة، معلّقين بين السّماء والأرض. وكان هناك أزواج يرقصون.

– أرأيتَ، ليس هناك الكثير من حاملي الزيّ العسكريّ، قالت إيلين.

جلسا وطلب هير برغمان الشّمبانيا. التفت حوله متأمّلا:

- مكان جميل، قال. لكن ينقصُه القليل من... كيف تقولون هذا؟ نحنُ نقول «Stimmung»

- الحرب، قالت إيلين.

- نعم، بالتّأكيد، قال هير برغمان وأومأ برأسه:

- تأذّيتِ كثيراً!

- هل برلين أكثر بهجة؟ قالت إيلين.

- ستريْنَ برلين، إنّها مدينة جميلة أيضاً، قال هير برغمان.

تابعت إيلين بعينيها الأزواج الذين كانوا يرقصون وثقُلَ قلبُها فجأة. كان العازفون يعزفون لحناً من ألحان ما قبل الحرب، واستيقظ فيها شيء ما: كان عذباً ودافئاً، وفجأة يمزّقُك بألف شفرة حادّة. الأيّامُ الأخيرة. الأمسياتُ الأخيرة. بعد ثمانية أيّام سيتكلّم النّاسُ من حولي لغة أخرى.

- لم أسافر أبداً، قالت.

- آه! الآن، فقط، ستصبحين أوروبيّة، قال هير برغمان.

اقتربت من الطّاولة امرأة شابّة ترتدي فستاناً أسودَ مرصّعاً بعقد برتقاليّة وتحمل في يدها سلّة: «شوكولاتة؟ سجائر؟»

- علبة شوكولاتة، قال هير برغمان.

صعد الدّم إلى خدَّيْ إيلين؛ تعرف تلك العلب المزيّنة بالشّرائط؛ كانت امرأة شابّة شقراء، تشبه هذه، تشتري من السيّدة برتران كلّ أسبوع: «أعيد بيعها بأربع مئة فرنك للألمانيّين»، كانت تقول وهي تضحك.

- لا، قالت إيلين.

- اسمحي لي، قال هير برغمان.

- لا، لم أعد أرغب، قالت بعنف، أضافت: أكره الشوكولاتة.

- سجائر؟

- لا أدخّن. أرجوكَ، لا أريد شيئاً.

نظرت إليه بسخرية. لا شيء غير الحريّة لمارسيل، والأمن لإيفون؛ لا شيء عدا حياة روبير جارديي، المهندس الذي رُميَ بالرّصاص هذا الصّباح. ابتعدت المرأة الشابّة. خيّم صمت كالصّقيع.

– هل تسمحين بهذه الرّقصة؟ قال هير برغمان.

– بكلّ سرور، قالت إيلين. نهضت. أخذني من ذراعي وبدأنا الرّقص، كانت الأعلام تخفق تحت السّماء الزّرقاء، كان واقفاً على المصطبة؛ كان يتحدّث، وكان الجميع يغنّون. إنّه لي، فكّرت بقلق، إنّه ماضِيَّ. سأحمله معي إلى برلين. سأذهب إلى برلين يرافقني ماضِيَّ. كان هير برغمان يمسك بها بقوّة. كان يرقص جيّداً، لكن بحذر. انسجمت خطواتهما، لكنّ كلّ جسم ظلّ وحيداً. فكّرت: «أنا بين ذراعيه». ألقت نظرة على المرآة. بين ذراعيه. إنّها أنا فعلاً. نظرت إلى نفسها. ورأتها دينيس. ورآها مارسيل ورأتها إيفون ورآها جون.

أنا من كانوا يرون.

– اعذُرني، قالت. انسحبت والتحقت بالطّاولة.

– ماذا هناك؟ قال هير برغمان بنبرة أبويّة؛ أضاف مبتسماً: ألهذا الحدّ لا أجيد الرّقص؟

– لا. أنا متعبة جدّاً. جلست ولم تحاول الابتسام. لم تعد ترغب في الابتسام. إنّهم يرونني، إنّهم موجودون. جون موجود. أسندت رأسها إلى يديها. كلّ هذا لأنّي لا أريد أن أتعذّب: كذَّبتُ؛ أنا موجودة. كنتُ دائماً موجودة. أنا من ستذهب إلى برلين مصحوبة بماضيها؛ أنا من أخذ بين ذراعيه. إنّها حياتي التي أعيشها.

– خذي القليل من الشّمبانيا، قال هير برغمان بنوع من الرّعاية.

– شكراً. احتست رشفة لاذعة. «لقد كذبتُ لأنسى، لأنتقم. اخترتُ أن أكذب، اخترتُ أن أكون هنا، بجانب هذا الرّجل». ألف خنجر طعنت قلبها في آن واحد: «أنا موجودة، ولقد خسرتُ جون إلى الأبد».

– هل تشعرين بتحسّن؟

– نعم، قالت. تذكّرت معاناة قلبها الطّويلة؛ استعادت نبض قلبها وطعم لعابها في فمها. إنّها أنا. إنّها أنا حقّاً. هزيمتنا. نصرهم. مساجيننا. نظرت إلى هير برغمان:

– لا أظنّ أنّي سأذهب إلى برلين، قالت.

XI

قتلتُك لأجل لا شيء، لأنّ موتك لم يكن ضرورياً: كان بإمكاني أن أذهب بنفسي، أو أن أرسل جان أو كلير؛ لماذا جان؟ لماذا كلير؟ لماذا أنت؟ كيف أجرؤ على أن أختار؟ أذكُر، كان يقول: يجب أن نتحرّك لأجل ما نريد. كان يقول ذلك. كان ذلك بالأمس. لم أعد قادراً على قول أيّ شيء. لا: معهُ حقّ، لا: لقد أخطأ. لكن بما أنّي لم أعد قادراً على قول أيّ شيء، يجب أن يخرس هذا الصّوت. يجب أن تخرس حياتي.

يتكلّم الصّوتُ ويجري التّاريخ. تاريخي. وأنت، صمتٌ، عيناك مغمضتان. سيلوح الفجر عمّا قريب. ستصمتُ أنت إلى الأبد وسأتكلّم أنا بصوت عالٍ. سأقول للورون: «هيّا، أو لن نذهب».

لن أتكلّم.

تكلّم. كان يعلمُ ما يريد، وكان يتكلّم وهو يجوب الشّوارع المقفرة، تكلّم في غرفته، كان يتكلّم في نواحي باريس، وأيّام الأحد، كان يتكلّم في ضيع مورفان، في ضيع النورمندي والبروطانيْ مع القرويّين الذين طمروا أسلحتهم. استمع إليه القرويّون والعمّالُ والبورجوازيّون. سُمع في بريطانيا وأحياناً كان الرّاديو يجيبُه: «سيزهر الخشخاشُ فوق القبور». في حقول النورمندي والبروطانيْ، كانت الطّائرات تنزّل الرشّاشات والقنابل اليدويّة.

– ستبدأ بجدّية.

أجّر منزلاً معزولاً في الضّاحية ووافق السيّد بلومار على تزويدهم بآلة

طابعة. مطبعة. ترسانة. سنخرج لجلب الأسلحة من الشّاحنة. وسيبدأ كلّ شيء. شيء ما سيحدُث بفضلي، لا رغماً عنّي: لأنّي أريده.

ارتجف. سُمِع طرقٌ على الباب.

لم أتعرّف عليه للوهلة الأولى. كان رأسُه حليقاً وكان لديه لحية.

- مارسيل!

- آه! نعم! مارسيل. ضحك.

- كيف جئت؟ هل هربت؟

- ألا يمكنك أن تتخيّل أنّهم منحوني سماحاً بالعبور، قال مارسيل. دخل غرفتي ونظر حولَه برضا.

- إيه! مازلت تحتفظ بلوحات لي، قال، تفحّص اللّوحات لحظة بصمت.

أمسكتُ كتفه:

- لا أصدّق أنّك هنا، قلت.

- إنّه أنا، قال.

أخرجتُ من الخزانة قطعة خبز وزبدة.

- أنت جائع، من دون شكّ؟

- أريد أن آكُل، قال مارسيل. جلسَ: هل صحيح أنّها المجاعة في باريس؟

- ليس بعد، قلت. وضعتُ على النّار قِدرَ بطاطا. كان مارسيل هنا، برأسه الكبير ويديه المُربّعتين البدينتين، وضحكته الغامضة لآكلي لحوم البشر؛ لقد ملأ غرفتي. كنتُ سعيداً بالكامل.

- اعتقدنا أنّك في الطّريق إلى ألمانيا!

- أوه! أرادوا تهجيري إلى هناك، قال مارسيل.

- أتجدُ صعوبة في النّسيان؟ كان ذلك شاقّاً؟

- لا. أحبّ أن أمشي، قال مارسيل. مسح الزّبدة على الخبز. رفع رأسه:

- ارو لي. كيف الحالُ هنا؟

هززتُ كتِفَيَّ.

- الألمان يتنزّهون في الشّوارع؟ قال. تركبون معهم المترو؟ يسألونكم عن الوجهة وترشدونهم؟

- نعم، قلت. هكذا. لكن، ربّما، لن يكون هذا هو الحال دائماً.

رحتُ أروي. كان يسمعني وهو يأكل.

- إذًا، أنت على رأس حركة إرهابيّة، قال. ضحك: فعلاً، لا يجب أن نيأس من أحد.

- وجدنا التّعاطف والسّند بشكل غير متوقّع، قلت. هل كنتَ تتخيّل أنّي سأتصالح مع أبي؟ البورجوازيّة الوطنيّة تمدّ لنا يدها.

- جيّد، قال مارسيل. كان لا يزال يأكل. كان يشبه نفسه رغم اللّحية والجمجمة البائسة.

- ماذا تنوي أن تفعل أنت؟ قلت. سأعطيك عنوان أحد الأصدقاء قرب «مونتسو-لي-مين».

- هل عَلَيّ أن أنتقل إلى هناك، قال مارسيل.

- إن كان ذلك سيضمن لك وضعاً نظاميّاً، فلِمَ لا!

- موافق، قال مارسيل.

- ماذا بعد؟ قلت. ستستأنف الشّطرنج؟

- لعبتُ كثيراً في المعسكر؛ في الأخير لعبتُ سبعَ جولات بعينين مغمضتين.

- كيف كان الجوّ هناك؟

- الهدوء! سحب مارسيل غليونه من فمه: هل لديك تبغ؟ قدّمتُ له علبتي. تناولها بإعجاب.

- كلّ هذا التّبغ؟

- أليس لديك؟

- ليس دائماً. حشا غليونه: هل لديكَ وظيفة لي؟

- تريد أن تعملَ معنا؟ قلت.

- هذا يتوقّف على العمل. لا أريد أن أكتب ولا أن أخطب.

- لا يمكنني أن أوكل إليك مهمّة إلقاء القنابل، ولا أن تشعل المستودعات. ستفجّر نفسك في اليوم الأوّل.

- صحيح، قال مارسيل بأسف. تـردّدتُ. كان هناك خدمة في استطاعته أن يسديها.

- تريد أن تشارك حقّاً؟

- يدهشك هذا؟ قال مارسيل. أتظنّ أنّه في وسعنا لعب الشّطرنج تحت كلّ الأنظمة؟

- فيما يخصّك، لا يصدمني حيادُك السّياسي. راهنتَ دائماً على الإنسانيّ.

- وخسرتُ، قال مارسيل.

ساد صمت.

- لديَّ ما أعرضُه عليك، قلت.

- قُل.

- حسناً! المنزل الذي سنخفي فيه المطبعة والأسلحة، غير مسكون. نريد أحداً لا علاقة له بنشاطنا. أنتَ متزوّج، وهذا أفضل. لن نطلب منك أكثر من أن تقضّي يومك في الرّسم والنّحت.

- أين منزلكم؟ قال مارسيل.

- في «ميدون»[27] Meudon.

- ميدون، قال بخيبة. في النّهاية، لا يجب أن أملِيَ شروطاً.

- فقط، ليكن في علمِكَ، قلت. أنتَ تخاطرُ بحياتك وحياة دينيس.

ابتسم:

27- ميدون Meudon: مدينة تقع على تخوم نهر السين.

- ستُسَرُّ دينيس كثيراً.

- أنت متأكّد من أنّك لا تفعلُ هذا كي تُسدِيَ لي خدمة؟

- ماذا يغيِّرُ بالنّسبة إليك؟ قال مارسيل. ضحك: عليك ألا تفكّر سوى في قضيّتك.

- لا. قلت. شيء ما يطفو على سطح ذاكرتي. مع أنّي ظننت أنّي خنقتُ ذلك الصّوت.

جاك أوّلاً ... «لا يمكنني أن أستعملك كأيّ وسيلة».

- ليس لديك بعدُ معدنُ القادة، قال مارسيل.

- ربّما، قلت. لم أبتسم. ونظر إليَّ بعُمق.

- لا تزالُ مُغرماً بالافتراض. هل تظنّ حقّاً أنّ في وسعك استعمالي؟ أنا أفعلُ ما أرغبُ فيه.

- كما تشاء.

ظلّ قلبي منقبضاً. لماذا هو؟ أن نعرف ما نريد وأن نفعله. يبدو هذا بسيطاً. أريد أسلحة، منزلاً لإخفاء الأسلحة، مقيماً في المنزل. لكنّي لم أكن أرغب في أن يكون مارسيل هو من يُسَلّط عليه هذا الخطر. من أيضاً؟ *لماذا لا يكون «ڤينيون» بدلاً عنه؟* الهدف يتوهّج؛ لكنّه لا يضيء الطّريق المشكوك في أمره. *كلّ الوسائل سيّئة. لماذا أنتَ؟*

وصل بي إلى هنا. أنتَ هناك، تموتُ وأنا أراقب. اضطربتْ، غمغمت «روث! روث!» من كانت تنادي؟ من هي، إذًا؟ لم أعد أعرف. الحكاية تجري بسرعة في الوقت الحاضر، كما لو أنّي في قاع الماء، وأنّه لم يعد لي سوى ثوان من النَّفَس. في قاع الماء. في قاع اليأس. شاحنات تجوب الطّرقات. بل ثمّة شاحنة دخلت باريس محمّلة بصناديق ثقيلة؛ كان السّائق يظنّ أنّه ينقل الزّبدة والجمبون، دفعوا له بسخاء. في «ميدون» أُنزِلَ الأثاثُ والحشايا وأكوام الملابس؛ أنزلوا الصّناديق. كان لورون في قميص رغم البرد؛ ألصق العرقُ بقع غبار على وجهه. نزل السُلّم المفضي إلى القبو تحت ثقل البارود، وكان يضحك. وها أنذا في الصّالون حيثُ

فرشت دينيس السجّاد ورتّبت الأثاث، كان الموقد ينفُخ، ولفتُّ انتباه لورون كي يرى خيطاً أحمر يتماوج فوق باريس.

- أترى: المنعطف الأوّل على اليمين؛ الثاني على اليسار ثمّ نواصل مع الشّارع.

- حسناً، قال. فهمتُ.

- هل الخريطة في رأسك؟

- يمكنني أن أرسُمها عن ظهر قلب.

جعّدت الورقة وألقيتُ بها في الموقد. كان مارسيل جالساً أمام رقعة شطرنج، يتأمّل.

كانت دينيس تروح وتجيء في الغرفة.

- سيسعدني أن أبدأ بـ «الغستاپو[28]» Gestapo، قال لورون.

نظرتُ إلى شعره الأجعد، عينيه الزّرقاوين، فمه القاسي؛ لم أتفحّص ملامحه من قبل. لم يكن يشبه جاك؛ إنّما لديه نفس لون الدّم.

- أفرغت جيوبك؟

- لا تخف. أخرج من جيبه هويّة مزوّرة، تأمّلها بإعجاب: إنّها جيّدة للغاية. قُل: هل لدينا أخبارٌ عن پيريي؟

- لا، لا شيء. مازال سرُّه لم يُكتَشف. سنحاول مُجاوزَتَهُ الحدود أثناء نقله إلى المعسكر.

- يبدو أنّهم قد وجدوا «سنجر» مُعلّقاً في زنزانته.

- محتمل.

نظرتُ إلى السّاعة الحائطيّة. الخامسة، مازال الوقتُ مُبكّراً. نهضتُ واقتربتُ من مارسيل.

- إذًا؟ يدافع الملك عن نفسه جيّداً؟

رفع رأسَه:

28- الغستابو Gestapo: البوليس السرّي الألمانيّ.

– من دون قلب، قال. لا يمكن أن نقوم بعملين في آن واحد.

– أنا سعيد لأنّك عدتَ للرّسم.

– أنا أيضاً. ابتسم لي. فهم أنّي أرغب في التحدّث إليه، أن أتحدّث عن شيء آخر: كنتُ غبيّاً.

– ألا يبدو لك غريباً أن يرسُم المرء؟

– لا، قال مارسيل. فهمتُ في المعسكر. طُلب منّي لوحات جداريّة لزخرفة قاعة المطالعة: لو رأيتَ العيون التي فُتِحت. رائع، كان إعجاباً صادقاً.

قلب ذلك أفكاري.

– فكّرتُ دائماً أنّ ما ينقُصُك، أوّلاً، هو جمهور، قلت.

– أنت تفترض مرّة أخرى، قال مارسيل. أريد للوحتي أن توجِد نفسها بنفسها، من دون حاجة إلى أحد. في الحقيقة، الآخرون هم من يوجدونها. هذا رائع، على العكس. لأنّي أنا من حملهم على أن يوجدوها. ابتسم بغموض وبنوع من القسوة: فهمت؟ هم أحرار، وأنا أغتصب حرّيتهم: أغتصبها تاركاً لهم الحرّية. هذا أهمّ بكثير من ابتكار الأشياء.

– نعم. تفحّصتُه بفضول: لأجل هذا أنت تنشغل بما يحدث حولَك؟

– طبعا، أريد أن أختار جمهوري.

وضعتُ يدي على كتفه. كلّ شيء جيّد من جهته. لكنّي لم أكن يوماً قلقاً من ناحيته. كنتُ متأكّداً من أنّه لا يقوم إلا بما يجب القيام به. نظرتُ إلى دينيس.

– أما زال الأصلعُ يحوم في هذه النّاحية؟

– لم أرهُ منذ ثلاثة أيّام. ابتسمتْ: لابدّ أنّي أحلُم؛ إنّه لا يهتمّ بنا بتاتاً. ما من سبب يجعل أحدهم يهتمّ بنا.

– بالتّأكيد.

كانت تتحدّث بعقلانيّة، وكانت عيناها متغضّنتين. كانت ترى كوابيس

في اللّيل كما في النّهار، ومن خلال قضبان الحديقة كانت تراقب. أعرف أنّها لن تتراجع، أنّها لن تخون. وأنّها ستكون في مستوى كلّ المهمّات. لكنّها لم تختَر أن تموت؛ فقط، اختارت نمطاً آخر من الحياة. أحسّت بالخوف. وفي وسع الموت أن يأتي، موت لن يكون سوى حادث أحمق كالحبل الذي ينقطع، الكهرباء التي تصعق. «جميلٌ جدّاً أن تترك النّاس أحراراً». أين حرّيتها؟

- المزيد من القهوة السّاخنة؟ سألت.

- أريد.

ملأت أكوابنا. العاشرة وعشرون دقيقة. كان لورون يشرب قهوته بتلذّذ. كان هادئاً. لقد قبل أن يموت برحابة صدر، لكنّه مقتنع بأنّه لن يموت ما دام يعمل معي. هل خططّتُ لكلّ شيء؟ *تثبّتُ من صمّام الإغلاق، فكّرتُ في كلّ شيء.* وضعتُ فنجاني.

- هيّا! قلت.

نظرت إليَّ دينيس بذهول.

- كيف؟ ألن تذهب مع لورون؟

- طبعاً سأفعل.

- لكن، لا ينبغي، قالت. ماذا يحلُّ بالحركة لو أصابك مكروه؟

- أعلم. الكرام يموتون على أسرّتهم. ليس لي روح جنرال.

- يجب أن تحصل على واحدة، قالت دينيس. أنتَ تعلم أنّ أحداً ليس بوسعه أن يشغل مكانك.

- تريدين أن أرسل الرّفاق ليقامروا بحياتهم وأظلّ أنا هنا أحتسي قهوتي؟ لن أتحمّل نفسي.

رمقتني دينيس بنظرة تأنيب.

- أنت مهتمّ بنفسك كثيراً، قالت.

نهشتني تلك الكلمة. معها حقّ. ربّما لأنّي بورجوازيّ، يجب أن أعتني بنفسي دائماً.

- هواجسكَ الشّخصيّة لا تهمّنا، تابعت بقسوة. منحناك الثّقة كقائد يفكّر في حزبه قبل كلّ شيء: ليس من حقّك أن تخوننا.

نظرتُ إلى لورون؛ كان يسمع من دون اكتراث: كلّ ما أقوم به جيّد. حوّلتُ نظري ناحية مارسيل:

- ما رأيُك؟

ضحك:

- مثلكَ أنتَ.

- نعم، قلت لدينيس. معكِ حقّ. لن أعيدها. لكن هذه المرّة سأرافق لورون: يجب أن نكون اثنين. لا أريد أن أؤجّل الرّحلة. نهضتُ: ثمّ، أريد، مرّة واحدة، أن أرى بعينَيَّ ما يحدث.

- سأطرح السّؤال أمام النّقابة، أعرف قرارهم مُسبَقاً.

- حسناً، قلت.

خرجنا. انزلقت دراجتانا في اللّيل، وهما تدفعان أمامهما حزمَتين من الضّوء. في حقيبتي، تحت البصل والجَزر، كان هناك علبة سردين لا تبدو خطيرة. على يميننا، في الظّلام، كان هناك لمعان أسودُ ورائحة منعشة: السّين. الطّريق مسدود بأكياس الرّمل: ترجّلنا وواصلنا المسير؛ دخلنا باريس. بدت المدينة نائمة؛ لا أحد في الشّوارع والبيوت بدت كجلاميد من الحجارة الدّاكنة. وحدهم رفضوا التّمويه على نوافذهم، ولمع مبناهم: هناك في أعماق الشّارع، يُلمَحُ مستطيل كبير مضيء. أدخلتُ يدي في حقيبتي، أمسكتُ علبة السّردين؛ سار لورون خلفي وأعلم أنّ بين أصابعه المعدن القاسي والبارد. على اليمين، دنا مستطيل الضّوء. على الجانب الآخر من الزّجاج، كان هناك رجالٌ بزيٍّ أزرق بشارة صفراء، كان منهم في العِلّية وفي الطّابق الأرضي. أمام الباب، كانت تربض سيّارة يحرسها ضبّاط ألمان. استدَرتُ.

- ضاعت، قلتُ للورون. اتبَعني.

مررنا أمامهم؛ لم يروا ما في أيدينا. نزلنا الشّارع وانعطفنا يميناً. أبطأتُ.

- هذا غباء، قال لورون.

- لن يظلّوا هنا اللّيل بأسره. لنتجوّل بهدوء بعض الوقت.

أحسستُ بالخيبة. بالأمس لم يكن هناك سيّارات؛ في رأسي لم يكن هناك سيّارات، لكنّها هناك، ببساطة، بشكل طبيعيّ للغاية.

في رأسي، عدنا إلى النّوم بغبطة عند مادلين، وهناك، وجدناها مشنوقة في غرفتها... تسكّعنا بصمت وقتاً طويلاً.

- لنلقِ نظرة.

عدنا من جديد إلى أعلى الشّارع؛ نزلنا غير متعَجّلين: كانت الجادة مقفرة. وحده شرطيّ يذرع الرّصيف جيئة وذهاباً: أبطأتُ، صوّبتُ ناحية المربّع ورميتُ العلبة.

- جيّد! سمعنا خلفنا صوت زجاج يتهشّم، انفجار، صراخ، صفير. نزلنا المنحدر، كان الطّريق يُطوى بسرعة تحت عجلاتنا. صفّروا خلفنا، استمرّوا في الصّفير. عطفنا إلى اليمين، استمرّوا في الصّفير، المنعطف الثاني على اليسار، دوّسنا حتّى انقطاع النّفس، إنّه الصّمت. كانت الشّوارع نائمة. والسّماءُ نائمة. لاح كأنّ شيئاً لم يكن يحدث في أيّ مكان.

- نلنا منهم، قال لورون.

- نعم، أظنّ.

- إنّها ليست رياضة، كان ذلك سهلاً جدّاً.

- لم يعتادوا. انتظر قليلاً.

دوّسنا من دون نفس. كانت حرارتي كبيرة، وأحسستُ بأنّي خفيف. سهلٌ جدّاً أن نفعل ما نريد؛ كلّ شيء سهل. سنواصل غداً. مبانٍ أخرى ستنفجر. قطارات ومخازن ومصانع. نحنُ في باب فندق «كوليبري» نشربُ كوكتيلاً في ركن قريب من النّار، مع مادلين. هناك، يأخذون

الموتى والمُصابين، وهناك يصرخون بالأوامر، ويرموننا بالرّصاص. لمحنا الكوكتيل يتوهّج، هادئين، تائهين كما لو أنّنا في الأدغال.

في اليوم التّالي، عند منتصف النّهار كانت مادلين في انتظاري أمام الورشة:

– قمتم بعمل جيّد، قالت. ثمانية موتى ولا أدري كم جريحاً. الحيّ كلُّه في غليان.

مشيتُ برشاقة في شوارع كليشي: لم يكن لأولئك الموتى وزن يُذكَرُ في قلبي. ما من أثر على وجهي، أو في يدي؛ تتقاطع طرقنا، يروونني ولا يروونني؛ أنا مجرّد مارٍّ مسالم. في الورشة، كان رفاقنا ينظرون إلينا بشكل عاديّ. لم يكن يبدو أنّنا محكومون بالموت. يوم كبقيّة الأيّام. في المساء، كان عليّ تناول العشاء مع والدَيَّ؛ عند السّابعة نزلتُ إلى المترو، ورأيتُ اللّافتة الحمراء ملصقة على الجدار الأبيض.

– رأيتَ؟ قالت أمّي.

– ماذا؟

– اللّافتات. حدثت عمليّة ليلة البارحة؛ في المقابل أعدموا اثنتي عشرة رهينة. نظرت إليَّ: عيناها عميقتان، خدّان محتقنان، بدت امرأة مُسنّة؛ روت لي بصوت أبيض:

– إن لم يُكشف عن الفاعلين، فسيعدمون اثنتي عشرة رهينة أخرى.

– أعلم. بدأ كلّ شيء، قلت.

– وعدوا بخمس مئة ألف فرنك مكافأة لمن يأتيهم بمعلومات قيّمة، قال أبي بنبرة تشجيع.

– ألن يعلنوا عن أنفسهم؟ قالت أمّي. هل سيسمحون بقتل اثني عشر بريئاً؟

لم ترتجف يديَّ؛ لم يحمَرَّ وجهي. مع ذلك، كان هناك، أثر على وجهي ويديَّ، أحسستُ به؛ لاحظتهُ أمّي، وأحرقتني نظراتها.

– لا يمكنهم، قلت. لو سلّموا أنفسهم فلن يتمكّنوا من القيام بعمليّات أخرى.

– إنّهم لا يدينون إلّا للقضيّة، قال أبي. كان فخوراً. إنّه هو من ألقى القنبلة، وهو غير نادم بالمرّة: إنّه رجلٌ قويّ.

– لم يكن عليهم أن يفعلوا ما فعلوه، قالت أمّي. لقد قتلوا فرنسيّين.

– هل تعلمين ما يجري في بولونيا؟ قلت. إنّهم يأخذون اليهود في القطارات، يغلقون القاطرات بإحكام، ويفتحون صنابير الغاز على امتداد الخطّ. تريدين أن نشارك في هذه المجازر؟ في كلّ لحظة، نحنُ بصدد قتل أحدهم.

– هل أنقذت القنبلة بولونيّاً واحداً؟ قالت أمّي. الحصيلة أربعٌ وعشرون جثّة أخرى، هذا كلّ شيء.

– إنّها جثث تزن الكثير، قلت. هل تعتقدين أنّ كلمة تعاون ستعني شيئاً؟ هل تعتقدين أنّه سيكون في وسعهم أن يبتسموا لنا بسحنة الأخ الأكبر. الآن، أصبح بيننا وبينهم دم.

– ليقاوم الذين يريدون المقاومة، وليدفعوا دمهم الخاصّ، قالت أمّي. مرّرت يدها في شعرها: لكن هؤلاء الرّجال لا يريدون أن يموتوا، لا أحد تعرّض لهم بسوء. اختنق صوتُها: لا يملكون الحقّ، إنّها جريمة.

هززتُ كتفي عاجزاً عن الردّ. انعقدت حنجرتي. لحسن الحظّ فإنّ أبي تكلّم، راح يشرح. كانت رائحة الحبر والغبار القديمة تسبح في المعرض؛ كانت الرّائحة تخنقني فيما مضى، وأخدش السجّاد تحت البيانو: مات صغيرُ لويز. مات من دون أمل، إلى الأبد. أخذتُ حياتهم إلى الأبد، حياتهم الوحيدة، لا أحد سيعيشها لهم. لا يعرفونني مع ذلك أخذتُ حياتهم. أحدهم يطرق. *كان مارسيل يقرأ وقدماه على الطّاولة وطرقتُ الباب.* كفى. كفى. أعرف. أردتُ ذلك. سنُعيدُها غداً.

أحضرت الخادمة الطّعام. لا أشعر بالجوع، لكن عليَّ أن آكُل. لم تأكل أمّي: نظرت إليَّ. لا يجب أن تعلم. *إنّها تعلم. أعرف أنّها تعلم. لن تغفر لي.*

أكلتُ. شربتُ قهوة السّعير. وماذا لو قلتُ لها: حسناً، سأسلّم نفسي، ماذا كانت ستفعل؟ لكنّي لن أقول شيئاً، وما عليها سوى أن تكرهني بشدّة. لم تسمع أبي؛ ألقت نظراتها بعيداً، غاضبة وشاردة؛ وتكلّم أبي، وأجبتُه.

تحدّثنا ودارت عقارب السّاعة. الحادية عشرة. انقبض قلبي؛ فجأة، أصبح عمري خمسة أعوام، كنتُ خائفاً ومتجمّداً من البرد، أريد أن تحفّف أمّي فراشي وتبطّنه، أن تقبّلني طويلاً؛ أريد أن أبقى هنا: سأنام في غرفتي، سابحاً في الماضي، وربّما نمتُ:

«يجب أن أرحل».

نهضت؛ كانت ساقاي ثقيلتين؛ لا يمكنني البقاء؛ كانت نظراتها تطردني؛ عندما انحنيتُ لتقبيلها زمّت شفتيها وتصلّبت: «فعلتَها. الآن، تحمّل تبعاتها». صمتت، لكنّي سمعتُ صوتها القاسي. ستموت قبل أن تكون قد غفرت لي.

غصتُ في اللّيل، مشيتُ أمام نفسي، مجرماً، منذوراً للجريمة. وددتُ لو أمكنني ان أمشي حتّى الصّباح. صعدتُ إلى غرفتي عند منتصف اللّيل وجلستُ قرب المدفأة الفارغة. وحيداً. وحيداً وجهاً لوجه مع جريمتي. رأيتُ الجرائد القديمة تشتعل. «ماذا لو أنّ كلّ هذا بلا فائدة؟ ماذا لو أنّي قتلتُهم لأجل لا شيء؟» استيقظتُ، عند الفجر، قرب المدفأة، مرعوباً، وفي فمي مرارة وفكّرتُ: «يجب أن نعيدها وإلّا فإنّ كلّ شيء صار بلا جدوى. وسأكون، فعلاً، قد قتلتُهم لأجل لا شيء».

لم تكن لديّ قوّة. لم أعد قادراً على المواصلة: أنتَ من سيموتُ هذه اللّيلة، فوق السّرير. أريد أن أتوقّف. ألا يمكنني أن أفعل؟ أضغَطُ على الزّناد مصوّباً المسدّس إلى صدغي. ماذا بعد؟ ماذا سيفعلون بعدي؟ لن أكون هنا. لكنّي هنا، وما دمتُ هنا فإنّ المستقبل موجود، بعد موتي. فكّرتُ في الموت. فكّرتُ فيه حيّاً. قرّر أن تموت، قرّر ثانية، قرّر وحدَك. ثمّ ماذا؟ ماذا بعد؟

-XII-

وضعت إيلين مبرد الأظافر على طاولة السّرير، وغمست يدها اليسرى في الرّغوة. كانت نصف نائمة على الكنبة، سحبت السّتائر، وأضاءت لمبة الباب: هكذا ستتوهّم أنّ اليوم قد شارف على الانتهاء؛ لكنّها تعرف أنّ ذلك غير صحيح. خلف النّافذة، لاحت سماء زرقاء ويوم أحد مملّ من شهر مايو. في الأسفل، كان باب متجر الحلويّات مفتوحاً، وكان الأطفالُ يأكلون مثلّجات ورديّة في أكواب ورقيّة. سحبت إيلين يدها من الآنية وتناولت عوداً ملفوفاً في القطن وغمستهُ في سائل أبيض؛ وراحت تزيل القشور أسفلَ أظفارها. كلّ يوم، كمّ هائل من السّاعات للقتل، منذ كم سنة؟ وحتّى لو أحبّني، ماذا كان ذلك سيُغيّر؟ محارتان في صدفة واحدة. كان هذا الصّمتُ حاضراً دائماً، وهذه الموجات المملّة والزّرقاء... سحبت تنّورتها على ساقيها. أحدهم ذرق.

- ادخُل!

كانت إيفون. كان بين يديها باقة بنفسج. كانت سحنتها غريبة.

- لقد انتهى كلُّ شيء! قالت. ابتسمت ابتسامة مزيّفة، كما لو أنّها كانت تكيدُ لإيلين.

- ماذا؟ ماذا هناك؟

- إنّهم في البيت؛ إنّهم يجمعون اليهود.

- غيرُ صحيح؟ قالت إيلين. رمقت إيفون بقلق: كانت الشّفتان تبتسمان أمّا الوجه فكان منكمشاً.

– صحيح، تلاشت الابتسامة، وارتعش خدّاها: ماذا سأفعل؟ لا أريد الذّهاب إلى بولونيا.

– ماذا يحدث؟ قالت إيلين.

– لا أعرف تماماً. خرجتُ أستنشق الهواء، ولمّا عدتُ اشتريتُ بنفسجاً وقالت لي البائعة أن أهرب.

قفزت إيلين واقفة: لا تخافي. لن يأخذوكِ.

– لكنّي خائفة على أمّي، قالت إيفون. لو لم أعد فسيؤذونها. ربّما هم بصدد قتلها.

– لا يجب أن تبقَيْ هنا، قالت إيلين. إنّه أوّل مكان يخطُر لهم. تعالَيْ، لنذهب!

– إيلين، لا أستطيع تركها من دون معرفة مصيرها... نظرت إلى إيلين بخجل: هل يضايقك أن تذهبي إلى هناك؟ إن كان لابدّ من أن أعود فستخبرينني بذلك.

– سأذهب حالاً، قالت إيلين. لبست معطفها: أين أجدُكِ؟

– فكّرت في الاختباء في «سان إيتيان» إنّهم يفتّشون في كلّ مكان، لكنّي لا أظنّهم سيفتّشون الكنائس.

نزلت السّلم أربعاً أربعاً.

– يهجّرون اليهود! لا أصدّق! قالت إيلين.

رمقتها إيفون؛ كان في عينيها نوع من السّخرية الحزينة.

– أنا أقدر. أعلم أنّ هذا سيحدث. لمست كتف إيلين: أسرِعي. ستجدينني في كنيسة العذراء.

انطلقت إيلين راكضة؛ قطعت مسافة طويلة، ظلّت نظرات إيلين تتابعها وضاقت حنجرتها من الخزي. لا أصدّق، لا يخطُر لي، عادت إلى فراشها، من دون أن تنام فعلاً، كانت تنتظر. أطلي أظفاري فيما يهجَّرُ اليهود! حبيسة غرفة مليئة بالنّوم والصّمتِ والقلق؛ وفي الخارج، إنّه النّهار، حيثُ يعيش النّاسُ ويتعذّبون. أبطأت وكان مزاجُها متعكّرا.

كان للطّرقات منظرها الاعتيادي: أحد كالبقيّة، أحد طويلٌ حيثُ لا شيء يحدُث.

تجاوزت بوّابة المدخل؛ كان هناك ضابطان تحت السّقيفة، وكان يُسمع من الخارج صوت شجار كبير؛ أبوابٌ تُصفق، وأغراض ثقيلة تسقط الأرضيّة الخشبيّة؛ امرأة تصرُخ بلغة مجهولة. في منتصف السُلّم تقاطعت إيلين مع ضابط يحمل رضيعاً بين يديه؛ بدا مضطرباً وغاضباً. توقّفت على سطح الطّابق الثاني؛ كان الباب مفتوحاً، وسُمع صوت رجال في الشقّة. دخلت إيلين.

- إيفون!

خرج ضابط من الغرفة الداخليّة: «آه! ها قد جئتِ!» قال.

- لستُ إيفون، قالت إيلين.

- سنرى. ادخُلي.

تـردّدت إيلين لحظة. كانت الغرفة الممنوعة، المليئة باللّيل، والكوابيس والرّوائح المجنونة، مفتوحة بالكامل: كانت الكهرباء مُضاءة. وضابطان بجانب السرير. كانت السيّدة «كوتز» متدثّرة بالأغطية، وحده رأسها كان بارزاً، رأس بشعر حليق، بوجنتين منتفختين وشعر أسود.

- أين إيفون؟ قالت.

- لديكِ أوراقك؟ قال الضّابط.

أخرجت إيلين من حقيبتها بطاقة هويّة وبطاقة تموين.

- ماذا يجري؟

- أين إيفون؟ كرّرت السيّدة كوتز. ليس من عادتها أن تظلّ في الخارج طويلاً.

تفحّص الضّابط الأوراق وسجّل ملاحظات في دفتره:

- حسناً، قال بخيبة. ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

- جئتُ أرى صديقتي.

- ألا تعرفين أين هي؟

- لا.

- ستصل بين لحظة وأخرى، قالت السيّدة كوتز متوسّلة.

- عليكِ أن تنصحيها بأن لا تحاول الاختباء، قال الضّابط. سيأتي الألمان غداً للبحث عنها، وإن لم يجدوها، فأؤكّد لك أنّهم لا يملكون من الصّبر الكثير.

غادر الرّجلان الغرفة، وأُغلِق الباب.

-ستقتلني، قالت السيّدة كوتز. أغمضت عينيها: آه! سأرحل، قالت، سأرحل. ناوليني جرعتي بسرعة.

تناولت إيلين قارورة كما اتّفق، كانت موضوعة على الطّاولة وملأت ملعقة.

- شكراً، قالت السيّدة كوتز؛ تنفّست بعمق: قولي لها أن تعود بسرعة. سيقتلونني!

- لا أعتقد أنّ لديهم نيّة قتلك، قالت إيلين. لا تخافي. سأعود لزيارتك هذا المساء. سأعتني بك.

- لكن إيفون؟ أين هي؟

- لا أعرف، قالت إيلين. إلى اللقاء.

أطبقت الباب خلفها. كان على طاولة إيفون مقصّ، ودبابيس وبكرات خيط بجانب مزهريّة فارغة. فستان أزرق، مُطرّز بالأبيض تدلّى من مقبض النّافذة. كان يبدو أنّها ستعود خلال خمس دقائق. اشترت بنفسجاً. وظلّت المزهريّة فارغة، لن ترجع. كان على رفّ الكتب دبّ صغير سرقته لها إيلين قبل عشر سنوات: كان مظهره كاليتيم. أخذته إيلين ووضعته في حقيبتها.

لم تكن أيّ ضجّة تُسمع في السُلّم؛ كما لو أنّ المنزل كان خالياً. اتّخذت إيلين الطّريق؛ كانت بائعة الورد جالسة على مقعد قابل للطيّ

قرب السيّارة الخضراء. لن تشتري منها إيفون زهـوراً ولن تدخل المخبزة. أين ستكون؟ وحيدة، تائهة، من دون أصدقاء...

أنا أغلق السّتائر وأعتني بأظفاري!

توقّفت فجأة. كان هناك أربعة باصات في ساحة «كونتريسكارپ»، مصفوفة على طول الرّصيف. كان بينها اثنان فارغان؛ الحافلتان على اليمين كانتا مليئتين بالأطفال. مخبرون يحرسون المكان. حشد كبير من النّساء يحيط به عدد من المخبرين. كنّ يسرن اثنتين اثنتين ماسكات حقائب في أيديهنّ. كانت السّاحة صامتة كما لو أنّها ساحة في قرية. خلف زجاج السيّارات الضّخمة، كانت تُشاهدُ وجوه سمراء ومرعوبة، كان النّاسُ يتفرّجون.

قطعت النّساء الشارع متّجهات نحو الباصات الشّاغرة. كانت بينهنّ امرأة تمسك فتاة صغيرة: فتاة صغيرة جدّاً، بضفائر سوداء مربوطة بعقد حمراء. اقترب منهنّ مخبر، قال كلمات لم تسمعها إيلين.

- لا، قالت المرأة. لا.

- هيّا، قال الرّجل. من دون مشاكل. سنعيدها إليك لاحقاً. انتزع منها الفتاة.

- لا. لا، قالت المرأة. تعلّقت بكلتا يديها بذراع الرّجل. صرخت: اتركها لي. روث، صغيرتي روث!

صرخت الطّفلة. جمعت إيلين قبضتها، صعد الدّمعُ إلى عينيها. ألا يمكن أن نفعل شيئاً؟ لو هجمنا جميعاً على البوليس. لو انتزعنا منه الطّفلة؟ لكنّ أحداً لم يحرّك ساكناً. اقتاد العميلُ الفتاة إلى الحافلة التي على اليمين. كانت تصرخ. في الدّاخل، أخذ الأطفال يصرخون معها.

ظلّت المرأة واقفة في منتصف السّاحة. انطلق الباصُ بثقل.

- روث! روث! ركضت خلف السيّارة. كانت تحمل خُفّين باليَيْن وكانت تجري متعثّرة. تعقّبها عميل بخطوات رجل غير متعجّل. كانت لاتزال تنادي: روث! صرخة شديدة يائسة. ثمّ توقّفت في زاوية من

الطّريق ووضعت رأسها بين يديها. كانت السّاحة هادئة تماماً، وكانت واقفة هناك، وسط الأحد الأزرق، رأسها بين يديها بهذا القلب المتفتّت. وضع العميلُ يده على كتفها.

«آه! لماذا؟ لماذا؟» فكّرت إيلين بيأس. بكت، لكنّها كانت، بلا حركة، تُشاهِدُ كالآخرين. كانت هناك، ولم يكن حضورها ليغيّر من الأمر شيئاً. شقّت السّاحة. «كأنّه لا وجود لي. مع أنّي موجودة. أنا موجودة في غرفة مغلقة، أوجَدُ في العدم. لا أعني شيئاً. هل كانت غلطتي؟». نزل جنود ألمان من حافلة سياحيّة أمام البونتيون Panthéon؛ كانوا متعبين ولا يشبهون المنتصرين الذي يهتفون: «هيل **Heil** !» في الطّرقات.

أتابعُ الحكاية وهي تجري أمامي! إنّها حكايتي، كلّ هذا يحدث لي أنا.

دخلت الكنيسة. صدح صوت الأرغل تحت الأسقف الحجريّة؛ كانت الصّالة الرّئيسة مليئة بالنّاس: كانوا يُصلّون، كان الأطفال الصّغار بجانب أمّهاتهم، في عائلاتهم، كانت قلوبهم حافلة بالموسيقى، بالنّور وبرائحة البخور. خلف ستائر الدّخان المتصاعد، كانت القدّيسة العذراء تبتسم بلا وعي.

لمست إيلين كتف إيفون.

- آه! ها أنتِ ذا! ماذا حدث؟

- رأيتُ أمّكِ، قالت إيلين؛ جثت على ركبتيها بجانب إيفون: كان المخبرون لطفاء؛ لقد فهموا أنّها مريضة، سيتركونها وشأنها. قالت لا تقلقي بشأنها.

- قالت هذا؟ قالت إيفون متفاجئة.

- نعم. كانت في صحّة جيّدة. فتحت حقيبتها. خذي، أحضرتُ لك دُبَّكِ؛ بدا حزيناً من دونك.

- كم أنتِ طيّبة! قالت إيفون.

- الآن علينا أن نهتمّ بكِ. سأرى جون. يبدو أنّ في إمكانه تهريبك خارج الحدود.

- تذهبين إلى جون؟

- قالت لي دينيس إنّ في وسعي التعويل عليك إذا احتجتُ إلى شيء.

- ألا يُزعجك ذلك؟

- لا. لماذا؟ نهضت إيلين: ابقَيْ هنا. سأحاول العودة بسرعة.

- خذي، قالت إيفون... خذي هذه. دسّت بين يدي إيلين باقة البنفسج. شكراً، قالت بصوت مختنق.

- أنتِ حمقاء، قالت إيلين.

خرجت من الكنيسة. صمت الأرغل؛ رنّ ناقوس، بارداً في الصّمت، ورفع القسّيس الصّليب الذّهبيّ المقدّس. نزلت إيلين عبر شارع «سوفلو»، أخرجت درّاجتها وركبتها. «سأرى جون». كانت لا مبالية، كان ذلك طبيعيّاً. لم تكن تشعر بالخوف، لم تكن ترجو منه شيئاً. «روث! صغيرتي روث!» لا يمكنه محو صرخة، تلك الصّرخة التي ستظلّ تسمعها أبداً. لا شيء آخر قد يعني شيئاً: «روث! روث!» في الطّرقات، كانت نهاية الأحد، أحد الكنائس، أحد طاولات الشّاي، والأحد في القلوب المُتعَبَة. «حكايتي: تُعاشُ من دوني. أحياناً أرى وأنا نائمة: وكلّ شيء يحدث من دوني».

صعدت السُلّم، وأنصتت لحظة، ألصقت أذنها على الباب. كان يُسمَع نوع من صوت الأكل. كان هناك. رنّت الجرس.

- أهلاً، قالت. توقّف صوتُها في حنجرتها. لم تفكّر في أنّه سينظر إليها بعينيه؛ لم يبتسم. تحاملت على نفسها وابتسمت أوّلاً: هل بإمكاني التحدّث معك خمس دقائق؟

- بالتّأكيد. ادخلي.

جلست وقالت بسرعة:

مكتبة
t.me/t_pdf

– هل تذكر صديقتي إيفون؟ يفتّشون عنها لترحيلها إلى ألمانيا. قالت لي دينيس إنّ في وسعك مجاوزتها الحدود.

– هذا ممكن، قال جون. هل لديها أموال؟

– لا، قالت إيلين؛ فكّرت في المعطف الفاتح والبدلة المعلّقة في دولابها: يمكن أن تحصل على القليل، لكن ليس فوراً.

– لا بأس. قولي لها أن تلتحق بالسيّد لونفون عند السّاعة الخامسة، 12، شارع أورسيل. سيكون في انتظارها.

– لونفون، 12 شارع اورسيل، أعادت إيلين.

صعدت الكلمات، فجأة، إلى شفتيها: لم تفكّر في ترديدها، لكنّها فرضت نفسها ببداهة بدا كأنّها جاءت خصّيصاً لتقول له: جون، أريد أن أعمل معك.

– أنتِ؟

– أليس لديك عملٌ لي؟

تفحّصها: هل لديكِ فكرة عن عملنا؟

– أعرف أنّكم تساعدون النّاس. أعرف أنّكم تفعلون شيئاً. امنحني شيئاً أقوم به!

– انتظري، قال. دعيني أفكّر.

– أنتَ خائف منّي؟

– أخاف! قال جون.

– لعلّهم أخبروكَ بأنّي سأنتقل للعيش في برلين. ابتسمت. لكنّي لم أذهب.

– لماذا تريدين أن تعملي معنا؟

– اطمئنّ، قالت، ليس بسببك.

– لم يخطُر لي هذا.

– يمكنك أن تفكّر في ذلك. جاست بنظراتها في الغرفة. لا شيء تغيّر. حبّي لم يتغيّر...: لا. لا لكي أدخل حياتك من جديد.

– عملنا خطير، قال جون.

– لا فرق عندي. هذه الكلمات أيضاً لم تفكّر فيها من قبل؛ مع ذلك تشكلّت: لم أعد أحيا؛ بتُّ كالميّتة. أتذكر: قلتَ لي مرّة إنّه في وسعنا أن نخاطر بالموت كي يصبح للحياة معنى. أعتقد أنّك مُحقّ.

– أنتِ تقولين هذا؟ قال جون.

– ترى أنّي تغيّرتُ؟

– لا. كان لابدّ أن تصلي إلى هنا. فكّر: تحسنين قيادة السيّارة؟

– أقود جيّداً جدّاً. لديّ ردود فعل ممتازة.

– إذاً، يمكنك أن تؤدّي خدمات عظيمة. خيّم صمت: هل أنتِ واثقة تماماً من نفسك؟ قال جون. إذا أوقفوكِ، هل ستتكتّمين؟ يجب أن تعلمي أنّنا سرعان ما نُعدَم لو اكتشفوا أمرنا.

– نعم، قالت إيلين. تردّدت. أنت تساعد النّاس. و... هذا كلّ شيء؟

– لا ليس كلَّ شيء.

– آه! أنتَ أيضاً تغيّرت، قالت.

– ليس إلى هذا الحدّ، قال. نظر أمامه بحزن. كان قلقاً ووحيداً... لم أعرف كيف أحبُّه، فكّرت إيلين. فكّرت: «لم يتأخّر الوقت. مازلتُ أحبّه». نهضت.

– يمكنك أن ترسل في طلبي حالما تحتاج إليَّ.

– خلال يومين أو ثلاثة. رمقها؛ ابتسم: أنا سعيد برؤيتِك، قال.

مرّرت إيلين لسانها على شفتيها؛ خشيتْ أن تبكي.

– أتدري، لقد فهمتُ، قالت. لم يكن عليَّ أن أفعَل ما فعلتُه. أنا.. كنتُ مُصابَة.

– أوه! كنتُ مذنباً أيضاً، قال جون.

تبادلا النّظرات برهة، بصمت، متردّدَيْن.

– إلى اللّقاء، قالت أريد منكَ ألاّ تكرهني. فتحت الباب ونزلت السُلَّمَ من دون أن تنتظر إجابة.

***

دفعت إيلين نافذة الشّرفة. أصدر الحصى خشخشة تحت أقدامها. كانت اللّيلة شديدة الحرارة؛ صعدت رائحة نباتات منعشة صوب السّماءِ السّوداء. جلست على الحافّة الخشبيّة، مستندة إلى الجدار. «في النّهاية، لم يحدث شيء بعد»، فكّرت. صفّر قطار في عمق الضّيعة؛ كان يسير، لا مرئيّاً، بستائر منخفضة. «لا يجب أن أفكّر هكذا. يمكن أن يحصل كلّ شيء دائماً». قطفت ورقة غار. فركتها بين أصابعها. «لم أعد أشعر بالخوف». أحسّت بأنّها خفيفة وممتلئة كما في الأمسيات الجميلة لطفولتها، عندما كانت تنام بين ذراعَيّ الأب. أن يموت المرء: ليس ثمّة موت. ليس هناك أحد كي يموت. أنا حيّة. أنا دائماً حيّة. أحسّت بالحياة تضطرب في صدرها وكانت لحظة أبديّة.

- إيلين!

ضوء سيجارة خافت ثقب الظّلمة. عرفت جون.

- إيلين، أرجوكِ، قال. لا تذهبي هذا المساء!

- لا جدوى، قالت. سأذهب.

- عندما تخطئ عمليّة، لا يجب أن نكرّرها. قد يكون لمحكِ أحدهم في الطّريق. انتظري أيّاماً.

- لن ينتظروا. قد ينقلونه إلى معسكر آخر غداً. ليس هناك وقت لنُضيّعَه.

جلس جون بجوارها:

- لو لم يكن پول، هل كنتِ لتفعلي ذلك؟

- إنّه پول.

- پول لا شيء بالنّسبة إلى دينيس.

- هي موافقة. نحن نشكّل فريقاً. فكّرتْ: لكن لديَّ اقتراحاً: أذهب وحدي هذه المرّة.

- لا. انتهى أمرُكِ لو تعرّضتِ إلى حادث بسيط. سحق عقب سيجارته تحت قدمه: سأرافقكِ.

- أنت؟ لا يجب أن تشاركَ في أيّ عمليّة؛ إنّها قاعدة.
- أعلم، قال جون. أرسِل أناساً للمرت، ولا أشاركهم المصير.
- إذا شاركتهم إيّاه، فهذا لن يُغيّر في الأمر شيئاً، قالت.
ساد صمت.
- ستكونين في خطر، ولن أكون بجانبك: لن أتحمّل ذلك، قال.
- ستكون بجانبي، قالت. لن تغيّرَ المسافة شيئاً: أنت دائماً بجانبي.
أحاطها بذراعه ووضعت خدّها على خدّه:
- أنتِ محقّة، قال. الآن، لن يفرّق بيننا شيء، إلى الأبد.
- أتعلم، قالت إيلين. كنتُ خائفة في المرّات الأولى؛ لكنّي سعيدة الآن، لأنّي لم أعد قادرة على الخوف.
- حبيبتي، قال.
نادى صوتٌ من النّاحية الأخرى للحديقة:
- إيلين!
وقفت إيلين:
- إلى الغد. اتّصل بـ «لامي» كي يعطِيَ الإشارة. سنكون هناك خلال ساعة.
- اعتني بنفسِكِ، قال جون. وعودي بسرعة. أخذها بين ذراعيْه: عودي إليَّ.
تركها وانطلقت نحو المستودع.
- حسناً. أنا جاهزة، قالت.
أنزلت دينيس غطاء الشّاحنة حيثُ تكوّمت الملابس المتّسخة.
- كلّ شيء على ما يُرام، قالت.
عقدت إيلين منديلاً على رقبتها:
- البدلة؟ الأوراق؟
- لديَّ كلُّ ما يلزَم.

ركبتا السيّارة. كانت إيلين في القيادة.

– لم يشأ جون أن نخرج، يقول إنّها مقامرة.

– قال لي ذلك. لكنّ پول، من دون شكّ، يُعوّل علينا. ثمّ بعد ذلك ستصبح اللّيالي أقلّ سواداً.

انطلقت إيلين. كان پول، هناك، قابعاً في قارب، يسمع الصّمت. ركب «لامي» درّاجته، مرّ أمام المعسكر مدندناً: اتّجه جون إلى المحطّة: لم تغادِره. لم تعد، الآن، وحيدة بلا فائدة، تائهة تحت السّماء الفارغة. إنّها موجودة معه، مع مارسيل، مع مادلين، لورون، إيفون، مع كلّ الغرباء الذين ينامون في الزّوارق الخشبيّة والذين لم يسمعوا اسمها أبداً، مع كلّ الذين يأملون في غد آخر، مع الذين لا يعرفون كيف يأملون في شيء. لقد انكسرت المصادفة: إنّها موجودة لشيء ما، لشخص ما. كانت الأرضُ بأسرها حضوراً أبويّاً.

– ما أجمل هذه اللّيلة! قالت.

-XIII-

بصيصٌ من ضوء تسلّل من شقوق النّافذة. إنّها الخامسة. فُتِحَت الأبواب الأولى. هرع الطّبيب والقابلة إلى سرير المُصابِ والمرأة المُمدّدة. انفضّت المراقص السرّية من الشّوارع الخالية في باريس. أضيئت بعض المقاهي حول المحطّة. *أسندوهم إلى الجدار*. أدخل يده في جيبه. قاسٍ وبارد. لعبة. «لا أحد يُصدّق أنّ بوسع تلك اللّعبة أن تقتل». بيد أنّها تقتل. اقترب من السّرير. لن تُقضي اللّيلة. واللّيلة انقضت تقريباً. هل سأكون هناك لأقول: قتلتُها؟ لأقول: يجب قتل المزيد؟ ذلك الصّوت... لأجلي يتكلّم؛ لأجلي يجب أن يخرس. ماذا يهمّهم لو أنّ صمتي صوت؟ لا شيء من ذلك ينقذني. لكن في إمكاني أن أنام، أن أغوص في تلك المياه الآسنة. القلقُ يسحبُ ويُمزّق؛ إنّه ينتزعني من نفسي. لينتهي هذا الاختطاف...

– جون.

استدار. فتحت عينيها. نظرت إليه.

– هل جاء پول؟

– نعم، إنّه هنا. كلّ شيء على ما يُرام.

– آه! أنا سعيدة، قالت. كان الصّوتُ خافتاً، لكنّه مميَّز. جلس على حافّة السّرير.

– كيف تشعرين؟

– بخير. أخذت يدي بين يديها: أتعلم، لستُ حزينة. لا يزعجني أن أموت.

- لن تموتي.

- تظنّ؟

نظرت إليه؛ نفس النّظرة التي كانت ترمُقُه بها فيما مضى: نظرة شكّ وسؤال.

- ماذا قال الطّبيب؟

لن يتردّد هذه المرّة؛ إنّه لا يشكّ: رغم العرق على صدغيها، وصوتها المتقطّع، لم تكن تلك مسألة جسد؛ نظرة، حرّية؛ لحظاتها الأخيرة ليست لأحد غيرها.

- لم يترك الكثير من الأمل.

- آه! قالت. أعتقد ذلك أيضاً. ظلّت واجمة برهة من الزّمن: لا يزعجني، كرّرت.

انحنى. لثم خدّها الدّاكن.

- إيلين، تعلمين أنّي أحبّك.

- نعم، الآن، أنت تحبّني، قالت. ضغطت على يده. أنا سعيدة لأنّك هنا؛ ستفكّر فيَّ.

- حبّي الوحيد، قال. أنتِ هنا بسببي.

- أين الخطأ؟ قالت. أنا من أردتُ الذّهاب.

- لكن كان بإمكاني أن أمنعكِ.

ابتسمت: أنت لا تملك حقّ اتّخاذ القرار نيابة عنّي.

نفسُ الكلمات. نظر إليها. إنّها هي حقّاً. كانت تقول: أنا من يقرّر. كان شعرها يلمع، وخدّاها المحفوران يتألّقان حياة؛ إنّها هي. نفسُ الحرّية. هل حقّاً لم أخن أحداً؟ هل حدّثتُك وحدَك، عن حقيقة حياتِك؟ عن هذا النّفس المتقطّع، والعينين الزّرقاوين، هل تتعرّفين على إرادتك؟

- هذا ما كنتِ تقولينه فيما مضى: تركتُك تختار؛ لكن هل عرفت ما الذي اخترتِه؟

– كنتُ سأختارُك. كنتُ سأشقّ نفس الطّريق. حرّكت رأسها: لا أريد لنفسي حياة أخرى.

لم يجرؤ على تصديق ما سمع منها من كلمات؛ لكنّ القبضة ارتخت حول قلبه؛ انبجس أمل في اللّيل.

– لم تختاري أن تلتقيني، قال. لقد ارتطمتِ بي كما يرتطم شخص بصخرة. والآن...

– الآن، قالت. ما الذي قد نتأسّف عليه؟ هل أحتاج إلى أن أتقدّم في السنّ؟

كانت الكلمات تغادر شفتيها بمشقّة. لكنّ نظراتها كانت صافية. حيّة، حاضرة. بدا، فجأة، أنّه لا قيمة للوقت، كلّ هذا الوقت الذي لن تكون فيه هنا، ما دامت في هذه الدّقيقة موجودة، حرّة، وبلا حدود.

– هل صحيح أنّك لا تأسف على شيء؟ قالت.

– لا. لماذا؟

– لماذا؟ كرّر.

– لا تندم، هذا هو الأهمّ، قالت.

– سأحاول.

– لا يجب أن تسقط فيه. ابتسمت بوهن:

فعلتُ ما أردتُ فعله. كنتَ صخرة. لابدّ من الحجارة لإقامة الطّرق، من دون حجارة، كيف نختارُ الدّرب؟

– لو كان هذا صحيحاً، قال.

– لكنّه صحيح، أنا على يقين. ماذا كنتُ سأصيرُ لو لم يحدث معي شيء؟

– آه! أريد أن أصدّقكِ، قال.

– من تُصدّق؟

– عندما أراكِ أصدّقُكِ، قال.

- انظُر إليَّ. أغمضت عينيها. سأنام قليلاً. أنا متعبة.

حرس نومها. «رائع!» ربّما كان پول محقّاً بقولِه «رائع». كانت تتنفّس بهدوء وكان ينظر إليها. بدا له أنّه لم يعرف كيف يبتكر لها موتاً آخر، حياة أخرى. أصدّقكِ، يجب أن أصدّقك. لم يحدث لك مكروه بسببي. لم أكن، تحت قدميكِ، إلا حجراً بريئاً. بريئاً كحجر، كقطعة الفولاذ التي مزّقت رئتيكِ. لم تقتُلكِ: لم أقتُلكِ حبيبتي.

- إيلين!

كتم صرخة. كانت عروقها منتفخة وفمها مفتوحاً. نامت؛ نسِيَتْ أنّها ستموت. قبل قليل كانت تعلم ذلك؛ الآن؛ هي تموت، لم تعد تعرف. لا تنامي، استيقظي. مال عليها. ودّ لو هزّها من كتفيها، وتوسّل إليها؛ وهو ينفخ بكلّ قوّته على نارٍ ذاوية، ربّما كان في الإمكان تأجيجها. لكن من فمي إلى حياتها لم يكن هناك معبر؛ وحدها من كان في وسعها أن تُبعَثَ إلى الضّوء. إيلين! مازال لها اسم: هل سيكون مستحيلاً نداؤها؟ صعد النّفس من الرّئتين إلى الفم بصعوبة، نزل من الشّفتين إلى الرّئتين وهو يشخر، الحياة تتقطّع وتتعذّب، مع ذلك كانت لا تزال كاملة، ستظلّ كاملة حتّى الرّمق الأخير؛ ألا يمكنك استغلالها في شيء آخر عدا الموت؟ كلّ نبض من قلبها يقرّبها من موتها. توقّف. استمرّ قلبُها في الخفقان، من دون هوادة؛ حين يتوقّف ستكون قد ماتت، وسيكون قد فات الأوان. توقّف الآن. توقّف عن الموت.

فتحت عينيها؛ أخذها بين ذراعيه. لم تكن عيناها المفتوحتان تريان شيئاً. إيلين! لم تعد تسمع. شيء ما يبقى حين لا نكون غائبين، لكنّها غائبة عن الأرض، غائبة عنّي. مازال في عينيها نظرة، نظرة شاخصة ليست نظرة عدم. توقّف النّفس. قالت: أنا سعيدة لأنّك هنا؛ لكنّي لستُ هنا؛ أعرف أنّ شيئاً ما يحدث، غير أنّي أفضّل ألاّ أشاهده؛ هذا لا يحدث هنا ولا في أيّ مكان آخر: خلف كلّ حضور. تنفّست ثانية؛ أغمضت عينيها؛ انسحب عنها العالم، تهاوى؛ مع أنّها لم تخرج من العالم؛ في هذا

العالم بالذّاتِ تحوّلت إلى ميّتة بين ذراعيَّ. ابتسامة ساخرة سحب زاوية من شفتيها. لم يعد هناك نظرات. أنزل الأهداب على العينين المطفأتين. أيّها الوجه العزيز، أيّها الجسم الحبيب. يا لجبينك وشفتيك. لقد رحلتِ عنّي: لكن لايزال في إمكاني الاحتفاظ بغيابك؛ سأحفظ وجهك؛ أنتِ هنا، حاضرة في هذا الشّكل الثّابت. ابقَيْ؛ ابقَيْ معي...

رفع رأسَه. كان في وسعه المكوث أكثر، جبينُه على قلبها الصّامت. هذا اللّحم الذي كان أنتِ. نظر بقلق إلى الوجه الجامد. كان لايزالُ يشبه نفسه، لكنّها لم تعد هي. إنّها تتحوّل إلى جثّة، إلى تمثال. إلى لا أحد. هكذا فقد غيابها حدوده، هكذا انتهى بها الأمر متسلّلة خارج هذا العالم. والعالم مازال يعجّ بالنّاس مثل الأمس: لا شيء ينقُصه. ما من خطأ واحد. لا يبدو ذلك معقولاً. كما لو أنّها كانت لا شيء على وجه الأرض.

كما لو أنّي لم أكن شيئاً. لا شيء وكلّ شيء؛ بين النّاس في كلّ مكان من العالم، ومنفصلاً عنهم إلى الأبد؛ مذنباً وبريئاً كالحجر على الطّريق. ثقيلاً وبلا وزن.

ارتجف. أحدهم يطرق. خطا نحو الباب.

- من؟

- أريد منكَ إجابة، قال لورون. تقدّم خطوة ونظر إلى السّرير.

- نعم، قال بلومار. انتهى.

- هل تعذّبت؟

- لا.

نظر إلى النّافذة. كان النّهار قد أطلّ. الدّقائق تدعو الدّقائق، تطّرد، تدفع بعضها بعضاً، بلا نهاية. تقدَّم. قرِّرْ. رنّ الجرس من جديد، لن ينفكّ يرنّ إلى مماتي.

- يُمكن للآلة أن توضَعَ خلال ساعة، قال لورون. هل أنتَ موافق أم لا؟

نظر إلى السرير. بالنسبة إليك، أنت حجر بريء لقد اخترتَ. الذين سيُرمون بالرصاص غداً لم يختاروا؛ أنا الصخرة التي سحقتهم ؛ لن أفلت من اللعنة، سأظل بالنسبة إليهم آخر إلى الأبد، سأنفصل عنهم. لكني، فقط، أصلُح لكي أدافع عن الخير الأسمى الذي يجعل الحجارة والصخور بريئة وهباءً، هذا الخير الذي سينقذ الإنسان من الآخرين ومنّي: الحرية؛ لم تكن قضيتي بلا فائدة، إذاً. لم تمنحني السلم. لكن لماذا أريد السلم؟ منحتني شجاعة القبول بالمخاطرة والقلق، أن أتحمل جرائمي وضميري الذي سيمزقني من دون رحمة. ليس هناك دربٌ آخر.

ـ ألست موافقاً ؟ قال لورون.

ـ بلى، قال أنا موافق

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

حينَ فتح الباب استدار ت نحوه كلّ العيون:
- ماذا تريدون منّي؟ قال.
كانَ «لورون» جالساً على كرسيّه بالخلاف أمام المدفأة.
- أودّ أن أعرف إن كان الأمر محسوماً للغد، قال «لورون».
غداً. أجال نظره فيما حولَه. كانت تفوح في الغرفة رائحة الغسيل والكرنب. كانت «مادلين» تدخّن ومرفقاها على الطّاولة. أمّا «دينيس» فقد كان أمامها كتاب. كانوا مُفعمين بالحياة. بالنّسبة إليهم، سيكون لتلك اللّيلة نهاية؛ سيكون لها فجر.

عن هذه الرّواية أودُّ القول معوّلاً فقط على انطباع القارئ وما يعلق في الذّاكرة من أسئلة مزعجة: إنّ الكاتبة قد نجحت في تحويل الأفكار إلى أحداث؛ فجاءت متشابكة وملغزة تشابك القيَم وتقاطعها. تخيّل لحظةً أنّك في متاهة جدرانها مرايا: من الصّعب الاهتداءُ إلى المخرج، لكنّك، من دون شكّ، ستلوحُ لك نفسُك كما لم ترها من قبل، ستُفاجئك نفسُك، ستكتشفُها، ستبرُز لك، ستستقلّ عنك وربّما ارتسمتْ في نظرها.
جون بلومار بطلُ هذه الرّواية حدث معه ما يشبه ذلك. عندما اختار إعادة بناء حياته حسب مشيئته لا كما صمّمها له قدرٌ لا يطلب رأيك في ما يجب أن تكون عليه عائلتك أو بلدُك أو حقيبتك. فكأنّه بذلك أراد أن يريد؛ أراد أن يساهم في خلق نفسه؛ أن يخوض تجربة السُّمُوّ والصّدق والتّجرّد من الحظّ. ولو جاز اختزالُ مغامرته الإنسانيّة في جملة واحدة لقلتُ: «لقد بذل جون بلومار من نفسه دماءَ الآخرين!». قد تبدو المفارقة عجيبة وهي تحديداً من بين أجمل ما قد يظلّ يشغل المخيّلة ويمنح هذه الرّواية جمالاً استثنائيّاً.

لوحة الغلاف: L Ouvrier Mort-The Worker Death 1936